في جسد آخــر

في جسد آخر

رواية

د. أحمد السندوبي

في جسد آخر

اسم الكاتب: أحمد السندوبي
تدقيق لغوي: محمود ربيع
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 2202

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

إهداء

إلى أستاذي الذي لم يعلمني قواعد اللغة العربية بقدر ما علمني أن أحبها. الذي لم يطلب مني قط أن أقرأ ولكنه استطاع أن يجعلني مدمنًا للقراءة. الذي علمني أنه من الأفضل للخط المستقيم أن يتوقف على أن ينحني لكل عائق يقابله. إلى من تمنيتُ أن يكون أول من يقرأ لي. إلى أبي رحمة الله عليه.

د. أحمد السندوبي

"إلى تلك التي تملك مفاتيح قلبي وعقلي وحياتي. وبدونها أحيا بنصف قلب... بنصف عقل.. بنصف أحلام.. نصف حياة

إلى قمري الذي انفصل عني عند بدءِ الخليقة وتركني أدور في فلكه منذ الأزل.

وحتى يعود لي ليملأ الفراغ الذي تركه في روحي وفي قلبي والذي لا يناسب سواه"

ياسر الجندي

1
[الصندوق الأسود]

ظلام....

بدأت أتحسّس ما حولي.

لم أعد أندهش من استيقاظي لأجد نفسي في مكان غريب، تحسّست الفراش.. فراش؟!

لمْ أنم على فراش منذ فترة طويلة.

وجدتْ يدي الباحثة في الظلام زرًا.

أضاء مصباحًا صغيرًا يقف على منضدة مجاورة.

غرفة صغيرة نظيفة، أثاث بسيط، فراش، منضدة، مقعدان، ثلاجة صغيرة.

تبدو كغرفة فندق.

تختلف تمامًا عن الجدران الرمادية والأرض الرطبة التي هي آخر ما أذكر.

لابد أنهم يحيكون خدعة جديدة!

قمت أتفقد المكان، بطاقة صغيرة بها اسم فندق وأرقام هاتف، بقايا طعام وعلب مياه غازية فارغة، ورقة بها أرقام تحويلات الفندق ومواعيد الوجبات، وصل استلام ثمن ليلتين بغرفة فردية متضمنًا الإفطار باسم الأستاذ محمد جمال.

حقيبة صغيرة بجوار الفراش فتحتُها، وجدت مظروفين ورقيّين وحافظة نقود، فتحتها فوجدت بطاقة باسم محمد جمال عطية.

فتحت المظروف الأول فوجدت فيه خطابًا قصيرًا...

" صديقي العزيز الأستاذ محمد جمال،
تمنياتنا لك برحلة عمل موفقة. أتمنى أن تكون ملابسك الجديدة مناسبة لك، أعتقد أنها ستناسب رحلتك جدًا. عمومًا ملابسك القديمة معي، لم تكن لتساعدك في أسفارك الكثيرة ستحتاج لملابس خفيفة أكثر، على العموم سأحتفظ بها لحين عودتك لترى إن كانت لازالت مناسبة لك.
بالنسبة لبقية الأشياء فقد وضعتها في الحقائب وأغلقتها جيدًا، وتركتُ لك المفاتيح لتفتحها متى شئت. استعن بعزيمتك وبأصدقائك لتحقيق أهدافك، وأتمنى أن تبحث في مكتبتك عن الكتاب الذي طلبته منك."

فتحت المظروف الثاني، به ورقة صغيرة...
"أخبرتُ المستأجر عن الثعبان الذي في القبو كما طلبتَ، لكنه صمّم أن يستأجر البيت والقبو، إن جاءك أعطه المفتاح ودعه يتولى أمر القبو بما فيه، لا تشغل بالك بسيارتك القديمة؛ سأحاول أن أنقلها لمرآب بيتي لحين عودتك. أعرف ميكانيكيًا لا بأس به سيصلح لك ما فسد في الحادث الأخير، وسيخلّصك أيضًا من صوت المحرك المرتفع الذي أتعبك طويلًا، مفتاح البيت تركته لك في القلب.

المخلص:
عبد الحميد الدسوقي"

أيًا كانت الخدعة التي يدبرها هؤلاء الثعالب فلأتجاوب معهم.
رفعتُ سماعة الهاتف وطلبتُ رقم الاستقبال المدوّن في الورقة بجانبه، فردّ عليّ صوت أنثوي فقلت:
- لو سمحتِ، أريد أن أقوم بعمل (check out).

فردَّت بأدب مع صوت تقليب في أوراق:

- أوكي يـا فنـدم، لحظـة معايـا، حسـاب حضـرتك خـالص ليلتـين، وحضرتك معاك لغاية الساعة ١٢ آخر معاد لل **check out**.
- ممكن أعرف اتجاه القِبلة في الغرفة؟
- زي ما قلت لحضرتك امبارح يا فندم، بالنسبة لغرفة حضرتك القبلة في اتجاه باب الغرفة على طول، حضرتك الفطار في التراس لغاية الساعة ٩، ولو حضرتك عاوز تفطر في الغرفة ممكن تبلّغ المطبخ، تؤمر بحاجة تانية؟

شكرتُها ووضعتُ السماعة.

هل أنا فعلًا في فندق؟! حمام صغير ملحق بالغرفة.

وقفت شاردًا أفكر في الفخ الجديد، ترى ماذا دبّروا لي!

مهلًا هناك خطأ ما. نظرت ثانيةً في المرآة التي مررتُ عليها في الحمام.

من هذا؟! ليس هذا وجهي!

ماذا فعلتم بي يا ملاعين؟

****

التراس كان عبارة عن غرفة واسعة لها نوافذ كبيرة وبها شرفة صغيرة، عدد قليل من النزلاء بعضهم أجانب يأكلون في صمت، موسيقى هادئة.

قابلني موظف مهذب قادني لإحدى الموائد وأشار لي لمكان البوفيه.

جلست آكل في شرود على أمل أن تعيد لي القهوة عديمة المذاق ذِهني المشتت.

نظرت من النافذة فوجدتُ المنظر يبدو مألوفًا، فأخذتُ قدح القهوة وخرجت إلى الشرفة.

إنه فعلًا مجمع التحرير، نظرتُ للجانب الآخر فرأيت مبنى المتحف المصري، إذن هذا هو ميدان التحرير. يبدو مختلفًا جدًا عن آخر مرة رأيته فيها.
مبنى الحزب الوطني يلوح في الخلفية يلطّخه سواد الحريق.
بعض الخيام في وسط الميدان ولافتات كثيرة تطالب بحق الشهداء ومحاكمة الفاسدين، صور لمبارك على حبل المشنقة، (يسقط يسقط حكم العسكر).
كنت قد تابعتُ أخبار الثورة كأنها حلم... شيء لا يصدق، بعد أن تأكدت أنه لا فكاك لهذا الوطن من مخالب الأخطبوط ذي المليون ذراع الذي يحكم سيطرته عليه ويتغلغل في أعماق أعماقه، وأنه لا فكاك لي شخصيًا بعد ما عرفته وبعد محاولاتي البائسة للهروب، لكن فجأة هبّ البركان الذي قد ظنه الجميع قد خمد ليطيح بجميع القيود.
بعدها تكلمت مع الشيخ صابر وأخبرته بنيتي العودة إلى مصر فقال لي أن أحذر لأنه "ربما الأخطبوط الذي يحكم سيطرته على هذا الوطن فقَدَ بعضًا من أذرعه فقط، ولكنه لم يفقد سيطرته، هو فقط غيّر وجهه".
لم آبه لطبيعته المتشائمة وعدت لمصر، وليتني لم أفعل!
عدتُ لغرفتي، فتحتُ حافظة النقود، نظرتُ للصورة في البطاقة وقارنتها بالصورة التي في المرآة.
محمد جمال عطية.... بكالوريوس تجارة... بورسعيد.
يبدو أنني سأضطر أن أكون محمد جمال عطية.
أخذتُ أتفحصُ وجهي جيدًا بحثًا عن آثار عمليات أو آثار من وجهي القديم.
لا شيء، تُرى ماذا فعلوا بي؟! ولماذا؟!
المشكلة أن ذاكرتي مشوّشة بشكل عجيب، أعرف من أنا جيدًا، لكني لا أعرف كيف جئت إلى هنا، وماذا حدث في الليلتين اللتين قضيتهما في هذا الفندق؟

أعرف فقط أن هذه خدعة جديدة منهم، وأعرف أنهم يريدون مني شيئًا، وأعرف أني لن أعطيَهم ما يريدون مهما فعلوا.
وضعتُ الحافظة في جيبي وأخذتُ الحقيبة وخرجت من الغرفة.
سلّمتُ مفتاح الغرفة في استقبال الفندق الذي يحتل طابقين فقط في أعلى البناية القديمة المطلّة على ميدان التحرير.
من أين أبدأ إذن؟
ما دمتُ في القاهرة فلأبدأ من عند طارق.

****

نزلت إلى محطة مترو السادات بخطوات سريعة.
أخذت أتجول قليلًا.... أشعر أنهم قريبون.
لستُ أدري كيف! ولكني أشعر أن أحدهم يراقبني، حسنًا؛ لا بأس ببعض المرح.
وقفتُ شاردًا أمام المترو أتابع تزاحم الركاب الداخلين أمام الباب، تظاهرت بالنظر في الاتجاه الآخر. وعندما بدأ الباب في الانغلاق قفزتُ داخل المترو في آخر لحظة؛ كي لا يتبعني أحد، وفي المحطة التالية فعلتُ نفس الشيء، ونزلت في آخر لحظة. وأخذتُ أتنقّلُ بين القطارات لمدة ساعة حتى زال شعور المراقبة، ثم ركبت مترو الجيزة.
ظفرتُ أخيرًا بمكانٍ للجلوس. جلستُ شاردًا وسط ضجيج المترو وأصوات الركاب الذين لم تعد تشغلهم إلا السياسة..
"لقد رأيتهم بعيني، جنود بزي الجيش يضربون المعتصمين".
"الجيش هو الذي حمى الثورة"، "الإخوان ركبوا الثورة بالفعل".
"هم الذين لهم وجود في الشارع، وعندهم مشروع للنهوض بالبلد".

"البرادعي هو سبب الحراك السياسي الذي أدى للثورة"
"يريد أن يخرِبَ البلد كما فعل في العراق"، "غدًا تندمون على أيام مبارك"، "ماذا يريد المعتصمون؟! منهم لله، نريد أن نعمل وتدور عجلة الإنتاج"
جدال على سبيل الجدال، أناس لا يعرف بعضهم البعض، يعارض كل منهم رأي الآخر؛ فلو غبتُ بذهني ثوانٍ أفاجَأ أنهم لا زالوا في جدالهم، ولكن بشكل معكوس، فمن كان يرى أن المعتصمين عملاء ممولُون أصبح يدافع عنهم ويهاجم المجلس العسكري وبالعكس.
شردتُ بذهني بعيدًا عنهم.
تُرى هل لازال طارق يسكن في نفس العنوان؟
ترى كيف صرتَ الآن يا باشمهندس؟

****

كانت فرحتي كبيرة جدًا يوم نتيجة الثانوية العامة، فوسْط دهشة الجميع فقد حصلت على مجموع كبير رغم إهمالي طوال العام الذي جعل توقعات الجميع –بما فيهم أنا شخصيًا- أني لن أجد كلية تقبلني، وسألتحق بالمعهد الفني التجاري بطلخا، أو ما نسميه اصطلاحًا "طب طلخا"، لكن أبي لم يكن سعيدًا.
رغم أنه ظل يلومني طوال العام على إهمالي وإضاعتي للوقت إلا أن سقف توقعاته بالنسبة لي كان مرتفعًا جدًا. قبل النتيجة وجدته يتابع بشغف إعلان أسماء أوائل الجمهورية، ماذا؟! هل كان يتوقع أبي أن أكون أنا من أوائل الجمهورية؟!

وعند ظهور النتيجة تلقيتُ التهنئة من الجميع إلا هو! كل ما قاله هو أنني بهذا المجموع لن أستطيع الالتحاق بكلية الطب.

طِبّ؟! ومن قال أنني أريد أن أدخل كلية الطب؟! من قال أنني كنت مرشحًا أصلًا لدخولها؟

لم يكن القسم العلمي وقتها ينقسم إلى علمي علوم وعلمي رياضة؛ ففوجئت أنّ أبي مصمّمٌ أن أكتب في رغباتي بعد كلية الطب كلية الهندسة.

وعندما رفضت قامت ثورة في المنزل لم يخمدها كالعادة إلا تدخل أخي الكبير "محمد"؛ الذي دائمًا ما كان ملاذي الوحيد لإقناع أبي بما أريد، ولكنه هذه المرة أدى المهمة بطريقة معكوسة.

"تعرف أنّ والدَك كان يتمنى أن يدخل أحدُنا كلية الطب أو الهندسة، وكان الأمل كله عليك بعد أن دخلت أنا كلية التجارة؛ فلا تخيب أمله"

- فليضع أمله على "عفاف" هي متفوقة ولن تخيب أمله.

*ولماذا ليس أنت؟ أليس هذا من مصلحتك كذلك أن تكون مهندسًا مرموقًا؟

-ولكني لا أحب الرياضيات، ودراسة الهندسة تعتمد عليها.

"ولكنك تحرز فيها دائمًا درجاتٍ مرتفعة"

-ولكني لا أحب دراستها.

"ومن قال إن دراسة الهندسة مثل دراسة الرياضيات التي كنت تدرسها في المدرسة الثانوية، الأمر في الجامعة مختلف تمامًا، وطريقة التدريس مختلفة"

-تعرف أنني كنت أريد أن ألتحق بكلية الإعلام أو الآداب. أنت تعرف مُيُولي، وتعرف مدى عشقي للأدب.

" ومن قال أنك ستترك عشقك للأدب، لا تنسَ أنني من شجّعك على القراءة أولًا، تستطيع الاهتمام بهوايتك بعيدًا عن الدراسة، هناك مسابقات وندوات أدبية وشعرية في كل الكليات"

المهم أن "محمدًا" أقنعني.

وبالفعل جاءت بطاقة ترشيحي "كلية الهندسة جامعة الزقازيق".

****

نزلت في محطة البحوث.

وخرجتُ من المحطة أمشي على ذكرى العنوان القديم، شارع السودان، المزلقان، ها هي العمارة، المدخل كما هو، الدور الثاني، طرقتُ الباب فجاءني صوتها المتشكك يسأل مَن الطارق؟ ابتسمتُ رغمًا عني، والدة طارق المتشكّكة دائمًا، توقعتُ التحقيق المعتاد.

-المهندس طارق موجود؟

"من يريده؟"

-أنا صديقه.

"صديقه مَن؟"

-اسمي محمد جمال.

"محمد جمال؟! لم أسمع عنك من قبل."

-أنا صديقه من أيام الكلية، ولكني كنت مسافرًا خارج مصر.

"وفيمَ تريده؟"

-لم أره منذ مدة طويلة، وجئت لأسلّم عليه.

"حسنًا، هو غير موجود الآن."

-هل من الممكن أن آخذ رقم هاتفه؟

"لا، ممكن أن تأتي بعد ساعة إن شاء الله يكون "طارق" قد عاد من العمل"
نزلتُ إلى الشارع، بحثتُ عن المقهى الذي اعتدنا الجلوس عليه... وجدته كما هو.
جلستُ هناك وسط رائحة المعسل، وضجيج أحجار الدومينو، والجدال السياسي المعتاد، والضحكات التي يتبعها دائمًا سعال.
وطلبتُ قدحًا من القهوة.
إحساس افتقدته من مدة طويلة جدًا. القهوجي يحضر القهوة ويصبها أمامي بطريقة بهلوانية احترافية، الرائحة المنعشة تخترق سحابة دخان المعسل، وتعبر من أنفي إلى تلافيف مخي مباشرة، ثم مذاق القهوة الذي لم أجده إلا في هذا النوع من المقاهي.
قهوة الكافيهات والفنادق ليس لها هذا المذاق. جميع محاولاتي في المنزل فشلت فشلًا ذريعًا. جربتُ جميع أنواع البن وجميع أنواع وأشكال وأحجام الأواني، (لابد أن تكون النار خفيفة)، (قلّب البن في الماء أولًا)، (لا، سخّن الماء قليلًا ثم أضف البُن)، (أبعد الإناء عن النار)، (قلِّب البن مع الماء على النار)، (التقليب يفسد القهوة)، (لا تضع سكرًا)، (عندما تبدأ الفقاقيع في الظهور ارفع الإناء من على النار بسرعة)، (لا تضع الكثير من البن)، (إذَن غيّر نوع البُنّ مرة أخرى).
كلها نصائح غير مجدية وثبت فشلها بالتجربة.
صار الأمر عقدة لدرجة أني طلبت من قهوجي أن أقف معه وهو يعد القهوة؛ لأرى ماذا يفعل. ولكن المفاجأة أنه لا يفعل أي شيء، لا يلتزم بأي من القواعد السابقة، ومع ذلك النتيجة مختلفة تمامًا! إذن هناك سر سحري يتوارثه القهوجية وممنوع إفشائه للأفندية أمثالي.

لم أجد من يتعاطف مع مشكلتي في المنزل. أمي وأخي "محمد" يجدان أن القهوة التي تعدّها أمي ممتازة، أبي يرى أنها وقاحة مني أن أقول أن قهوة أمي ليست جيدة، و"عفاف" لا تحب القهوة أصلًا.

اضطررتُ أن أستخدم النسكافيه، وهو اختراع مسخيّ من القهوة، ولكن هذا أهون عليّ من أن أشرب القهوة وهي ليست في كامل زينتها، هذه إهانة لها.

وأثناء أسفاري الكثيرة جربتُ الكثير من أنواع القهوة، ولكن أيًّا منها لم تملك مفاتيح عقلي، وظلَلتُ دائمًا أشتاق للقهوة التي اصطلحتُ لها مسمى "قهوة القهوجية"، هي الوحيدة التي تملك مفاتيح....

مهلًا، مفاتيح؟!

ضربت الكلمة ذكرى ما في ذهني.

"لقد تركت لك المفاتيح"، "ابحث عن المفاتيح"

أية مفاتيح؟! ومن الذي قال لي هذه الجملة؟! ومتى؟!

تشويش غريب على ذاكرتي، أحسّ أني قريب جدًا من تذكر الأمر، ولكن هناك ضبابًا يغلفه.

قاطع أفكاري صوت ضحكة عالية متحشرجة أعقبها موجة من السعال و"خشب يا معلم، راحت عليك العشرة، حاسب يا حلو على المشاريب"

"لا، انت بتقرص الزهر يا شيخ صابر"

نظرت تلقائيًا بفضول، رغم أن الصوت يختلف تمامًا عن صوت الشيخ "صابر" الذي أعرفه.

فوجدتُ رجلًا ضخمًا يشرب الشيشة ويضحك بانتصار، ولأنه ملتحٍ فقد ناداه صاحبه بالشيخ -كعادتنا في مصر- ولكنه لا يبدو شيخًا بمعناها الحرفي أو المتعارف، أي لا عمريًّا ولا دينيًا.

كما أن الشيخ صابر أيضًا لم يكن شيخًا.

لست أذكر بالضبط متى ظهر الشيخ "صابر" في منطقتنا.
فقط أذكر عندما كنا نعود من درس اللغة الإنجليزية ونذهب إليه في مكتبته لتصوير الأوراق... محل صغير به ماكينة لتصوير الأوراق والقليل من الأدوات المدرسية.
يستقبلنا دائمًا بوجهه البشوش ولهجته الصعيدية المحببة، وكلامه دائمًا عن شباب الصعيد، واختلافهم عنا شباب المنصورة المدلل.
نال لقب شيخًا فورًا؛ نظرًا للحيته المنمقة، وصار الشيخ "صابر القناوي".
كان الشيخ صابر يؤمّ المصلين أحيانًا في مسجد صغير قريب من بيت صديقي "محمود"، الذي كنتُ أقضي معه الكثير من الوقت. كان بيت "محمود" ملاصقًا لسور كلية الآداب. في أيام الدراسة كوّنّا مجموعة، وكان الأستاذ "فضل" مدرس اللغة الإنجليزية يأتي لبيت "محمود" ليعطينا درسًا خصوصيًا في شقة في الدور العلوي. الأستاذ "فضل" لم يكن مرحًا بطبعه، ولكننا كنا مجموعة من المشاغبين، وجعَلْنا لكل يوم ذكرى موقف مرح رغم اعتراض الأستاذ "فضل".
في أحد الأيام ضبطَنا الأستاذ "فضل" ونحن نتزاحم على النظر من النافذة؛ فجاء ليرى علام ننظر؟ فوجد النافذة تطلّ على ساحة كلية الآداب؛ فأخذ يمزح معنا ويجارينا "وما رأيكم في البنت التي ترتدي البنطال الجينز هناك؟" "هل رأيتم الفتاة التي عند البوابة ذات التنورة القصيرة؟"، وفي اليوم التالي عرفنا أنه وشَى بنا لوالد "محمود" الذي أغلق النافذة بالمسامير.
في أحد الأيام بعد صلاة العشاء شعرتُ بطنين غريب في أذني اعتدت سماعه في المسجد، وكلما سألت "محمودًا" عنه قال إنه لا يسمع شيئًا.
فأشرت لمحمود أن ننصرف.

كان الشيخ "صابر" جالسًا وتجري أصابعه على مسبحته، بينما يتمتم وهو مغمض العينين في تركيز، وعندما خرجنا نادى علينا الشيخ "صابر" عند الباب، وأخذ يسألنا عن أخبار الدراسة وطالبَنا بالتركيز في المذاكرة؛ لأن اختبارات الثانوية العامة اقتربَت، وقال إنه سعيد لأننا نصلي في المسجد، وشجعَنا أن نداوم على الصلاة في المسجد، وأخذ يحدثنا عن فضل صلاة الجماعة.

بعدها صار الشيخ "صابر" لا يفوّت فرصة للكلام معنا، سواء في المسجد أو في مكتبته، وكان رجلًا مرحًا بشوشًا، وأخذ يحدثنا عن أبنائه في الصعيد، ويسألني عن أبي وإخوتي. ويوم نتيجة الثانوية العامة أحضر هدية وجاءني مهنئًا.

وفي أحد الأيام ناداني بعد الصلاة، وقال أنه يريدني في أمر هام واستأذن من "محمود" وأخذني إلى بيته. وهي شقة صغيرة تم اقتطاع إحدى غرفها لتكون المكتبة بعد فتح باب كبير على الشارع.

-"أريد منك خدمة يا باشمهندس."

-تحت أمرك يا شيخ "صابر".

"أريدك أن توصِل رسالة إلى ابني."

-في الصعيد؟

"لا، في القاهرة، وأنتَ الوحيد الذي أستطيع ائتمانه على هذه الرسالة."

قلت وقد بدأ القلق يتسلل إلى قلبي:

وما طبيعة هذه الرسالة؟

فابتسم الشيخ صابر وقال:

- لا تقلق؛ ليست مخدرات ولا منشورات سرية، هي مجرد رسالة شفهية".

ازداد قلقي وقلت في توتر:
"أنا لا أفهم شيئًا يا شيخ صابر، إن كانت هي رسالة شفهية فقط لماذا لا تخبره بها عن طريق الهاتف؟ ولماذا أنا الوحيد الذي يستطيع توصيلها؟
"اهدأ يا بني سأفهمك كلّ شيء، لكن أرجوك أن تسامحني على ما سأقوله لك. إن المعرفة مسئولية. وأنا لم أكن أود تحميلك تلك المسئولية، أنا لست شيخًا واسمي ليس صابر ولست من الصعيد. أنا مُطارَد."
-ممَن؟
-"من جهات كثيرة، لكن لا تنظر لي هكذا، أنا لست مجرمًا أو ما قد يخطر ببالك، فقط أنا أمتلك موهبة ما وحاولتُ بحسن نية أن أستغلها، ولكن حسن النية لم يعُد له وجود في هذا العالم، وللأسف دخلتُ كهف الثعالب بقدمي، وعندما فهمتُ حاولت الخروج، ولكن الخروج من كهف الثعالب غير مسموح به قطّ."
-لست أفهم شيئًا، ما هو كهف الثعالب؟ وأي موهبة تقصد؟!
أغمض الشيخ صابر عينيه في تركيز وقال
"هذه هي"
وهنا شعرت بطَنِين في أذني؛ فقلت:
-هذا ما شعرتُ به مرارًا في المسجد، ولكن ما معنى هذا؟!
-"معناها يا ولدي أنني أستطيع قراءة الأفكار، وهو ما ساعدني على الاختفاء والهروب من الثعالب، لكن أبنائي وزوجتي لا يعرفون عني شيئًا من سنوات، ولا أستطيع الاقتراب منهم؛ لأنهم مُرَاقَبُون، وأريدهم أن يعرفوا حقيقة الأمر؛ أن أباهم ليس مجرمًا تطارده الشرطة."
-لا زلتُ لا أفهم أي شيء.

"حسنًا يا بني سأشرح لك كل شيء، ولكن باختصار؛ لأن الشيخ صابر لابد أن يختفي اليوم! فأنا لا أستطيع البقاء في مكان واحد مدة طويلة، وهناك علامات تقول أنني لابد أن أختفي من هنا لأبدأ من جديد حياة جديدة في مكان جديد باسم جديد."

-أي أنني لن أراك بعد اليوم؟

"بالنسبة للشيخ صابر أجل، بالنسبة لي: من يدري، ولكني سأترك لك مفتاحًا إن أردتَ أن تجدني."

-ماذا تعني بمفتاح؟

"لا تتعجل، فقط لا تقاطعني ودعني أشرح لك كل شيء؛ لأن الوقت يداهمنا"

-سؤال أخير فقط، لماذا أنا؟! لماذا تصارحني بهذا؟ ولماذا أنا الوحيد الذي يستطيع توصيل رسالتك؟

فابتسم الشيخ وقال:

" لأنك تملك الموهبة المضادة يا بني... لأنك الوحيد الذي لا أستطيع أنا ولا غيري قراءة أفكاره، لأنك أنت الصندوق الأسود!"

****

2
[بداية الطريق]

بالفعل في اليوم التالي اختفى الشيخ صابر، وعندما طال اختفاؤه وبدأ الناس في التساؤل قال صاحب المنزل الذي كان يسكن فيه أنه اضطر للسفر للصعيد فجأة نظرًا لمرض زوجته.

بعدها بأسبوعين ذهبتُ إلى القاهرة وسلمتُ الرسالة التي ائتمنَني عليها، والتي وعدته ألا أخبر أحدًا بها قط.

نصحني الشيخ صابر ألا أخبر أحدًا بموهبتي حتى لا أصل لما وصل هو إليه، ولمّا سألته إن كان بإمكاني أن أخبر أصدقائي ابتسم وقال:

"يُفضّل ألا تخبر أحدًا يا بني؛ لأن المعرفة مسئولية، وليس كل الناس على قدر تلك المسئولية، على أية حال أعتقد أنه يمكنك أن تخبر محمودًا، محمودًا فقط، هل فهمت؟"

لم يغمض لي جفن ليلتها، وأخذَت تتدافع الأفكار في رأسي، هل الشيخ صابر مجنون؟ هل يمتلك فعلًا القدرات التي أخبرني بها؟ ولماذا لم يحكم العالم إذن؟ هل هناك آخرون مثلما قال؟ وهل الأمر خطير فعلًا؟

هو بالفعل أثبت لي الكثير مما يملك، بالطبع لم أصدق ما قاله لي مباشرة، ولكنه كان جاهزًا لإثبات ما يقول.

سمعنا طرقًا على الباب؛ فقال لي أن هناك فتاة تريد أن تصوّر مذكرة فيزياء في المكتبة. ثم فتح الباب الموصّل بين الشقة والمكتبة، وأشار لي أن أتبعه.

وجدنا فتاة تحمل مجموعة أوراق:

"لو سمحت يا عمو ممكن تصور لي المذكرة دي؟"

ابتسم وتناول منها الأوراق وأراني الصفحة الأولى "مذكرة الأستاذ عبد الحميد الدسوقي في شرح الفيزياء للثانوية العامة"، ثم بدأ في تصوير المذكرة.
فوجِئتُ بصوته يرن في رأسي "الفتاة معها عشرة جنيهات وتخشى أن أطلب منها أن تبحث عن فكة في مكان آخر، وهي تأخرت على موعد الدرس" تحركتُ من مقعدي منتفضًا وعينيّ على وجهه الذي لم يهتز ولم تتحرك شفتاه. "لا تخف هذا يسمَّى تخاطر".
أخرجَت البنت ورقة من فئة العشرة جنيهات وأعطتها له؛ فأخذها وأعطاها الباقي.
-"هل اقتنعت؟"
- هذا رائع فعلًا. وماذا عني؟ هل أستطيع أنا أيضًا التخاطر وقراءة الأفكار؟
-"لا أدري يا بني مدى قدراتك، ما أعرفه فقط أنني لم أستطع قط قراءة أفكارك، عقلك محصّن ضد الاختراق، وهو شيء نادر جدًا."
-وكيف لي أن أتأكد من ذلك؟ وما فائدة هذه الموهبة حتى لو كانت موجودة؟
-"نصيحتي لك؛ انس الأمر، لا تَشغَل نفسك بها، مادام الله قد حبَاكَ بهذه الموهبة فلابد أن هذا لحكمةٍ ما."
تركني الشيخ صابر في حيرة من أمري تتصارع في عقلي الأفكار والأسئلة والشكوك، هل تكون خدعة ويكون الشيخ صابر قد اتفق مع البنت على سيناريو مذكرة الفيزياء والجنيهات العشرة؟ وما الفائدة؟ وماذا عن حديثه معي دون أن يفتح فمه؟ وماذا عن موهبتي؟ هل هي حقيقية أم أنه فقط كان يخدعني لكي أنقل له رسالته؟
ظللتُ لساعات طويلة أعتصر ذهني محاولًا قراءة أفكار أختي عفاف أو جارنا الأستاذ أمين الذي يجلس دائمًا في شرفة منزله، أو من يجلس أمامي في المواصلات أو المدرج. لا فائدة. لا تخاطر، لا قراءة أفكار، لا تحريك عن بعد.

أنا شخص عادي. لابد أن أقتنع بهذا، خاصة مع اقتراب اختبارات نصف العام.
أنا إنسان عادي.

****

كنت أجلس في المدرج شاردًا أتابع حركات الدكتور الذي ملأ السبورة رسومًا وكتابة دون أن أفهم منها أي شيء، نظرت للطالب الذي يجلس بجواري الذي يبدو منهمكًا في نقل كل حرف يقوله الدكتور في دفتره.
فقلت له بصوت منخفض:
-ما معنى هذا؟
فخفض رأسه خوفًا من أن يراه الدكتور، وقال هامسًا وهو ينظر لدفتره:
سأشرح لك، إنه يقصد.....
-مهلًا لحظة، هل فهمت حقًا ما قاله حقًا أم أنك فقط ستكرر كلام "عزيز بيك الأليت" هذا؟
فانفجر الطالب ضاحكًا من التشبيه.
"الحمار الذي يضحك، أجل أنت، وأنت أيضًا، هيا إلى خارج المدرج."
قالها الدكتور متقمصًا حقًا طريقة "حسن كامي" في شخصية "عزيز بيك الأليت". خرجنا من المدرج وقد احمرّ وجهينا.
-ياسر الجندي من المنصورة.
"طارق عبد الله، من القاهرة"
وكانت آخر مرة يُطرَد فيها طارق من محاضرة، ولكن بالنسبة إليّ كانت فقط المرة الأولى، وكانت بداية صداقتنا رغم اختلافنا الواضح.
بعدها سكنا سويًا في المدينة الجامعية.

وزرته في أجازة نصف العام في القاهرة وتعرفت إلى والدته، سيدة قوية الشخصية تحكم قبضتها على ابنها الوحيد جيدًا؛ حتى لا يضيع منها، خاصة بعد وفاة والده.

رحبَّت بي أكثر عندما علمَت أني من المنصورة، وقالت إنها عاشت في المنصورة حتى سن الثامنة عشرة، وأخذت تحكي لي عن ذكرياتها في حي توريل وكورنيش النيل والسكة الجديدة وشارع العباسي.

تكررَت زياراتي لطارق وظلَّت علاقتي بوالدته جيدة إلى أن تدهورت علاقتي بكلية الهندسة.

فأنا لم أجد نفسي أبدًا في كلية الهندسة، كان ما قاله أخي محمد صحيحًا، بالفعل الدراسة في كلية الهندسة تختلف كثيرًا عن دراسة الرياضيات في المرحلة الثانوية، وذلك لأنها أسوأ بكثير!

بعد اختبارات نصف العام اقتنعتُ تمامًا أنه لا مكان لي في هذه الكلية، وعندما ظهرَت نتيجتي ورسبتُ في السنة الإعدادية لم يكن ذلك مفاجئًا لي، ولكنه كان للأسف مفاجئًا لأبي الذي غضب مني بشدة، وعندما أخبرته أنني لن أستطيع أن أكمل في هذه الكلية وأنني أريد أن أحول أوراقي لكلية أخرى ثار ورفض تمامًا، وكانت النتيجة أنني رسبتُ مرة أخرى في السنة الإعدادية؛ فتم فصلي من الكلية على أن أحوّل أوراقي لكلية غير عملية.

ومن وقتها ساءت علاقتي بوالدي الذي لم يسامحني على ضياع أمله حتى وفاته بعدها بعدة أعوام، ولم يعوّض ذلك دخول عفاف كلية الطب، رغم سعادة أبي بها إلا أنه كان دائمًا ما يقول أنني قد خيبتُ أمله.

شخص آخر لم يسامحني أبدًا على فشلي في كلية الهندسة، إنها والدة طارق، بدأَت تراني خطرًا على ابنها، وبدأت لا ترحب بزياراتي في منزلها، ولكن ذلك لم يوقف صداقتنا التي استمرت لسنوات طويلة.

****

"باشمهندس طارق"

التفت طارق إليّ في تساؤل.

يبدو كما هو، فقط ازداد بدانة وتراجع الشعر عن مقدمة رأسه، وازدادت نظارته سمكًا.

-بعد إذنك أريد أن أتكلم معك قليلًا.

"هل من الممكن أن أعرف إلى من أتحدث أولًا؟"

-الأمر معقد بعض الشيء، دعنا نجلس أولًا وسأخبرك. عمومًا الأمر يتعلق بـ"ياسرالجندي".

"ياسر الجندي؟ لقد قلت كل ما أعرفه عنه أكثر من مرة."

-حسنًا دعنا نجلس في المقهى القريب حتى لانزعج والدتك، وأعدك أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا.

جاء معي متأففًا، ثم أخرج هاتفه واتصل بوالدته يخبرها أنه سيتأخر قليلًا.

"أجل. أجل قابلته، إنه معي الآن، هل عادَت سلوى؟ حسنًا دقائق وأعود للمنزل إن شاء الله".

طلبتُ قهوة مرة أخرى، وسألته إن كان لا زال لا يشرب القهوة؛ فرد باقتضاب:

-تفضل. ما الموضوع؟

تابعتُ القهوجي وهو يصب القهوة بطريقته السحرية واستنشقتُ عبيرَها، ثم قلت:

-حسنًا، أنا ياسر الجندي.

نظر لي نظرة طويلة ثم قال:

-لا وقت عندي للدعابات السخيفة، من أنت؟ وماذا تريد؟

-اهدأ قليلًا، أعرف أن شكلي اختلف تمامًا، ولكني أنا فعلًا ياسر الجندي، زميلك في كلية الهندسة بالزقازيق، ورفيقك في المدينة الجامعية، والذي يعرف عنك الكثير.

"لقد حكيت في التحقيقات كل ما أعرفه عن ياسر، وبالتالي صار الكل يعرف تلك المعلومات"

-وهل حكيت لهم عن "عزيز بك الأليت"، عن كسر ساقك في المدينة الجامعية، عن الحساسية المفرطة من البيض التي تعاني منها؟ هل قلت لهم ماذا كانت والدتك تقول حين تعلم بزيارتي لك.... ظهر الفساد في البر والبحر؟

قال طارق مرتبكًا:

-ماذا تريد أن تثبت؟

-أنني ياسر الجندي.

نظر بعيدًا وقال بصوت خفيض

" وإذا افترضنا أنني صدقت؟ "

-أريد أن أعرف ماذا حدث؟

شرد ببصره قليلًا ثم قال:

"بعد أن انقطعت أخبارك -أو أخبار ياسر- في الخارج فوجئت بمن يطلبني للتحقيق، وتكرر الأمر عدة مرات، حتى إنهم طلبوا والدتي أيضًا في إحداها، تحقيقات في جهات غير معلومة عن طريق ناس غريبي الأطوار يسألون عن أدق التفاصيل، بعض التحقيقات كان يحضرها بعض الأجانب، ولكنهم كانوا يكتفون بالمشاهدة في صمت، أجهزة غريبة، وفي النهاية لا شيء، فقط تعليمات مشددة أن أبلغهم في حال معرفتي أي شيء عن ياسر"

-وماذا قلت لهم؟

"أخبرتهم كل ما أعرفه عن ياسر؛ فأنا لا أجد في هذا ضررًا له، وكذلك أنا مضطر أن أخبرهم عن لقائنا هذا."

-حسنًا، أنت محق؛ لا ضرر في هذا، أنا أعتذر عن كل ما سببتُه لك ولوالدتك، وصدقني لم أقصد هذا أبدًا.

-"ياسر، ماذا فعلت ليبحثوا عنك بهذه الطريقة؟"

-صدقني يا صديقي كل ما فعلته أنني لبَّيتُ كل ما طلبوه مني، لم أرتكب جريمة ولم أخالِفْ ضميري ولم أخرق القانون، وكل ما طلبته منهم أن يتركوني وشأني ولكنهم رفضوا، عمومًا الحمد لله أن جاءتني الفرصة لأن أعتذر لك ولأودعك؛ فربما يكون هذا لقاءنا الأخير.

سلمتُ عليه وحضنتُه؛ فحضنني بحرارة وقال لي:

-حفظك الله.

وعندما انصرفت ناداني:

-ياسر، كانت معهم فتاة في إحدى المرات وقالت لي سرّا أن أبلغك أن تتصل بها لأمر بالغ الأهمية، إنها ذات الفتاة التي كانت معنا في هندسة الزقازيق، لا أذكر اسمها، ولكنها نحيفة وعيناها خضراوان وترتدي نظارة و.....

-نيرمين؟

"أجل نيرمين"

-نيرمين، خطيئتي الكبرى.

****

3

[نيرمين]

اختبارات نهاية العام للسنة الإعدادية-كلية الهندسة-جامعة الزقازيق-مادة (الهندسة الوصفية).

رائحة التوتر والأدرينالين تعبق المكان، عيون حمراء تحتها هالات سوداء، أصابع ترتعش، طالب يقرض أظافره في عصبية، فتاة تهز ساقيها لاإراديّا وكأن بها مسًّا كهربائيًا.

أول سنة بالجامعة والصفعة الأولى المعتادة؛ ليس الأمر كما كان بالثانوية العامة، تذاكر المناهج كلها ونماذج الاختبارات وتدخل الاختبار لتضيع نصف درجة هنا وتنسى سؤالًا هناك فقط، لقد مضَى هذا العهد يا صغيري، هنا عليك أن تجاهد لتنجح؛ لأن طريقة المناهج تختلف، وطريقة المذاكرة تختلف، وطبيعة الاختبارات تختلف، حتى طريقة الإجابة تختلف، وطبعًا طريقة التقييم تختلف.

أنا جالس هناك في الصف الثالث، أعبثُ بالورقة في هدوء، لم يعد هناك مجال للتوتر. اختبارات المواد السابقة قضَت على أي أمل لي في تحسن علاقتي مع الكلية. رغم أني ذاكرت قدر استطاعتي إلا أنه من الواضح أنني أذاكر بالطريقة الخاطئة، أو من المصادر الخاطئة. أما هذا الاختبار فلقد شككتُ من البداية أنهم وزعوا عليّ بالخطأ اختبار الفرقة الرابعة هندسة ميكانيكا قوى، أو اختبار جراحة المخ والأعصاب، أو الفيزياء النووية، أو أي شيء غير اختبار الهندسة الوصفية التي سهرتُ أراجعها طوال الليل.

أخذت أجاوب بطريقة ابتكرتها وهي (اكتب أي شيء تعرف أنه صحيح، حتى ولو لم يكن مطلوبًا في السؤال)

الاختبار الماضي سألني طارق عما كتبته في إجابة أحد الأسئلة، فلما أخبرته بما كتبت قال بدهشة:
"ولكن لا علاقة لهذا بالسؤال."
-ولكني ذاكرت هذا الموضوع جيدًا.
"ولكنه لم يأتِ منه شيء بالاختبار."
-هذا صحيح، لكن كان من المفترض أن يأتي؛ لذلك كتبته.
هنا انفجر طارق ضاحكًا في هيستيريا.

هنا شعرت بالطنين إياه، منذ بداية الاختبارات وأنا أشعر به بين الحين والآخر، في البداية ظننتُ أن الشيخ صابر موجود في مكان قريب، ولكن لا شيء يحدث، فقط الطنين يظهر ويختفي. بدأتُ أراقب الطلبة حولي، لا شيء. هنا... لمحتها، تجلس على بعد ثلاثة مقاعد من مكاني، تغمض عينيها في تركيز وتتظاهر بالكتابة، بينما القلم لا يتحرك. فجأة فتحَت عينيها والتقتا بعينيّ؛ فاختفى الطنين فجأة.
هل من الممكن أن تكون هذه الفتاة تمتلك القدرة على قراءة الأفكار مثل الشيخ صابر؟
لحظة واحدة وأشاحت بوجهها بعيدًا، بينما جاءني المراقب يطالبني أن أنظر في ورقتي.
أعرفها جيدًا هذه الفتاة، عصبية، منطوية، بلا أصدقاء، لا تتكلم مع أحد، تبدو دائمًا غاضبة، لا نعرف عنها غير نظرتها المشمئزة دائمًا.
دخل أستاذ المادة سعيدًا منتشيًا "كيف الحال يا أولاد؟ هل هناك شيء غير واضح في الأسئلة؟ طبعًا الاختبار سهل جدًا، أليس كذلك؟"

كانت عيناه تفيضان جذلًا واستمتاعًا، وعندما وجد الجميع ينظرون له في وجوم وتعاسة دون رد ارتفعت ضحكاته عاليًا.

وهنا رفع أحد الطلبة يده في تردد وقال:

عفوًا يا سيدي، ولكن ما المطلوب بالضبط في السؤال الثالث؟

هنا ارتسم الغضب على ملامحه وقال:

طبعًا لأنك لم تكن تحضر المحاضرات، لو كنتَ حضرت المحاضرة كنت عرفت ما المقصود.

وأخذ يكمل كلامه مبتعدًا دون أن يستمع لرد الطالب الذي أخذ يؤكد وقد احمرّ وجهه خجلًا أنه حضر المحاضرات كلها، بينما الأستاذ يكمل كلامه دون انتظار لرده "يجلسون في الكافيتيريا مع الفتيات ويتركون المحاضرات، والآن يسألون ما المقصود، المقصود يا باشمهندس يا محترم أن تحترم نفسك وتحترم أستاذك وتحضر المحاضرة"

ورغم خروجه من اللجنة ظل صوته يأتينا من الخارج وهو يردد "لكن لماذا أحضر محاضرة الدكتور خليفة الذي أفنى عمره في العلم؟ هل أجلس أستمع لصوته الممل وأنظر في وجهه العكر وأترك سوسو جالسة وحدها في الكافيتيريا؟ لا طبعًا لا يصح. لا تشتكِ إذَن من الأسئلة يا....".

ولم يتوقف حتى دخل لجنة أخرى ليتشفَّى في طلبة آخرين.

كانت عيني على الفتاة إياها، كانت مرة أخرى تغمض عينيها في تركيز أثناء وجود الدكتور خليفة، وعندما انصرف بدأت تكتب بلهفة وسرعة، ثم رفعت عينيها، فلما رأتني أحدق فيها ارتبكَت ونظرت أمامها، ثم تصنّعَت التفكير قليلًا وبدأت تكتب بهدوء أكثر.

بعد انتهاء الاختبار فوجئت بها تناديني

"يا باشمهندس، لو سمحت"

فنظرت لها متسائلًا: فقالت:

"كنت أسأل عن إجابة السؤال الثالث."

-ألم تسمعيها من الدكتور خليفة؟

"لقد حضرت محاضراته كلها، وهو لم يقل شيئا عن هذا الموضوع."

ابتلعتُ ريقي وقلت الجملة التي ندمت عليها طويلًا:

-بالفعل هو لم يقلها لنا في المحاضرات، ولكني أعتقد أنه قالها لكِ في اللجنة.

نظرَت في عينيّ وازداد الطنين في أذنيّ مصحوبًا بدوار نتيجة التحديق في عينيها الخضراوين.

ثم توقف الطنين فجأة، وقالت:

-"هذا غريب، كيف عرفتَ بالأمر؟"

-لستُ أدري.

"حسنًا يبدو أنه سيكون بيننا حديث طويل."

****

بعد وداع طارق ركبتُ ميكروباص من موقف بولاق حتى موقف عبود. حجزت المقعد الأمامي، وأخبرتُ السائق أني سأدفع الأجرة مضاعفة. أخرج علبة سجائره وأعطاني واحدة مبتسمًا "اتفضل يا برنس"؛ فرفضتُ شاكرًا فسألني إن كنت مدخنًا أم لا.

-لقد كنت مدخنًا شرهًا، ولكني أقلعتُ عن التدخين.

" كيف فعلتَ ذلك يا برنس؟

هنا قفزَت إلى ذهني ذكريات قوية أقرب إلى الرؤى، ألم شديد، صوت ضحكات شرسة، صوت بارد قاسي، (هيا تكلم الآن وسينتهي كل شيء)، رائحة دخان سجائر قوية، ألم حارق في الصدر ورائحة احتراق، صرخة ألم. (تكلم).

"ماذا هناك يا أستاذ؟، كنتُ أعرف منذ الصباح أن هذا اليوم لن يمر على خير"

أفقتُ فوجدت السائق ينظر لي في قلق وأنا أتحسّس صدري وأتنفس بصعوبة؛ فقلت له:

لا تقلق؛ أنا بخير.

فنظر لي بشك، ثم هز رأسه ووضع السيجارة بين شفتيه، وقال وهو يشعلها:

-عسى الله أن يتوب عليّ مثلك.

فقلت له:

عافاك الله، إن شاء الله تقلع عن التدخين، ولكن بطريقة أفضل.

عدتُ أتحسّس صدري، أين آثار الحروق؟ أيكون هذا حلمًا؟! أم أن هذا ليس جسدي فعلًا؟! لعنة الله على الثعالب وأفاعيلهم وعلى من وضعني في طريقهم.

****

-هل تستطيعين معرفة ما تفكر فيه تلك الفتاة هناك؟

"إنها تسب وتلعن اليوم الذي دخلت فيه الكلية، وتحاول أن تبدو متماسكة حتى تصل لبيتها فتنفجر باكية"

-ماذا عن هذه؟

"أراكَ تهتم بأفكار الفتيات، حسنًا، هي تفكر في إحدى إجاباتها؛ تحاول تذكر هل كتبت الإجابة كاملة أم نسيت جزءًا منها."

-وماذا عن هذين؟

"الأول يفكر ماذا يأكل لأنه يشعر بجوع شديد دائمًا بعد الاختبارات، أما الثاني فعقله مليء فقط بالقاذورات تجاه الفتاة التي تكاد تبكي"

احمرّ وجهها خجلًا.

فقلت:

-كم كنت أتمنى أن أمتلك موهبة مثل هذه.

"هذه ليست موهبة إنها لعنة، أن ترى كل ما يحاول الناس إخفاءه عنك، بل وعن أنفسهم، علاقتك تسوء بأقرب الناس إليك، لا تستطيع تكوين صداقات، لا تتخيل كم القاذورات والأحقاد والشرور والأفكار المشينة التي تدور بعقول الناس من حولك، إن عقول الحيوانات أنقى وأطهر بكثير، إنها نعمة كبيرة أن ترى من الناس فقط ما يريدون أن يُظهِروا لك، ألّا يصيبك منهم إلا ما يقولونه ويفعلونه مهما كان سيئًا أو جارحًا؛ فأكثر الناس شرًا لا ينفّذ إلا جزءًا يسيرًا مما يدور في عقله من أفكار شريرة، لو نفذ نصفها فقط قولًا أو فعلًا لصرنا في غابة يأكل بعضنا بعضًا."

-على الأقل هناك جانب إيجابي، تستطيعين قراءة الإجابات في عقل الممتحن، تتوقعين رد فعل الآخرين، تعرفين أقل سعر سيقبل به البائع عند مساومته، لا أحد يستطيع خداعك.

-"كل هذا لا يساوي شيئًا مقابل عدم مقدرتك على تكوين صداقات أو حتى الكلام مع الناس؛ فسريعًا ما تلاحقك تعليقاتهم الذهنية (يا لكِ من كاذبة)، (كيف تتكلم هذه الفتاة هكذا بأنفها هذا، لو عندي أنف كهذا لكنتُ انتحرت حتمًا)، (ألم تنظر هذه الفتاة في المرآة قبل أن تخرج من بيتها؟! ما هذا الذي

ترتديه!)، (ميرسي؟!، رحم الله أباكِ كان.....)، هذا بالإضافة إلى النظرات الوقحة من الرجال التي تصحبها أفكار مُشِينة وقاذورات لا حصر لها، فقط أنت أستطيع الكلام معك بحرية دون خوف من ردود صادمة"

تذكرتُ وحدتها الدائمة وعدم كلامها مع أحد ونظراتها التي تفيض بالاحتقار والاشمئزاز لكل ما حولها، ولكن جملتها الأخيرة أعطتني إيحاءً غير مريح عن اتجاه لا أود أن تسير علاقتنا فيه، فقلت:

-وما أدراكِ؟ ربما كانت رأسي تمتلئ بأفكار مماثلة.

فنظرت بغضب:

ماذا تقصد بأفكار مماثلة؟

-لا أقصد شيئًا بعينه، فقط أعني أني لستُ ملاكًا، وأن لي -ولا بد- أخطائي وأفكاري السيئة أيضًا.

فابتسمت قائلة:

-فليكُن في رأسك ما يكون من أفكار، المهم ألا تزعجني هذه الأفكار.

****

بعد رسوبي في السنة الإعدادية، وغضب أبي الشديد ورفضه تمامًا أن أحوّل أوراقي لكلية أخرى ساءت علاقتي مع الحياة عمومًا، وليست مع أبي فحسب، انضممتُ لدفعة جديدة لا أعرف منها أحد، زملاء دفعتي السابقين بهتت علاقتي بهم تدريجيًا، فيما عدا طارق الذي نقل أوراقه إلى هندسة القاهرة، ورغم ذلك استمرت علاقتنا رغم تغيّر معاملة والدته التي صارَت تخاف على مستقبل ابنها منّي. فصرنا في الأجازات عندما أزوره في القاهرة نتقابل في المقهى المجاور لبيته تفاديًا لها.

أيضًا علاقتي مع الكلية ساءت بشكل كبير؛ فصارت قطيعة بيني وبين الفيزياء الهندسية، بالإضافة إلى الحرب المعلنة ضد الهندسة الوصفية والتي لم أفهم حتى الآن فائدة هذا العلم في الوجود.

على العكس من ذلك توطّدَت علاقتي بـ"نيرمين" كثيرًا، خاصة بعدما وضعَت هي لها الأُطر المنظَّمة في بداية العام "نحن أصدقاء فقط، لا يذهبن ذهنك بعيدًا؛ لأني لا أستطيع معرفة ما يدور فيه، فقط اسمح لي أن أكون على راحتي معك؛ لأني لا أستطيع أن أفعل ذلك مع أحد آخر، اتفقنا؟"

أراحني هذا الاتفاق كثيرًا؛ مما وطَّد صداقتنا أكثر، أنا باكتئابي وانعزالي في الكلية وهي بعصبيتها وتوترها وكرهها للعالم شكلنا ثنائيًا متفاهمًا.

بدأتُ أتعاطف مع مأساتها، وأخذتُ أحمّسها أن تستغل الجانب المشرق في موهبتها لتستفيد منها بقدر الإمكان، ونصحتها أن تراجع طبيبًا نفسيًا.

تحملتُ تعليقات زملائي وتلميحاتهم عن علاقتي بـ"موسوليني" كما أطلقوا عليها. لم أهتم بالأمر. حتى انقطعَت علاقتنا مع نهاية العام.

ومرَّت السنة الكئيبة تاركة آثارها الدامية في روحي، وتحولَّت علاقتي المتوترة بأبي إلى قطيعة صريحة بعد رسوبي للمرة الثانية وفصلي من الكلية مع منحي فرصة للانتساب إلى كلية غير عملية، شبَّت النيران في بيتنا، وبوساطة من محمد أخي عرضتُ على أبي أن أدخل كلية الآداب كما كنت أود من البداية، جاءني الرد مع محمد بالموافقة شريطة أن أدخل قسم اللغة الإنجليزية وليس اللغة العربية، لم أعترض إرضاءً لأبي.

كنت أعرف أن قسم اللغة الإنجليزية يدرس الأدب الإنجليزي والنقد؛ فشعرت أن ذلك سيناسب ميولي الأدبية أيضًا.

كان محمود قد دخل كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، ومنه عرفتُ طبيعة الدراسة هناك، وللمفارقة كان محمود يتمنى دخول كلية الهندسة، وكنا دائمًا نتمنى تبادل المواقع، ورغم محاولاتي لإقناعه بالبقاء في كلية الآداب، على الأقل من باب حفظ الجيرة؛ فهو يستطيع متابعة محاضراته من نافذة بيته التي أغلقها والده من قبل، إلا أنه صمَّم على تحسين مجموعه في الثانوية بالإضافة لدراسته في كلية الآداب، وهو ما كان يسمح به نظام الثانوية العامة آنذاك، وبالفعل رغم نجاحه في كلية الآداب، اختبَر مرة أخرى مواد الثانوية العامة ونجح بمجموع كبير أهَّله لدخول كلية الهندسة جامعة المنصورة، وفي العام التالي تخرجتُ أنا من كلية الهندسة- من الباب الخلفي طبعًا- وانتسبت لكلية الآداب جامعة المنصورة.

تبادلنا مواقعنا فعلًا أنا ومحمود، ولكن بعد أن أضاع محمود عامًا في تحسين مجموعه، وأضعتُ أنا عامين في كلية الهندسة، طبعًا لم تكن الدراسة في كلية الآداب حُلمًا وَرديًّا، ولم يكن الأساتذة طه حسين وتوفيق الحكيم.

المواد مملة، ولكن على الأقل هم هنا لا يدرّسون الهندسة الوصفية، وهي في رأيي أكبر ميزة لأي كلية، الدراسة هنا على العكس من كلية الهندسة؛ تعطيك وقتًا لكل شيء؛ فبدأت أشارك في المعارض الشعرية والندوات الأدبية، واشتركت في نادي الأدب، وبما أن كلية الآداب كانت خارج الحرم الجامعي الذي يحيط معظم الكليات الباقية؛ كانت لي رحلات دوريّة للحرم الجامعي، سواء لحضور اجتماعات نادي الأدب، أو زيارة معرض أدبي أو فني، أو لزيارة محمود في كلية الهندسة، أو سامح في كلية التجارة، وسامح هو الضلع الثالث (والأعوج) في مثلث صداقتنا، أو كما كنا نسميه "ثالثة الأثافي"! وهو تعبير موفَّق، حيث كان سامح هو نافذتنا على العالم الخلفي، هو من عرض

علينا أول سيجارة، هو مصدر معلوماتنا الرئيسي عن أي شيء غير قانوني أو مشين أو ممنوع، ومع عدم التزامي في الكلية كانت الكلية نفسها غير ملتزمة! فكانت بعض المواد لا تبدأ محاضراتها إلا بعد شهرين من بداية الدراسة، بعض الكتب تصدر قبل الاختبار بأسبوعين، بعض الكتب لا علاقة لها بالمادة وبعضها ليست كتبًا من الأصل! بل تجميع أوراق من عدة كتب، ولكن شراء الكتب هو فرض عين، تدفع الثمن ولابد أن تسجل اسمك في كشف الأسماء في المكتبة؛ لأن الكشف يذهب للدكتور، ومّن رفض شراء الكتاب فقد أهان الدكتور في علمه وشخصه ومكانته وجيبه، ولابد من عقابه.

مع ذلك كنت مستمتعًا بالدراسة؛ قصائد، روايات، مسرحيات، نقد.

تخيّل أن تكون هوايتك هي مجال دراستك، ولدهشة الجميع -بما فيهم أنا نجحتُ وبتفوق، وكنت الأول في اختبار نصف العام، وبعدها كنت الثاني حتى التخرج، طبعًا الأولى كانت "دعاء" فاتنة الدفعة، فتنتُها لم تكن وحدها كافية طبعًا لتكون الأولى على الدفعة، بدليل أنها نجحت بالكاد في اختبار نصف العام، ولكن خطبتها لأحد الأساتذة ثم زواجهما في العام التالي كان له مفعول السحر معها.

أذكر في إحدى الليالي جاءتني أختي عفاف، وكانت وقتها في أول سنة في كلية الطب، وسألتني لماذا لا أذاكر وقد اقتربَت الاختبارات؟ فقلت لها:

-الأمر عندنا يختلف عنكم تمامًا؛ بينما أنتِ جالسة على الكتب طوال الليل بالإضافة إلى العظام التي تخفينها تحت الفراش حتى لا تخيف والدتنا، أجلس أنا مسترخيًا وقد أدّيتُ كل ما عليّ، على سبيل المثال هذه المادة، لقد قرأت الرواية وفي انتظار المذكّرة التي سيصدرها الدكتور ليوضح لنا ماذا يريد بالضبط، معظم الطلبة لم يقرأوا الرواية ويكتفون بالمذكّرة فقط، ولكني نظرًا لأنني طالب مجتهد قرأت الرواية كاملة.

-ما شاء الله، هذا هو الاجتهاد؟! قراءة رواية؟!
*وماذا عليّ أن أفعل؟ هذا هو المطلوب فقط، ومعظم الطلبة لا يفعلون ذلك، سأضرب لكِ مثلًا؛ لقد كنا ندرس في مادة النقد روايات عربية، ومن ضمنها كانت رواية "رُدّ قلبي" ليوسف السباعي، وطلبّت الدكتورة من أحد الطلبة أن يتكلم عن شخصية "علي" في الرواية؛ فتلفّتَ الطالب إلينا طالبًا العون، ثم قال: هل تقصدين "شكري سرحان" في الفيلم؟

****

نزلتُ أمام موقف عبود بعد أن ودّعني السائق بنظرات متشككة، عبرتُ الطريق نحو الموقف المكتظ بالسيارات والركاب والباعة، اتجهتُ نحو موقف سيارات المنصورة، الخلاف الدائم على المكان الأخير في المقعد الخلفي، السيارة اكتملت فيما عدا المقعد الأخير في انتظار راكب صغير الحجم أو فدائي قوي التحمل، أو أن يتبرع أحدهم بأجرة راكب حتى يتحرك السائق، الركاب الرافضون لهذا المكان الضيق يريدون أن يركبوا سيارة أخرى، بينما السائق يرفض أن تفتح أي سيارة بابها للركاب قبل أن تكتمل سيارته؛ لأن الدور عليه، وبالتالي يبدأ الشجار بين السائقين.

دخلت على الفور وحشرتُ جسدي في المقعد الأخير؛ فانتهَت المعركة على الفور وانطلقت السيارة، وهنا بدأتُ أفكر فيما سأفعل في المنصورة؛ هل أذهب للبيت بهيئتي هذه، ماذا أقول لأمي ولأخي محمد؟!
تذكرت الخطاب "استعِن بعزيمتك وأصدقائك".
إن كنت سأستعين بأصدقائي فلنبدأ بمحمود، بل إن كنت سأستعين بشخص واحد فقط فهو بالقطع محمود، صديق عمري ورفيقي منذ المدرسة

الابتدائية حتى صرنا نفهم بعضنا البعض دون كلام، يعرف كلانا ماذا سيكون رد فعل الآخر في أي موقف، تعبيراته، ردوده. بالإضافة إلى أنني أحتاج إلى عقل محمود المنظم، أحتاج لشخص أثق فيه ليرتب لي أفكاري التي تداخلت في عقلي الذي لم أعد أثق فيه ولم أعد أثق أنه عقلي حقًا.

باختصار أحتاج إلى "أنا" آخر يفكر لي بدل هذا الـ"أنا" الذي خربته أيدي الثعالب.

أحتاج إلى محمود صديقي الذي لم يخذلني قط، ولم يختلف معي إلا مرة واحدة.

"ياسر، هل تعرف مَيّ؟"

-مَن مَيّ؟

"لا تعبث بي، مَيّ الشناوي من كلية التجارة."

-أجل أعرفها، إنها فتاة رائعة، مثقفة وموهوبة و... مهلًا، لماذا أنت غاضب هكذا يا محمود؟ ولماذا هذا التحقيق؟!

"أكمل كلامك، مثقفة وموهوبة وماذا أيضًا؟ وماذا كنت تفعل في كلية التجارة اليوم؟"

فضحكتُ وقلتُ:

-الأمر هكذا إذن، الآن فقط بدأت أفهم زياراتنا الكثيرة لسامح في كلية التجارة، وحضور المحاضرات في مدرج المهدي، يبدو أن سامح هو الذي أخبرك؟

فقال غاضبًا:

-ياسر، لا مزاح في الأمر، ما علاقتك بها؟"

-حسنًا اهدأ قليلًا، لقد تعرفتُ عليها في نادي الأدب، وزارت بعدها معرض الشعر في كليتنا الشهر الماضي، وقدّمَت لنا الدعوة لحضور معرض الشعر في كلية التجارة، هذا كل شيء.

*وماذا بعد؟

-لا شيء.

*هل أعطيتَها شيئًا؟

-هذا من أفاعيل العقيد سامح من المخابرات العاطفية، كانت طلبت مني نسخة من قصة قصيرة كنت نشرتُها من قبل فأحضرتُها لها، ثم إنها أُعجِبَت كثيرًا بالصورة التي رسمتَها أنت ونشرتَها مع القصة، هل تريد أن أعرفك إليها؟

*ياسر، لقد قلت لك أني لا أمزح.

- محمود، غضبُكَ غير مبرَّر بالمرة، أنت لم تصارحني بشيء، وجررْتَنِي معك مرارًا كالمغفل إلى كلية التجارة، وحضرتُ محاضرات هناك بحجة الجلوس مع سامح، كل هذا لهدف آخر، وواضح أن سامح يعرف بينما أخفيتَ الأمر عني، والآن جئتَ تلومني وأنت تعرف أنه من غير الممكن أن يكون بيني وبينها أي شيء.

*ولماذا؟

-يبدو أن سامح أخفى عنك هذه المعلومة، لأن "عُلا" كانت موجودة معنا.

4

[رغمًا لأنف الجميع]

نزلتُ من الميكروباص أمام استاد المنصورة.
أربع سنوات لم أطأ فيها أرض مدينتي.
ركبتُ التاكسي ذا اللونين الأبيض والأحمر والذي اشتقت لألوانه.
كم اشتقت إليك يا مدينتي، أخذتُ أنهل بعينيّ من صور مدينتي التي افتقدتُها؛ محطة الأوتوبيس، جامع النصر، مبنى المحافظة، وعندما دار التاكسي حول مبنى المحافظة وانطلق في طريق كورنيش النيل الذي نسميه في المنصورة (المشاية)، هنا بدأت تتدفّق الذكريات على صفحة النيل، كل متر هنا وكل شجرة لها ذكرى محفورة في نفسي، هنا كنا نتمشَّى أنا وأبي ومحمد، جولاتي مع محمود وسامح، سينما عدن وسينما النصر، معارض قصر الثقافة، و... علا.
نزلتُ أمام نادي جزيرة الورد ودخلت شارع الثانوية، تغيرَت الأمور كثيرًا في السنوات الأربع، ولكن المعالم الأساسية لا زالت كما هي.
مدرسة المنصورة الثانوية العسكرية؛ حيث قضيتُ مع محمود وسامح ثلاث سنوات مليئة بالمشاغبات، شارع الجلاء، مدرسة المنصورة الحديثة الإعدادية، وبائع الجرائد كما هو بجوار سور المدرسة على تقاطع شارع الجلاء مع شارع الثانوية، توقفتُ أمامه كما تعودتُ منذ سن التاسعة وأخذت أتجول بين الكتب والمجلات المعروضة، لم أستطع أبدًا طوال عمري المرور من أمامه دون التوقف والبحث في المعروضات، رجل المستحيل، ملف المستقبل، ما وراء الطبيعة، جريدة أخبار الرياضة، عدد الجمعة من جريدة

الأهرام. مهما كنتُ في عجلة من أمري لم أستطع قّطّ المرور من أمامه دون الوقوف لدقائق للبحثِ عن الجديد، للأسف لم يعد أي من هذا موجودًا. بعدها لاح لي مسرح أحلامي الذي شهد نجاحاتي وإحباطاتي! كلية الآداب.

****

كان نهر حياتي ينساب بهدوء في كلية الآداب، وبدأتُ أخرج من أزمتي السابقة، وبدأَت علاقتي بأبي تتحسن بعد نجاحي بتفوق، وإن لم يسامحني قّطّ على فشلي في تحقيق حلمه، لم أكن أعرف أن مجرى هذا النهر الهادئ يؤدّي إلى شلال هادر لا يزال هديره في صدري حتى الآن.

كنت وقتها في الفرقة الثانية، وكان وقت معرض الكلية السنوي للشعر، وكنت مشاركًا وقتها بثلاث قصائد. كنت واقفًا في المعرض أتناقش مع أحد زملائي في المعرض حول كسرٍ في الوزن في إحدى قصائده يُصرّ هو أنه غير موجود حين لاحظتُ فتاتين تقفان أمام إحدى قصائدي.

(رغمًا لأنف الجميع) بقلم: ياسر الجندي، الفرقة الثانية، آداب إنجليزي.

ريشة: محمود البلتاجي، الفرقة الثانية، كلية الهندسة.

-ما رأيك يا علا في هذه القصيدة، أنا أرى مستواها أقل من هاتين القصيدتين.

*لماذا؟

-العنوان صادم، والمعنى غير مفهوم، والتعبيرات عدائية تفسد رومانسية القصيدة.

*أنا أراها جميلة، لولا بعض التشبيهات غير المفهومة. وأشعر أنها ثلاث قصائد منفصلة لا يربطها شيء.

فتدخلتُ في الحوار:

-بالفعل هي مكونة من ثلاث مقاطع منفصلة، ولكن يربطها رابط في العنوان وفي البيت الأول.

وعندما نظَرَتا لي في دهشة قلتُ وأنا أشير إلى اسمي في أسفل القصيدة:

-ياسر الجندي، الفرقة الثانية آداب إنجليزي.

-علا محمود، الفرقة الأولى لغة عربية.

وهنا بدأ الشلال هديره في صدري، عندما تكلمتُ والْتقَتْ عيوننا عرفت أن حياتي كلها ستنقلب رأسًا على عقب، عرفتُ أن هذا هو الحدث الذي لا تكون حياتك بعده مثلما كانت قبله أبدًا.

لم أسمع ما قالته الفتاة الأخرى معرّفةً نفسها، ظلَلْتُ أحدّق في عينيها حتى أشاحت هي بوجهها في خجل وقالت:

-قلتَ أن هناك رابط يربط المقاطع الثلاثة سويًا.

أفقت من شرودي وقلت:

-أجل، البيت الأول يقول:

أحبكِ رغمًا لأنف الجميعِ***برغمي ورغمِكِ رغْمِ البشرْ

حيث يبدأ بعدها تفصيل هؤلاء الجميع الذين يحبها رغمًا عنهم، في المقطع الأول مثلًا يوضح أنه يحبها رغمًا عنه هو شخصيًا.

-وكيف يحبها رغمًا عنه؟!

قرأتُ المقطع:

فقد خِلْتُ حبكِ مدًّا وحذرًا *** ولكنّ مدّكِ لم ينحسرْ

ظننتُ اشتياقي وحبي شتاءً *** سيمضي وتعلو فصولٌ أُخَرْ

ولكنْ ثلوجَكِ لم تجْلُ عنّي *** ونهرُ الأمانِي كَذَا ما انصهرْ

تُراقِصُ رِيحُك أشلاءَ قلْبي *** وتُثنِي عليها طبُولَ المَطرْ

فسَلّمتُ أنكِ قد صِرْتِ شَمْسِي *** وأَعلَنَ قلْبِي هواكِ انتصرْ

وقلت: المقصود أنه لم يكن يودّ أن يقع في غرامها، وأنه قاوم ذلك بكل ما أوتي من قوة، ولكن في النهاية رغمًا عنه أحبها.

-وما معنى أن يكون هذا رغمًا عنها؟!

فقرأت المقطع الثاني:

أحبكِ رغمًا لأنف الجميعِ *** برغمي ورغمكِ رغم البشرْ
فلن يُوقِفَ القلبَ رفضٌ لحبّي *** ولَسْنا نُبالي لِقلْبٍ هجَرْ
وما حنَّ قلبُكِ يومًا لقَلْبٍ *** غدَا من جُنُونِ الهَوى يسْتَعرْ
وما كان يعنِيكِ أنّي أُخبّئُ *** بالقلبِ شوقًا يُدانِي سَقَرْ
وما بايعَتْنِي عيُونُكِ يومًا *** وما بادَلَتْني طقُوسَ النَّظَرْ
ورغمًا لأنْفٍ جَمِيلٍ رقِيقٍ *** سأعلُو بِحبّكِ نحو القَمَرْ

هنا يقول أنها لم تشجعه أبدًا على الوقوع في غرامها، بل على العكس هي لم تكن تبالي بأشواقه وغرامه، بل لم تبادله حتى نظراته، ولكنه ظلّ يحبها رغم أنفها الذي لم ينس أن يصف جماله ورقته.

فابتسمت وقالت:

-تعبير غريب فعلاً "رغمًا لأنفٍ جميل رقيق"، أعجبني أيضًا تعبير طقوس النظر، وكأن للنظر طقوسًا ومراسيم.

قلت ناظرًا إلى عينيها:

-هو بالفعل له طقوسه ومراسيمه.

أشاحت بوجهها ناحية القصيدة، ثم قرأَت هي المقطع الثالث:

أحبكِ رغمًا لأنف الجميع *** برغمي ورغمِكِ رغْمَ البشرْ
سويًّا، ولكنّ بيني وبينكِ *** سدًّا خفِيًّا صنِيعَ القَدَرْ

وجيشًا عَظيمًا مِن المدّعّين *** يقولُون إنّ الضَّلَالَ اقْتَـدرْ
على القَلْبِ إذْ شَدَّ رحْلًا لحبٍ *** وحتمًا سيُرِديه أو يَنتَحِـرْ
وحُرّم حبُّـكِ دومًا عليَّ *** ولكِنَّ شوقِي طَغَى وانْفَجرْ
فلن تَحتوِينِي تقَالِيـدُ قَوْمِي *** أحبُّكِ، والقَلْبُ ها قَدْ جَهـرْ
فقد صَار حبُّكِ قلبًا لقَلْبِي *** وما دُمْتُ حيًّا فَلَن ينْدَثرْ

انبهرتُ من طريقة إلقائها، لكَأني لأول مرة أسمع قصيدتي؛ فقلت لها:
-إلقاء رائع.
فقالت:
أنا أحب الشعر جدًا، ولي فيه بعض التجارب، هذا المقطع الأخير هو الأفضل -برأيي- وخاتمة القصيدة رائعة.
قالت الفتاة الأخرى:
-لا زلت أرى أن (لا تصدقيني) و(أتعتقدين في الحب؟) أفضل بكثير.
فردَّت عُلا:
-هما فعلًا قصيدتان رائعتان، ولكن هذه هي الأروع في المعرض كله.
ثم ابتسمت. وكانت القاضية.

****

أول شارع إلى اليمين بعد كلية الآداب، وقفتُ أمام بيت محمود، البيت كما هو، نظرتُ إلى الفتحة التي اعتدتُ قديمًا أن أمد يدي منها لأفتح المزلاج الداخلي؛ فوجدتها قد أُغلِقَت، عامةً لم أكن لأجرُؤ أن أستعملها بعد كل تلك السنين، ضغطتُ زِرًا في الدكتافون فأتاني صوت نسائي لم أتعرفه.
-المهندس محمود موجود؟

*اضغط زر الدور الخامس.

الدور الخامس! إنها الشقة التي شهدَت دروسنا الخصوصية، ثم لعِبَنا وسهراتنا، يبدو أن محمودًا صار يسكن فيها.

ضغطت الزر فجاءني صوت محمود متسائلًا، فقلت له أني محمد جمال من طرف ياسر الجندي.

لم يأتني رد؛ فضغطت الزر مرة أخرى:

-يا باشمهندس، عندي لك رسالة من ياسر الجندي

-حسنًا انتظر.

سمعت صوت تكة ثم انفتح الباب، دخلت وأغلقتُ الباب وصعدت الدرج حتى الدور الخامس، طرقتُ الباب ففتح لي، لم يتغير محمود، فقط تناثرت الشعيرات البيضاء في شعره ولحيته النامية.

-تفضل

قالها دون أن ينظر في وجهي، ثم قادني لأجلس في صالون تناثرت في أرجائه الكتب والأوراق والأكواب الفارغة إلا من بقايا القهوة، ومِطفآة مليئة بأعقاب السجائر، واضح أنه لم يتزوج.

جلستُ؛ فجلس في المقعد المقابل وقال:

-ألم تنته التحقيقات حول ياسر بعد؟! هل من جديد؟

-محمود، أنا ياسر.

ابتسم محمود وقال:

-يا سيدي الفاضل، لا داعي للمناورات، أنا قلت لكم كل ما أعرف عن ياسر، بل وكتبتُ لكم قصَّتَي حياتَيْنا بالتفصيل، وأنا لا أرى أي داع لإخفاء أي شيء عنكم؛ لأنني متأكد أنه لم يرتكب شيئًا مخالفًا، ولأنني بالفعل أريد أن أعرف أين ياسر.

-هلّا أعطيتني الفرصة لأشرح لك بدون مقاطعة؟

*تفضل.

-أعرف أنك لن تصدقني، ولكن هذا ما حدث، لقد أفقتُ فوجدتُني في فندق صغير في القاهرة بهذا الوجه وهذا الجسد، ومعي خطابان غامضان وبطاقة باسم محمد جمال، لا أدري ماذا فعلوا بي بالضبط، ولكن ذاكرتي مشوشة جدًا، ولكني أستعيدها شيئًا فشيئًا. أستطيع أن أخبرك بأشياء كثيرة لا يعرفها غيري، مثل أين كنت تخبئ الصور التي رسمتها لـ"مَيّ"، علبة السجائر الأمريكية الحمراء التي كنت تضعها في جيبك وتملأها بسجائر كليوباترا، وأين كنت تخفيها في بئر السلم قبل أن تصعد للبيت، هذه النافذة التي أغلقها والدك منذ سنوات بعد وشاية الأستاذ فضل، تعليقاتك على فيلمك المفضل "بطل من ورق" عندما شاهدناه سويًا، ولكني أعرف أنك لن تصدقني أبدًا، وستجد دومًا مبررًا لكيفية معرفتي لكل هذا، ولكني فعلًا أحتاج إليك، أحتاج لمن يفكر معي، أحتاج لعقل أثق به وبقدراته ليساعدني في تفسير ما يحدث لي. وما أعرفه أن محمودًا لن يرفض مساعدتي أبدًا، حتى ولو كان غير مقتنع أنني ياسر.

*أنا فعلًا غير مقتنع.

-ولكنك ستساعدني.

ابتسم محمود وقال:

-وكيف أساعدك؟

-لا أدري.

*حسنًا احكِ لي ما حدث من البداية.

****

بالفعل لم تعد حياتي قبل لقائي بـ"علا" كما كانت قبله، أصبحتُ أتحيّن أي فرصة للكلام معها، صرتُ أحضرُ محاضرات اللغة العربية مع الفرقة الأولى بحجة اهتمامي باللغة العربية، أنشأتُ أسرة طلابية خصيصًا من أجل أن أتحدث معها، وعندما قبلّت بالانضمام كان يوم عيد بالنسبة إليّ، لم يكن يبدو عليها أنها لاحظت شيئًا، ولكن صديقتها التي كانت معها في المعرض عرفتُ فيما بعد أن اسمها "أسماء"، كانت كلما قابلتهما تميل عليها وتهمس ضاحكة فيحمر وجه "علا" خجلًا، المهم أن "علا" بدأت تملأُ كل حيز في دنياي، حتى صارت هي دنياي بالكامل.

أذهب إلى الكلية مبكرًا في الأيام التي لديها فيها محاضرات، عندما تنصرف أتعلّل لأصدقائي بأي حجة لأبرر انصرافي المبكر على غير العادة، الحقيقة أنني كنت أشعر بأن الكلية صارَت خاوية من بعد رحيلها.

أقضي الليل محاولًا تذكر شكل ابتسامتها، كلامها، احمرار وجهها من همسات "أسماء"، صوتها، مشيتها.

بالفعل بعد لقائها لم تعد حياتي كما كانت من قبل؛ لأنها صارت هي حياتي.

في العام التالي توطّدَت علاقتنا أكثر، وجمعَتْنا نشاطات طلابية كثيرة، كنت أتعمد البحث عن أي نشاط طلابي وأدعوها إليه، معرض، ندوة، رحلة، مسابقة، اجتماع لنادي الأدب، أسرة طلابية، إعداد مجلة الكلية.

أي قصيدة أو قصة قصيرة جديدة أصبحَتْ هي أول من يقرأها بدلًا من محمود.

أعطيتُها عدة قصائد لتختار واحدة منها لأشارك بها في مجلة الكلية، بعد أن قرأتها كلها، اختارت واحدة وقالت أعتقد أن هذه هي الأنسب، ثم سحبت ورقة أخرى ووضعتها في حقيبتها، وقالت: وأعتقد أن هذه ليست للنشر.

هكذا هي دائمًا ذكية ولماحة، لم تخيّب ظني فيها قطّ، القصيدة التي صادرتها كان كل شطر فيها يبدأ بحرف من اسمها، بحيث لو قرأت أول حرف من كل شطر طوليًا تجد اسمها يتكرر كل ثلاثة أبيات.

لا زِلتُ أذكر نقاشاتنا كلها، تكلمنا في كل شيء: هاملت، أبو العلاء المعري، اللورد بيرون، أحمد عبد المعطي حجازي، انتقال حسام وإبراهيم للزمالك، فيلم تيتانيك، صعيدي في الجامعة الأمريكية، أولاد حارتنا، شطائر مطعم البغل، رفعت إسماعيل، رونالدو أم زيدان، نزار قباني، تي اس اليوت، ألبوم عودوني لعمرو دياب، انتخابات مجلس الشعب، فتح وحماس،طوق الياسمين واجتماع نزار وكاظم وماجدة الرومي.

اهتماماتنا متقاربة، ميولنا متشابهة، نحب فيروز وعمرو دياب ومحمد منير ولا نحب أم كلثوم.

جعلتني أحب نجاة وأصالة ويوسف السباعي وفاروق جويدة، وجعلتها تحب ماجدة الرومي وكاظم الساهر ويحيى حقي وأحمد مطر.

نشجع الأهلي والبرازيل وإيطاليا وبيت سامبراس.

اختلافات بسيطة، هي لا تحب الكشري، وتشارلز ديكنز والجوهري ومحمد فؤاد، وأبدَتْ عدم ارتياحها نحو سامح صديقي.

بينما أنا لا أحب الأسماك وإحسان عبد القدوس ومصطفى قمر، وأبديتُ قلقي من صديقتها أسماء.

شاركنا سويًّا في مظاهرة مساندة لفلسطين بعد استشهاد محمد الدرة في الحرم الجامعي، وبعد إغلاق الأمن للبوابات لم نستطع العودة إلى كلية الآداب، وقضينا اليوم بالكامل سويًا داخل الحرم الجامعي.

قرأتْ كل قصائدي وقصصي وخواطري وأحلامي وأفكاري وطموحاتي، ربما هي الوحيدة في العالم التي استطاعت الدخول إلى رأسي حرفيًا والتجول

في عقلي بمنتهى الحرية. ملكّت عالمي كله، تاريخي، مغامرتي في هندسة الزقازيق، علاقتي بأبي، عرّفتُها على أختي عفاف وعلى محمود وسامح.
وعرَفْتُ عنها كل شيء، نشأتها مع عائلتها في الإمارات، عودتها مع والدتها من أجل الدراسة، خواطرها، قصائدها، أحلامها.

كلما تذكرتُ هذه الفترة من حياتي يرن في أذني لحن أغنية "ياريتني" لهاني شاكر -رغم أني لا أحبه- ربما لأنها كانت تعبّر عن شعوري آنذاك، أو ربما لأنها كانت الأغنية الرسمية في الكافيتيريا في تلك الفترة.
في الأجازة الصيفية كانت تسافر مع والدتها لقضاء الأجازة مع والدها وأخويها الصغيرين، بينما تحولّت الأجازة الصيفية عندي إلى جحيم مقيم، كنت الطالب الوحيد الذي ينتظر بداية الدراسة على أحَرّ من الجمر.
لم يكن هناك وسيلة للتواصل معها، رفضّت أن تعطيني رقم هاتف، ولا يوجد إنترنت في بيتها هناك، بالتالي لن يصلح البريد الإلكتروني، ولكني وعدتها أن أكتب لها رسالة كل أسبوع على بريدها الإلكتروني.
حتى كانت السنة النهائية.
لابد أن الأطباء النفسيين عندهم مرض اسمه "متلازمة السنة النهائية"، أو "عقدة ما قبل التخرج"، أو ربما اختاروا لها اسم بطل إغريقي كعقدة "أوديب" و"بجماليون" و"ناركيسوس"، وليكن اسمها عقدة "ياسيريوس".
المصاب بعقدة "أوديب" يتعلق بأمه، والمصاب بعقدة "بجماليون" يتعلق بتلميذته نسبة إلى بجماليون الذي أحب تمثالًا نحته بنفسه، وناركيسوس طبعًا هو من عشق انعكاس صورته في الماء ومنه جاءت النرجسية؛ أي فرط حب الذات، أما "ياسيريوس" فهو العبد الفقير! وتتلخص أعراض هذه العقدة في اقتراب موعد التخرج ورغبة الطالب في البدء في حياته العملية وبناء مستقبله، وفي نفس الوقت خوفه من انتهاء حياة الجامعة وبداية

مسئوليات هو غير مستعد لها، يكون الطالب قد ملّ من الدراسة والاختبارات ويتمنى الانتهاء منها، بينما لا يلوح له في الأفق بادرة أمل؛ فالشهادة التي سيحصل عليها لن تفيده كثيرًا في سوق العمل، وهنا يبدأ اليأس في حفر أنفاقه تحت العام الجامعي الأخير ملوثًا جو الفرصة الأخيرة للاستمتاع بعدم وجود مسئوليات وهموم.

كانت هذه العقدة قد تملّكت مني بالإضافة إلى ضرورة اتخاذ خطوة للارتباط؛ لأن أحد الأوغاد بالفعل قد تقدم لخطبة علا، فماذا بعد انتهاء الكلية؟ كيف سأتقدم لخطبتها بدون عمل؟ وماذا سيكون رد فعل أبيها؟ وهل سيوافق أبي؟ ولو وافق الجميع كيف سنتزوج؟

كانت هذه الغيوم تكتنف سمائي وتحجِبُ أفق الأمل أمامي، وبين الحين والآخر تُلقِي برعودها وبروقها على دنياي، وهو ما كانت تفهمه عُلَا جيدًا، رغم عدم مصارحتي إياها بما يعتمل في صدري، إلا أنها كما قلت كانت تملك مفاتيحي وتستطيع قراءة روحي ذاتها، هذا بالإضافة إلى أن هذه الأفكار كانت تشغلها مثلي، بل ربما أكثر.

في أحد أيام هذا العام الكئيب كنت أقف مع علا وصديقتها أسماء بعد انتهاء محاضرة لهما، عندما شعرت بطنين في أذنيّ، سألتني عُلا عن شيء فلم أسمع ما قالت، أخذتُ أتلفّتُ ببطء باحثًا وسط الوجوه، وسط دهشة عُلا؛ فقالت:

- ياسر، هل تسمعني؟ ماذا حدث؟!

فقلت مطمئنًا:

-لا شيء، فقط هُيّئَ لي أن أحدهم نادى باسمي.

وهنا جاءني صوت من خلفي "ياسر، أخيرًا وجدتك، لقد افتقدتُك كثيرًا"!

5

[نقطة تحول]

أعرف محمودًا جيدًا كراحةِ يدي. هو لم يصدقني، ولن يصدقني أبدًا مهما حاولت، ولكنه لن يستطيع التخلي عني. ضميره لن يسمح له أبدًا بالتخلي عن شخص في حاجة إليه، خاصة وهو يعرف أنه يستطيع المساعدة، فماذا إذا كان هناك احتمال أن يكون الشخص الذي يحتاج مساعدته هو صديق عمره؟

-حسنًا، قبل أن أحكي لك هناك شيء أخفيتُه عنك هو سبب كل المشاكل التي وقعتُ فيها، أنا أملك واحدة من القدرات الفائقة.

فابتسم محمود ابتسامة متشككة وقال:

-لقد استهوتنا قصة القدرات الفائقة أنا وياسر وتناقشنا فيها كثيرًا، وأخذ يضحك عندما أخبرته أنني كنت أؤمن أني أملك إحدى هذه القدرات وأخذتُ أجرب كل شيء وطبعًا فشلت، فهل تعتقد لو أن ياسر يمتلك قدرة كهذه سيخفي الأمر عني؟

-أولًا طالما وافقت على مساعدتي ستناديني بـ"ياسر"، حتى لو لم تكن مقتنعًا، وذلك لتسهيل الحوار بيننا على الأقل. ثانيًا لم أخبرك بالأمر لأني كنت أخجل منها؛ فهي موهبة سلبية لا أستطيع إثباتها لعموم الناس، ولا أستطيع الاستفادة منها.

*وما تكون هذه الموهبة السلبية الغير مفيدة؟

-الموهبة هي أن عقلي منيع ضد الاختراق، أفكاري محصنة لا يستطيع أحد قراءتها.

نظر لي محمود قليلًا، ثم أخذ يضحك وقال:

-وكيف تريدني أن أصدق ذلك؟

-أعرف أنك لن تصدق، ولذلك لم أحكِ لكَ عنها قبل ذلك.

*وكيف عرفتَ أنت إذَن بها؟

-بالصدفة طبعًا، قابلتُ شخصًا قال لي أنه يقرأ الأفكار، وأنني الوحيد الذي لم يستطع قراءة أفكاره. لم أصدقه وقتها، إلا أنني قابلتُ فتاة في كلية الهندسة قالت لي نفس الكلام.

*وكيف اقتنعتَ أنهما يستطيعان قراءة الأفكار.

فابتسمتُ وقلت:

-أنت تعرفني جيدًا، ليس من السهل إقناعي، قضيتُ قرابة العامين مع الفتاة في نفس الكلية اختبرتُها خلال تلك الفترة عشرات المرات، حتى تأكدت مما تقول. هي قطعًا تستطيع قراءة أفكار الآخرين، أما موضوع موهبتي فلم آخذه على محمل الجد إلا عندما قالت لي أنني الإنسان الوحيد الذي له عقل نظيف وروح خالية من الشرور؛ فتيقنتُ أن هذه الفتاة لم تستطع قراءة سطر واحد من عقلي.

فانفجر محمود ضاحكًا وقال:

-ولماذا لا تكون قرأت أفكارك الدنيئة ولكنها تنكر ذلك لأنها معجبة بك مثلًا؟

-وهل في رأيكَ من الممكن لفتاة أن تقرأ أفكاري ثم تعجب بي؟

ضحك محمود وقال:

-وهل لهذه الموهبة علاقة بالجهات الأمنية التي قلبَت الدنيا بحثًا عنك؟

-أنا متأكد أنك تصورتَ الآن كيف جرَت الأمور، في البداية يطلبون مساعدتك، لك حق الاختيار، تستطيع التوقف متى شئت، هذا عمل إنساني وخدمة للوطن، وعندما تضع رجلك في الفخ، لا تستطيع الفكاك.

*وكيف عرفوا بأمر موهبتك هذه؟ كيف وصلوا إليك؟

-عن طريق الفتاة قارئة الأفكار ذاتها، عن طريق نيرمين.

*****

"نيرمين؟! كيف جئتِ إلى هنا؟"

قلتها بدهشة؛ فردَّت نيرمين بسعادة لم أرها على وجهها من قبل:

-ما هذا الاستقبال؟! قطعت كل هذه المسافة، وأبحث عنك منذ ساعتين وفي النهاية تقابلني هكذا؟

نظرتُ بإحراج نحو علا ثم قلت:

-لم أقصد شيئًا، ولكني لم أتخيل قط أن أراكِ في المنصورة، بل وفي كلية الآداب.

*لقد جئتُ خصيصًا من أجلك.

مالت أسماء على أذن عُلا كالعادة، ثم احمرّ وجه علا ولكن غضبًا هذه المرة.

بدأتُ عملية التعارف:

-علا وأسماء، آداب لغة عربية، نيرمين، زميلتي سابقًا في هندسة الزقازيق.

سلمَت عُلا وأسماء عليها بفتور، بينما تمعَّنَت نيرمين في وجه علا قليلًا، ثم ابتسمت وقالت:

-تشرفنا يا علا، معذرة يا ياسر أريدك في أمر هام جدًا.

استأذنتُ من علا وانصرفتُ مع نيرمين، وكان آخر ما رأيته ابتسامة أسماء وهي تميل على أذن علا هامسة.

لعنة الله عليك يا نيرمين وعلى اليوم الذي رأيتكِ فيه.

قلت لها بتأفف:

-حسنًا، ما هو الأمر الهام الذي تريدين أن تحدثيني فيه؟

ضحكَت طويلًا وبدت سعيدة كما لم أرها من قبل، ثم قالت:

-لم ترني منذ أكثر من ثلاثة أعوام ثم تعاملني بهذا الشكل، ألا تخجل يا هذا؟! أم أنك تخشى أن تغضب عُلا؟!

-نيرمين، لا مزاح في هذا الأمر، ما دخل عُلا في الموضوع؟

جذبتني من يدي تحثني لأمشي:

-حسنًا، دعنا من هذا، لقد جئتُ بالفعل لأقدم لك عرضًا مهمًا، وما جئت من الزقازيق وتكبدت كل هذا إلا لأنك صديق عزيز عليّ، ولأنك صاحب الفضل فيما وصلتُ إليه.

-أنا لا أفهم شيئًا، إلى أين نحن ذاهبان؟ وأي فضل؟ وما هذا الذي وصلتِ إليه بفضلي؟

قالت وهي تدفعني لنخرج من باب الكلية:

-سأحكي لك كل شيء في الطريق؛ لأن الدكتور سامي ينتظرنا، أولًا أنت من أقنعني بالذهاب إلى طبيب أمراض نفسية، وهي النصيحة التي قادتني للدكتور سامي أستاذ الطب النفسي بجامعة الزقازيق، فتغيّرَت حياتي بالكامل، فصرتُ أستطيع أن أتحكم في موهبتي بعد أن كنتُ أهيم بلا هدف فأجد نفسي في عقل أي أحد، فأسمع وأرى مالا يرضيني، ستنهر به حتمًا عندما تقابله، إنه عبقري، إنه...

قاطعتها مازحًا:

-يبدو أنكِ وجدتِ أخيرًا الملاك ذا العقل الناصع الخالي من الشرور الذي كنتِ تبحثين عنه.

لكزتني غاضبة وقالت:

-كُف عن هذا، عقله لا يختلف عن باقي الناس، أنا أتكلم عن علمه، ثم إن الوحيد الذي يملك الصفات التي ذكرتها يمشي بجواري الآن، ولكنه غاضب لأنني استعرته بعض الوقت من أميرته الغيورة الغاضبة.

-قد بدأْتِ إذن في قراءة أفكاري، على ما أذكر قلتِ لي يومًا أنك لا تستطيعين قراءة عقلي.

ضحكت وقالت:

-لم أستطع قراءة عقلك إلا لما غادر رأسك وسكن في رأس آخر.

*ماذا تقصدين؟

-لا تعبث معي، أنتما متحابان، لقد قرأت أفكارها وعرفتُ كل شيء.

لأول مرة أحسد نيرمين وأتمنى لو أنني مكانها، انتظرتُها تكمل فلم تفعل، واستمرت في المشي عابرة شارع الجلاء نحو شارع الثانوية، أكاد أتحرّق شوقًا أن أسألها عما رأت في عقل عُلا، ولكني أجاهد؛ كي لا تلاحظ نيرمين ذلك.

وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت:

-حسنًا، سأخبركَ قبل أن يقتلكَ الفضول، الفتاة تحبكَ حقًا، وهي غاضبة جدًا؛ لأنكَ ذهبتَ معي وتركتَها، وقررَتْ أن الأمر لن يمر على خير.

ثم التفتت لي وقالت بجدية:

-ياسر، هل أحببتها فعلًا؟

أدهشتني جديتها التي اعتدتها منها في الأيام الخوالي، فصمتُّ قليلًا وشردتُ في جموع الطلبة الذين ملأوا شارع الثانوية بعد انتهاء اليوم الدراسي، وتناهت إلى أنفي رائحة دخان الشيشة بنكهة التفاح من المقهى الذي على ناصية الشارع.... لماذا تسأل نيرمين هذا السؤال؟ ولماذا تبدو عليها الجدية هكذا؟ هل أكذب عليها؟ وما الداعي؟ نظرت إليها ثم قلت:

-وما المانع؟

فنظرت لي نظرة طويلة وقالت:

-لماذا؟

-ولماذا لا؟

ابتسمت ابتسامة جانبية، وهزت رأسها وقالت:

-لا زلت لا أفهم أبدًا كيف يفكر الرجال، كنت أظنكَ دائمًا مختلفًا ولكن.... لا بأس، سأخبركَ لاحقًا بما رأيت أيضاً من أفكار أميرتك أيها العاشق المسكين، ولكن دعني أخبرك بما جئتُ من أجله، الدكتور سامي عرض عليّ الانضمام لمجموعة من أصحاب القدرات الفائقة، يتم تدريبنا على التحكم في موهبتنا وتنميتها بالشكل الذي نستطيع به أن نفيد المجتمع ونفيد أنفسنا، بالإضافة أيضًا إلى كيفية الاندماج مع المجتمع دون إثارة الشكوك؛ لأن هذه الجمعية تعمل تحت إطار السرية التامة، ولما حكيتُ له عنك اهتم جدًا بموهبتك، وجاء ليقابلك وليعرض عليك الانضمام للمجموعة.

قطعنا شارع البحر سويًا، ومشينا في الشارع الهابط باتجاه نادي جزيرة الورد؛ فأشارت إلى "كافيه" صغير وقالت:

-إنه ينتظرنا بالداخل.

-مهلًا، هناك سؤال يحيرني، أجِبِنني قبل أن ندخل، كيف عرفتِ مكاني ووصلت إليّ؟!

ابتسمت وقالت:

-يالسذاجتك، ألم تفهم بعد؟ المجموعة تعمل مع جهات أمنية عُليا، هم يعرفون عنك كل شيء بالفعل، نحن لم نأت هنا من تلقاء أنفسنا.

****

لم تحضر علا إلى الكلية ليومين متتاليين، غدًا هو الخميس؛ لو لم تحضر سأضطر للانتظار حتى يوم السبت لكي أراها، لم أستطع تخيُّل الأمر، لو انتظرت ليوم السبت لجُنِنتُ حتمًا.

لابد أن أفسر لها ما حدث، ليس هذا فقط، أنا أحتاج إليها بشدة الآن، أحتاج إلى رأي شخص أثق به وبعقله، محمود مشغول بالاختبارات العملية، أكاد أجن.

لم يعد عندي خيار آخر، ذهبت على مضض وسألت أسماء عنها.

*لا أدري، هي لم تحضر اليوم ولا أمس.

-هذا واضح، أنا أسأل إن كنتِ تعرفين لماذا لم تحضر؟

هزت كتفيها مراوغة وقالت:

-وكيف أعرف؟

ضغطتُ على أسناني في غيظ وقلت:

-ألم تتصلي بها لتطمأنّي عليها.

*اتصلت أمس وقالت والدتها أنها نائمة.

-هي بخير إذن؟

*لا أدري، عمومًا لدينا محاضرة واحدة غدًا وهي غير مهمة، وليس لدينا محاضرات يوم السبت؛ فغالبًا هي ستأتي يوم الأحد، عندها نعرف لماذا لم تأتِ.

هذه الحية الخبيثة تتلاعب بي، كتمتُ غيظي وسألتها:

-أسماء، متى كلمتِ عُلا آخر مرة؟

تصنعت التفكير وقالت في خبث:

آخر مرة، آخر مرة، آه كان ذلك أول أمس عندما قابلناك أمام المدرج ثم انصرفت أنت بعدها مع "الباشمهندسة" ذات العيون الخضراء، يبدو أنها افتقدَتْك كثيرًا لدرجة أنها لم تستطع إخفاء سعادتها الشديدة بلقائك. هل جاءت من الزقازيق من أجل لقائك فعلًا؟

لو كان الأمر بيدي لحطمتُ هذا الرأس الخبيث في هذه اللحظة، ولكني تمالكتُ نفسي وانصرفتُ من أمامها. إذن هذا هو الأمر، كانت نيرمين -خرب الله بيتها- محقة فيما قالته عن غضب علا، وطبعًا أسماء -لعنة الله عليها- ظلَّت توسوس لها بخبيث القول حتى تزكّي نار غيرتها وغضبها.

ما العمل إذن؟ هل أنتظر حتى يوم الأحد؟ لا، لن أستطيع التحمل. إذن ما الحل؟!

أخذتُ أهيمُ على وجهي أفكر فيما أفعل في مشكلة عٌلا وفيما قاله لي الدكتور سامي؛ الرجل عرض عليّ الانضمام للمجموعة وأخذ يعدد لي الفوائد التي ستعود عليّ من ذلك؛ تنمية موهبتي وتعلُّم السيطرة عليها، المشاركة في خدمة الوطن، العمل الإنساني، علاقات واسعة ومستقبل مشرق، وعندما أفهمته أني لا أحتاج للسيطرة على موهبتي؛ لأنها لا تزعجني بتاتًا، بل لا أشعر بها أصلًا، ولا أشعر أنها ستفيد أحدًا.

فقال أنني مخطئ، وأن هذه الموهبة هي هبة من الله ولابد من حكمة لها، وهم سيساعدونني على فهم مدى هذه الموهبة.

قفزَت إلى ذهني وقتها كلمات الشيخ صابر: "أحيانًا تكون المعرفة مسئولية يا بني، مسئولية كبيرة، فلا تطلبها إلا إذا كنتَ أهلًا لها، ولن تكون أهلًا لها إلا إذا استطعتَ تقييمها حتى تحكم إن كنت قادرًا على إتيان حقها أم لا، ما أن تنال المعرفة سيكون عليك تحمل وزر إخفائها حين كان عليكَ كشفها، أو وزر

كشفها حين كان عليك سترها؛ فالسر الذي لا تعرفه ليس عليك حمايته، ولا ذنب عليك في كشفه، أنت في حلٍّ منه أمام الله وأمام ضميرك وأمام الناس، وفي أمان من أعدائك الذين يريدون كشفه، أما إذا عرفته فعليك مواجهة ضميرك وضعفك ورغباتك ونزواتك وأعدائك وأصدقائك"

"الدخول في الفخ سهل كالعادة، ستنمي مواهبك وتستخدمها في أعمال إنسانية، كل شيء في إطار قانوني، تخدم وطنك، تساعد في تحقيق العدالة ورفع الظلم، بالإضافة إلى ذلك لا مانع أن تأخذ المكانة التي تستحقها في هذا المجتمع الظالم، وفي منتصف الطريق تكتشف أنك عالق في مستنقع كلما حاولتَ الخروج منه غاصَت أقدامك أكثر، حينها تتكشّف لك الحقيقة، أنت لا تقوم بأعمال إنسانية، ولا تخدم وطنك، ولا تساعد في تحقيق العدالة، أنت فقط أداة يستخدمونها لتحقيق أهدافهم الشخصية، لتحقيق مصالح معينة قد تتفق أحيانًا مع مبادئك حينها يصارحونك بها، وقد تختلف مع مبادئك فيحاولون إخفاءها عنك، وحين تكتشف ذلك تكون قد تلوثت يداك بالفعل دون أن تدري، وهنا تأتي لحظة القرار، هل تستمر وتحاول إقناع ضميرك أنك لا ذنب لك فيما يفعلون، أم تعلن انسحابك وتتبرأ منهم.

ولكن الخروج من الفخ دائمًا يكون صعبًا إن لم يكن مستحيلًا، حينها لن يقبلوا أن تشهر في وجوههم مرآة تُريهِم قبح وجوههم، لن يتركوك ترحل لتثبت أنك على حق وهم مخطئون، لن يتركوك ترحل لتهدد صرح الباطل الذي بنوه، لن يتركوك ترحل ليستغلك الآخرون ضدهم، لن يتركوك ترحل فتكون قدوة لمن تراوده نفسه للرحيل، لن يتركوك ترحل بعد ما عرفتَ، مليون سبب ألا يسمحوا لك بالخروج، ومليون عقبة يضعونها في طريقك، ومليون نقطة ضعف يستغلونها، طريق لانهائي عليك خوضه، والبديل: أن ترجع إليهم وتمشي في ركابهم"

ظلت كلمات الشيخ صابر تتردد في ذهني كأنه قالها أمس رغم مرور قرابة الخمس سنوات على لقائنا، لم أفهم وقتها ما يقصده الشيخ صابر، ظننتُه فقط يتلاعب بالألفاظ حتى لا يصارحني بحقيقته، جمل فلسفية

ملتفّة المعاني أغرق فيها كي لا أسأل كثيرًا، اليوم فقط بعد أن قابلتُ الدكتور سامي فهمت ما يقول.

لولا كلام الشيخ صابر لكان العرض مذهلًا، أن تشعر أنك إنسان مميز، لديك موهبة نادرة، والأدهى أن هناك من يقدّرها ويعرض عليك أن يعلمك كيف تستغلها وتنميها، كان كلامه كالحلم فعلًا، خاصة مع تشجيع نيرمين وتأكيدها على ما يقول الدكتور سامي، إلا أنني فجأة وهو يتكلم فوجئتُ بصوت الشيخ صابر يتردد في ذهني، هل هذا ما كان يقصده الشيخ صابر، العرض يبدو بريئًا ومذهلًا، لا يوجد ما يخالف القانون أو يخالف ضميري، ولكن هذا ما قاله الشيخ صابر، الأمر يبدأ هكذا وينتهي كما انتهى معه؛ مُطارَد من الجهات الأمنية ومتهم بتهم كثيرة، وتم تشويه سمعته وإيذاء عائلته.

أفَقتُ على صوت نيرمين:

-فيم تفكر يا أحمق؟ هل الأمر يحتاج إلى تفكير؟

قلت للدكتور سامي:

رجاءً... أعطني فرصة أفكر.

فأعطاني بطاقة وقال:

-لكَ هذا، فكر كما يحلو لك، وهذا رقم هاتفي إن أردتَ أن تستفسر عن شيء.

أخذت البطاقة وحيّيته مودعًا:

-تشرفتُ بمعرفتك يا دكتور سامي.

فابتسم قائلًا:

أنتظر اتصالك.

خرجّت معي نيرمين غير مصدقة لما يحدث، وعندما خرجنا من باب الكافيه جذبتني من كتفي بحدة لأواجهها:

-ماذا هناك أيها الأحمق؟ لمَ لم توافق؟

-اهدئي، أنا لم أرفض، أنا فقط فوجِئتُ بالأمر وأحتاج أن أفكر؟

*تفكر في ماذا؟ كل شيء مثالي في العرض، لن تتكلف شيئًا، على العكس ستحصل على كل ما تريد، هل تعرف أنه تم تعييني معيدة بكلية الهندسة؟ هل تعرف أنه تم انتدابي لوزارة الدفاع بزعم المعاونة في مشروع يحتاج إلى متخصص في الهندسة الطبية؟ نحن نعمل مع أكبر رؤوس في البلد.

-وهذا ما أخشاه.

*لأنك أحمق.

-هل لاحظتِ أنك قمتِ بسبي عشر مرات على الأقل في خلال الساعتين الماضيتين؟

فابتسمَت وقالت: حسنًا سأعوضك عن هذا، لقد وعدتُك أن أخبرك بشيء، أليس كذلك؟

أفقت من شرودي على صوت القطار، كنت في أثناء تفكيري كعادتي أمشي حتى وصلت إلى الكوبري العلوي الذي يمر من فوق القطار الذي يكمل طريقه ليعبر النيل نحو مدينة طلخا ومنها إلى الدلتا، وقفت أتأمل صفحة النيل وانعكاس صورة كوبري القطار عليها، وصّفّ النوادي في الضفة المقابلة.

ماذا عساي أن أفعل؟! هل أقبّل وأنحّي جانبًا الشكوك التي لولا لقائي مع الشيخ صابر ما كنت تخيلتها، أم أرفض وأضيع فرصة لا أظنها تتكرر.

مشيتُ في اتجاه نزول الكوبري نحو حي المختلط وأنا أشعر بتدافع الأفكار في رأسي.

كان حي المختلط في تلك الفترة هو مركز جوَلَاتي الليلية، حيث أخرج من بيتي في تقسيم السمنودي عبر شارع جيهان السادات حتى أصل إلى المشاية، ثم أمشي مع النيل مجاورًا حديقة شجرة الدر، ثم نادي جزيرة الورد، فيلا غيث، شارع المدير، كوبري طلخا، شارع بورسعيد، سينما عدن، سينما النصر، شارع بنك مصر، ثم قصر الثقافة وميدان الهابي لاند؛ فأمشي صاعدًا كوبري القطار وأقف فوقه أشاهد كل هذا من فوق، ثم أمشي هابطًا في اتجاه حي المختلط الذي حفظت شوارعه وبيوته كظاهر يدي، طبعًا السبب أن عُلا تسكن هناك، لم تكن جولاتي بهدف رؤيتها بالطبع،

فهي لا تعرف بأمر جولاتي ولا تعرف حتى أني أعرف بيتها، أنا آتي هنا فقط لأمشي في شارع هي مشَت فيه، لتقع عيني على بيوت وقع نظرها عليها، لأَطَأَ أرضًا قد وطأَتْها من قبل، وربما استنشقتُ هواءً استنشقَتْه هي من قبل، أجيء إلى هنا لكي أشعر أني قريب منها، وهو شعور حقيقي فعلًا لا مجاز فيه، عندما يتمكن مني شوقي إليها، وتُعييني محاولات استرجاع صوتها وكلماتها وابتسامتها، وتتمكن تلك القبضة الباردة من قلبي تعتصره اعتصارًا وتشيع برودة في صدري فيضيق بها نفسي، أجيء إلى هنا، وعندما أدخل الشارع الذي تسكن فيه تنفك القبضة الباردة رويدًا رويدًا مع إحساسي بأنها قريبة، أقطع الشارع مرتين ذهابًا وإيابًا، ثم أقف في الكابينة التي أمام بيتها كأنني أطلب رقمًا ما، بينما الهدف فقط هو البقاء لأطول مدة ممكنة في المكان الأكثر قربًا دون إثارة للشكوك، ثم أعود من نفس الطريق لأصل إلى البيت منهكًا حتى أتفادى جيوش الأرق التي تجلس في انتظاري لتصارعني حتى الصباح.

هذه المرة الأمر يختلف، لن أستطيع العودة للمنزل بهذا الشكل، فدون الحاجة لجيوش الأرق، فإن عقلي به جيوشه الخاصة من الأفكار التي ستظل تتصارع حتى الموت.

دون تفكير وقفتُ أمام كابينة الهاتف كالمعتاد، أخرجتُ الكارت من حافظتي كالمعتاد (كانت تلك فترة انتشار كبائن الهاتف ذات البطاقات مسبقة الدفع)، ولأول مرة خرجتُ عن روتيني المعتاد وطلبتُ الرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب، رغم أني لم أستخدمه قط! لم أفكر فيما أفعله، ولم أفكر ماذا سأقول؛ لذلك فوجئت بصوت يرد عليّ:

-ألو. ألو

يبدو أنها والدة عُلا، أخذت نفسًا عميقًا واستجمعتُ شجاعتي، ثم قلتُ بصوت متحشرج:

-السلام عليكم.

*وعليكم السلام.

- عُلا موجودة؟

صمتَت برهة ثم قالت:

-هل من الممكن أن أعرف من المتكلم؟

ابتلعت ريقي وقلت:

-أنا ياسر زميلها في الكلية.

*وماذا تريد منها يا ياسر؟

-كنت أريد أن أصوّر محاضرة من دفترها، ولكنها لم تحضر إلى الكلية منذ يومين، هل هي بخير؟

*فقط المحاضرة؟

-لا.

صمتَت في انتظار أن أكمل، ثم قالت:

-ماذا أيضًا؟

-أريد أن أطمئنّ عليها، هل هي بخير؟

*وكيف حصلتَ على رقم الهاتف؟

-من الدليل، هل.... هل أستطيع أن أكلمها؟

ثوانٍ من الصمت، وصلَت سرعة ضربات قلبي فيها لأرقام فلكية، هل ارتكبتُ أكبر حماقة في حياتي؟ هل تسببتُ في كارثة لـ"علا" باتصالي؟

وهنا قطع الصمت صوتها:

-ألو.

-علا، هل أنتِ بخير؟

جاء صوتها متقطعًا:

-أجل، أنا بخير.

-أريد أن أتحدث معكِ في أمر هام.

صمتَت قليلًا، ثم قالت:

-إن شاء الله سوف أكون موجودة في المحاضرة باكرًا.

-سأنتظرك، أنا آسف إن كنتُ اتصلتُ بدون إِذْن، ولكني قلقتُ جدًا عندما لم تحضري.

اضطررتُ أن أعيد الجملة؛ لأنها لم تسمع صوتي بسبب صوت أذان المغرب من المسجد المجاور.

قالت:

-لا بأس، شكرًا على سؤالك يا ياسر، أنا بخير.

-مع السلامة.

وضعتُ السماعة وظللتُ في مكاني لدقائق غير مصدقٍ لما فَعلّت. تُرى ما رد فعل والدتها؟ ما رد فعل عُلا نفسها؟
على الأقل عرفتُ أنها قادمة غدًا.

****

ظللتُ أقطع شوارع المنصورة طولًا وعرضًا والأفكار تتصارع في رأسي، هل هذه فرصة عمري التي لن تتكرر؟ هل هذا فخ لو وَضعْتُ قدمي فيه لن أستطيع الفكاك منه؟ ترى ما نتيجة الحماقة التي ارتكبتُها مع علا؟ كيف سأفسر لـ "علا" موضوع نيرمين؟
تعمدتُ ألا أعود للبيت إلا في وقت متأخر حتى أتفادى الكلام عن سبب عدم عودتي للمنزل من الصباح، وجدتُ الجميع قد ناموا فيما عدا عفاف.
أمي تركت لي طعام الغداء على المائدة.
فتحَت عفاف باب غرفتها وأشارت لي منادية لي في صمت حتى لا أوقظ أحدًا، دخلتُ غرفتها وأغلقتُ الباب، نظرَت لي في تأنيب وقالت:
-ماذا حدث يا ياسر؟ إن أبي كان غاضباً بشدة، أين كنت؟
-متى نام أبي؟
*منذ حوالي ساعة، ولكني أعتقد أنه لا زال مستيقظًا. ماذا حدث لك؟
فقلت بابتسامة باهتة:
-لا تشغلي بالك أنا بخير، لم أنحرف بعد ولم أدمن المخدرات.
ضحكت وقالت:
-ولكنك تدخن السجائر وأبي منذ سمع الخبر وهو غاضب منك.
-ولكني أقلعت عن التدخين كما وعدتُكِ.
*منذ متى أيها المخادع؟ رائحة السجائر لازالت تفوح منك.

نظرت في ساعتي وقلت:
-منذ ثلاث عشرة دقيقة بالضبط، بالقطع لست أنا مصدر الرائحة، ربما يدخّن بيّومِي سرًّا، أين هو؟
ضحكت وقالت:
-عثرَت عليه أمي في الصباح وهي تنظف الغرفة، فتحّت الحقيبة التي تحت الفراش فوجدَتّه، وأقسمَت أنه لن يبِيت في المنزل، وأجبرتني على إعادته إلى متحف الكلية، عمومًا لم يكن تبقَّى في فترة استعارته غير يوم واحد.
بيومي طبعًا هو اسم أطلقته على جمجمة استعارَتْها عفاف من متحف كلية الطب لتذاكر عليها سرًا دون علم أمي.
*ياسر، ألن تخبرني ما بكَ؟
-لا تشغلي بالك، أنا بخير. لا تحاولي الهرب من المذاكرة، هذه المادة مهمة جدًا اهتمي بها، دعيني أرى... هـ يسـ تـ ولوجي، فعلًا تبدو مهمة.
*يا سلام، وهل تعرف ما هو الهستولوجي؟
-يا صغيرتي، إن لم تكوني لاحظتِ أن مجال دراستي هو اللغة الإنجليزية، الهستولوجي هو علم دراسة التهييس.
تركتُها تضحك وذهبتُ إلى غرفتي.
أغلقتُ الباب وارتميتُ على الفراش بملابسي، وأخذت أسترجع يومي الحافل. وتتدافَع العبارات في رأسي. "أحيانًا تكون المعرفة مسئولية يا بني، مسئولية كبيرة؛ فلا تطلبها إلا إذا كنت أهلًا لها"، "فيم تفكر يا أحمق؟ هل الأمر يحتاج إلى تفكير؟"، "وحين تكتشفُ ذلك تكون يداكَ قد تلوثَّتا بالفعل"، "ثم انصرفتَ أنت بعدها مع الباشمهندسة ذات العيون الخضراء"
"ياسر، هل أحببتها حقًا؟"، "فقط المحاضرة؟"، "سأنتظر اتصالك"
"المجموعة تعمل مع جهات أمنية عُليا، إنهم يعرفون عنك كل شيء"

"إن شاء الله سوف أكون موجودة في المحاضرة باكر"
وإن غدًا لناظره....للأسف غير قريب بالمرة.
كانت ليلة ليلاء لم يغمض لي فيها جفن.
وما أن أشرقَت الشمس حتى خرجتُ من البيت وأخذت أدور في الشوارع شاردًا.
وصلَت عنّلا إلى الكلية في الثامنة صباحًا، كنت أنتظرها أمام بوابة الكلية، لم تبتسم على غير عادتها.

6
[علا]

"أهلًا ياسر"

قالتها بجفاء لم أعهده فيها.

-عُلا، أنا آسف جدًا على ما حدث أمس، ولكني كنتُ قلقًا جدًا عليكِ، وكنتُ أحتاج بشدة للحديث معك.

فقالت وهي لا زالت على جفائها:

-لا بأس.

-أرجو ألا تكون مكالمتي قد سبّبَت لكِ مشاكل مع والدتك.

*لك أن تتخيّل ما حدث من استجوابات واتهامات.

-لا أدري ماذا أقول لكِ، ولكني أؤكد لكِ أني لم أخطّط لذلك، ولكن ذلك حدث رغـ....

قاطعتني قائلة:

-ياسر، من أين كنت تكلمني أمس؟

-من كابينة هاتف في الشارع.

*وأين تقع هذه الكابينة؟

نظرتُ إليها في دهشة وقلت:

وما الفرق بين كابينة وأخرى؟

لم ترد وظلّت تنظر إليّ في ترقُّب، فقلت لها:

-حسنًا، كيف عرفتِ؟

*من صوت الأذان، نفس صوت مؤذن المسجد المجاور لنا سمعته في الهاتف عندما كلمتني.

هـذه هي عُـلا التي أعرفهـا وأعشـقُها، تحـتفظُ بقـوة ملاحظتهـا وذكائهـا في كـل الظروف.

أكملت:

-كيف عرفت العنوان ورقم الهاتف؟

-أعرفهم من مدة طويلة، لم يكن هذا صعبًا.

*ولماذا اتصلتَ من هناك؟

-لا أدري، لقـد اعتـدتُ أن أتجـول في الشـارع الـذي تسـكنين فيـه بـين الحـين والآخر، وكنت أستعمل الكابينة كثيرًا، أو أتظاهر باستعمالها، ولكن أمس لم أدْرِ كيف حدث هذا؟

*ولماذا تتجول في شارعنا؟

شردتُ ببصري قليلًا، ثم نظرتُ في عينيها وقلت:

لأشعر أنكِ قريبة؟

احمرّ وجهها قليلًا وأطرقت برأسها.

-هناك موضوع هام جدًا أريد أن أتكلم معكِ فيه، ولكن قبل أن أتكلم أريد أن أعرف نتائج الحماقة التي ارتكبتها أمس، ماذا فعلَت والدتك؟

*كما قلتُ لكَ استجوابات وتحقيقات، أمي تثِق بي وتعرف أني لا أكذب أبدًا، المشكلة أنها تريد أن تقابلك.

صُعِقتُ من كلامها؛ فقلت مبهوتًا:

-ماذا؟! تقابلني أنا؟!

فردَّت عُلا بغضب:

-تريد فقط أن تتعرف إليك، لا تخَف... لن تقيّدك وتجعلك تبصم على عقد زواج.

-ليتها تفعل.

فأشرقَت شمس ابتسامتها لأول مرة اليوم، وقالت:
-حسنًا، دعنا من هذا وأخبرني ما هو الأمر الهام جدًا الذي تريد أن تكلمني فيه.

****

استيقظتُ لأجدني نائمًا على أريكة الصالون في شقة محمود، يبدو أنني نمتُ وأنا أتكلم معه أمس؛ فتركني وأطفأ النور. ناديتُ عليه فلم يرد، رفعتُ الغطاء وجلست، آلمني كل جزء في جسدي كأن شاحنة رصف الطرق (نسميها وابور الزلط) مرَّت على جسدي ذهابًا وإيابًا عدة مرات بغرض رصف عظامي، أضَأْتُ الغرفة، ساعة الحائط تشير إلى العاشرة صباحًا، الغرفة غير مرتبة كعهدِي بمحمود.
على الطاولة الصغيرة قلم وأوراق كان يستخدمها محمود أمس وأنا أتكلم معه لترتيب أفكاره كعادته: قدرات فائقة- ياسر؟؟؟؟- زقازيق- USA- تدريب- كهف الثعالب- الصندوق الأسود- فندق- ساندرا بولوك- ذاكرة مشوشة- لا يدخن.
هذا ما أسميه (قيء فكري)، لا أجد ترابط بين الكلمات، هذه إشارات يفهمها كاتبها فقط، كل كلمة هي مفتاح لفكرة معينة. مفتاح؟!!!
ضربَت الكلمة في ذهني ذكريات كثيرة متداخلة قطعها دخول محمود من باب الشقة.
*هل استيقَظْت؟ صباح الخير؟ لقد أحضرتُ لك مفاجأة.
وضع أمامي كيسًا مليئًا بالشطائر عليه رسمة مألوفة، ثم قال:
-أعتقد أنك قد اشتقتَ كثيرًا لشطائر البغل.
توغلَت الرائحة النفاذة إلى أنفي؛ فأعادت إليّ ذكريات محببة عن شطائر ذلك المطعم الشهير ذي الاسم الغريب، جلس محمود وناولني شطيرة فقلت له:
-عساك لم تنسَ أن تحضِر المخلّل.

فضحك محمود وأخرج كيسًا صغيرًا من المخلل من داخل كيس الشطائر.
فقلت:
-هذا فقط؟! لازلت كما أنت، كم مرة قلتُ لك لابد أن تعطي بقشيشًا للعامل الخاص بالمخلّل كي يزيدك منه؟
*هذا كان أيام العز يا أفندي، الآن المخلّل يدفع له حساب خاص غير الشطائر، عمومًا أنا لن أشاركَك فيه؛ لأني صرت أُعانِي من الأملاح وعندي حصوة في الكِلَى.
-صرتَ عجوزًا يا صديقي، أو كما نقول (صاحب مرض)، وانتشر الشعر الأبيض في رأسك. محمود لماذا لم تتزوج؟
توقف محمود فجأة عن المضغ وصمت قليلًا، وقال:
-سأعدّ الشاي أولًا ثم نكمل كلامنا.
أخذتُ شطيرة فلافل وذهبتُ خلفه إلى المطبخ، وراقبته وهو يعدّ الشاي، أفسد سؤالي مزاجه كأنني وضعتُ قطرة حبر في كوب من الماء.
-لم تُجِب سؤالي، لمَ لَم تتزوج؟
*حسنًا، الحقيقة أني بالفعل نويتُ الزواج اليوم، ولكن المشكلة أني صحوتُ متأخرًا بعض الشيء؛ فكان عليّ تأجيل المشروع للغد.
-تذكّر إذَن أن تصحو غدًا مبكرًا.
تقبلتُ هروبه وعُدنا إلى الصالون بعدما أعدّ الشاي.
جلس محمود وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة، ثم قال:
-ألم تلاحظ شيئًا؟
-أجل أيها العبقري، أنت لاحظتَ أني لم أدخن سيجارة واحدة طوال الليل، لو كنتُ ياسر حقًا لكنتُ استهلكت علبتين على الأقل، ولكني قد أقلعتُ عن التدخين نهائيًا.

*ياسر يقلع التدخين؟! هذا ما لا يتخيله عقل؛ فأنت من علّمَني التدخين.
-كفَى خُبثًا يا محمود، اختبار سخيف، سامح هو الذي كان له الفضل في بدايتنا مع التدخين، وكان ذلك في سينما أوبرا، وكنا نشاهد فيلمًا سخيفًا بطولة الشحات مبروك من اختيار سامح، هل هذا يكفي؟
*يكفي مؤقتًا، ولكن كيف أقلعت عنها؟
تحسستُ صدري تلقائيًا وقفزَت لذهني أصوات وروائح وآلام، ثم قلت:
-أقلعت عنها بأصعب الطرق الممكنة، عندما تكون السجائر وسيلة تعذيب وتختلط رائحة دخانها برائحة احتراق جلدك وشَعْرِك؛ فمجرد رؤيتها يصيبك بالغثيان.
أطفأ محمود سيجارته ووضع العلبة في جيبه، ثم قال:
-أنا آسف.
صمت قليلًا ثم قال:
-دعنا نتحدث في الموضوع المهم، ما حكيتَه لي بالأمس يبدو مشوّشًا بشكل كبير وغير مترابط.
-هذا لأني بالفعل أشعر بمساحات بيضاء كثيرة في ذاكرتي، وأتذكر أحداثًا كثيرة ولا أدري متى حدثت، ولكني مع الوقت أستطيعُ تذكر الكثير وأستعيد الترتيب المنطقي للأحداث.
*الأمور بهذا الشكل تبدو معقدة جدًا، ولكن دعنا نحاول استخدام المعلومات التي لدينا لنحاول أن نفهم ما حدث، هناك فيلمٌ من بطولة ساندرا بولوك أعتقد أن اسمه "The Net"، يحكي عن فتاة عرفَت معلومات هامة على ما أذكر، فمسحوا تاريخها كله، لا أحد يعرفها كأنها لم تكن موجودة، يبدو الأمر هنا بشكل مختلف، ما زال تاريخ ياسر الجندي موجودًا، ولكنه ليس أنت، فإذا كنت أنت ياسر فمن هذا الذي كان يعيش معنا طوال السنين السابقة، هناك

أيضاً Face Off رائعة جون ترافولتا ونيكولاس كيدج؛ حيث تبادل كل منهما وجه الآخر، ولكن الأمر هنا يختلف أيضًا فالاختلاف ليس في الوجه فقط؛ فهذا ليس جسد ياسر.

قاطعتُه في حدة: محمود، لا زالَت السينما الأمريكية تملأ رأسك، أرجوك لا تدخلنا في أفلامك الخيالية هذه.

*انظر من يتكلم، لقد جئتَ تحكي لي قصة أغرب من الخيال وتعترض على الأفلام التي تبدو واقعية أكثر من قصتك، عمومًا لا بأس، دعنا نفكّر في خطة العمل، لابد أن نبحث عن خيوط تدلّنا، الخطاب طلبَ منكَ الاستعانة بأصدقائك، ربما كانت رسالة ما، لقد قابلتَ طارق؛ فمن يكون التالي؟

-فكرتُ قليلًا وقلتُ ربما نيرمين، لقد تركَت لي رسالة مع طارق أن أتصل بها للأهمية.

*أعتقد أنني رأيت فعلًا فتاة بهذا الوصف حاضرة أثناء التحقيق معي، هناك خيط آخر "محمد جمال عطية"، لابد أن نعرف من يكون، أعتقد أن سامح ممكن أن يفيدنا في ذلك.

-سامح؟! وكيف هذا؟!

*إن أخاه تامر قد صار ضابطًا ويعمل في بورسعيد، أعتقد أنه من الممكن أن يفيدنا.

-وماذا عن سامح نفسه؟

*سامح أصبح من كبار رجال الأعمال، بدأ بتجارة قطع غيار التوكتوك، والآن صار من كبار مستوردي التوكتوك.

-وأين هو؟

*في مسقط رأس أبيه؛ حيث قرر أن يؤسس تجارته، في المنزلة.

-فلتَحْكِ لي ما حدث في غيابي ثم نبدأ إذَنْ بسامح، نبدأ من المنزلة.

*****

حكيتُ لـ " علا" كل شيء عن علاقتي بنيرمين، فقالت:

-ياسر، هذا أسخف مزاحٍ سمعته.

-أقسم لكِ أنني لا أمزح، الفتاة فعلًا تقرأ الأفكار، وسبب صداقتنا أنني الوحيد الذي لم تستطع قراءة أفكاره.

*ألم تجد مبررًا أقرب للتصديق من هذا.

-سأثبت لكِ، هي قالت أنكِ تعتقدين أنها تشبه زميلة كانت معكِ في المدرسة الثانوية في الإمارات اسمها نادية، وهي سورية الجنسية.

بدت الدهشة على وجه عُلا، وقالت:

-وكيف عرفَت ذلك؟

-ألم أقل لكِ إنها تقرأ الأفكار؟ أيضًا تقول أنك يومها كتبتِ قصيدة جديدة ونويتِ أن تعطيها لي على أن أقرأها في البيت؛ لأنكِ ستخجلين إن قرأتها أمامك.

فقالت علا بغضب:

-كيف تسمح هذه الفتاة المتطفّلة لنفسها أن تتجسّس على حياة الناس بهذا الشكل، لابد أن نبلغ عن هذه الفتاة.

-هل تريدين أن أكمل لكِ ما قالته؟

*لا، هذا يكفي.

-دعيني الآن أخبركِ بالأمر الهام الذي أريدُ رأيكِ فيه.

وأخبرتها بعرض الدكتور سامي، ثم بمخاوفي نتيجة تحذير الشيخ صابر، ثم قلت لها:

-ما رأيكِ؟

*لست أدري، ولكنه يبدو عرضًا غير مريح بالمرة، وكلام ذلك الشيخ يزيد الشك فيه.

تناقشنا طويلًا، ولما وجدتُ رأيها من رأيي - وأنا أثق في رجاحة عقلها- تشجعتُ وقررتُ رفض العرض مغالبًا إحساسي بالخوف من الندم على إضاعة الفرصة.

هنا سمعت صوت الجرس، فنظرتُ بدهشة إلى حقيبة يد عُلا؛ فابتسمَت وقالت:

-هذا الهاتف المحمول.

وكان حدثًا عظيمًا وقتها أن يحمل شخص ما هاتفًا محمولًا؛ فعلقت مازحًا:

-يبدو أنه سيكون من الصعب عليكِ التعامل معنا نحن عامة الشعب الذين يستخدمون الهاتف الأرضي والكبائن؟

*سأحاول جاهدة أن أتواضع وأتبادل معكم جملة أو اثنتين، عمومًا هو خاص بأمي، ولكنها أعطتني إياه لتتواصل معي في حال تأخرتُ في الكلية.

-إذَن حماقتي كان لها بعض الفوائد.

*ليس بالضبط، هو وسيلة مراقبة لا أكثر، وها هي تذكّرني أنه من المفترض أن تكون المحاضرة انتهت، ولا بد أن أكون في المنزل في خلال عشرين دقيقة طبقًا لحساباتها.

-أعتذر مرة أخرى عن حماقتي.

*لا بأس، ولكن لا تكررها.

-ألن تعطيني إذَن القصيدة التي كتبتها ذلك اليوم.

*للأسف مزقتُها عندما غضبت منك.

-نيرمين قالت أنك....

فقالت بغضب:

-حسنًا هذا يكفي. سأعطيكَ إياها شريطة ألا تذكر هذه الفتاة أمامي مرة أخرى.

****

اتصلتُ بالدكتور سامي واعتذرتُ له عن قبول العرض، تقبّلَ الرجل الأمر ببساطة، وقال لي أن أتصل به في أي وقت إن غيرتُ رأيي وقررتُ الانضمام لهم.
بعدها شعرت بارتياح شديد كأن جبلًا كان قابعًا على صدري ثم صار قاعًا صفصفًا.

يوم السبت التالي كان لقائي مع والدة علا، وهي سيدة مثقّفة ومتفهمة ذات شخصية رائعة، ولكن خوفها على ابنتها يطغَى على كل شيء، ورغم أني تعرضتُ لاحقًا لكافة أنواع الاستجوابات من طبقات مختلفة وجنسيات متنوعة وبكافة الطرق الشرعية وغير الشرعية، من أطباء وعلماء وضباط مخابرات ومجرمين، إلا أنها أجرَتْ معي أدق وأحكم وأصعب استجواب.

متى عرفتَ علا؟ وكيف؟ وأين تقابلها؟ هل تقابلتما خارج الكلية؟ ماذا يعمل والدك ووالدتك؟ هل لديك إخوة؟ لماذا تركت كلية الهندسة؟ ماذا تنوي أن تفعل بعد التخرج؟ مَن أصدقاؤك؟ ماذا تقرأ؟ هل تدخن؟ ولمّا انتهى الاستجواب بعد ساعتين، وبعد أن عرفَت مقاس حذاء زوج خالتي واسم أم الأستاذ أمين جارنا بدأَت مرحلة الاتفاقات والوعود.

"ستعدُني الآن ألا تخرج مع عَلا وحدكما، لا لقاءات خارج الجامعة، لا مكالمات هاتفية، ستحافِظ عليها كما تحافظ على أختك عفاف"

"أنا أثق في ابنتي ثقة عمياء، وهي لا تكذب عليّ أبدًا، ولكني أريد منكَ تلك الوعود الآن" عمومًا لقد توقعتُ أسوأ من ذلك، هي وعدتني إن التزمتُ بوعودي ستساندني إذا تقدمتُ لطلب يد عُلا من أبيها.

انتهى العام الدراسي، وتخرجتُ، تحدثتُ مع أمي أني أريد أن أخطب زميلة لي في الكلية وطلبت منها أن تكلم أبي، حذرتني أمي أن أبي لن يوافق الآن؛ لأنني لم

أجد وظيفة بعد، ثم إن أخي الأكبر لم يخطب بعد، ولكنني ألححتُ عليها حتى كلمته.

كان توقع أمي في محله، غضب أبي بشدة وكان لازال غاضبًا مني بسبب موضوع التدخين، وبدأَت المناورات والمفاوضات والوساطات.

تم استدعائي للخدمة العسكرية.

كان عندي أمل أن يتم تأجيل دفعتي بالكامل مثلما حدث مع أخي محمد، ولكن ذلك لم يحدث.

سمعتُ الكثير من الحكايات من أصدقائي عما حدث لهم أثناء الخدمة العسكرية، ظننتها مبالغات على سبيل المزاح، ولكن بعد أن تكررَت الحكايات من مصادر مختلفة بدا أن الأمر حقيقيً.

إذن فأنا أمام عامٍ من المعاناة، ربما يزيد إلى ثلاثة أعوام إن تم ترشيحي كضابط احتياط.

بالنسبة لشخص يحاول البدء في بناء مستقبله ويبحث عن وظيفة حتى يستطيع التقدم لطلب زواج فإن الخدمة العسكرية تعتبر عائقًا زمنيًا وماديًا ونفسيًا هائلًا.

الكثير من الإجراءات؛ بطاقة التجنيد، شهادة الليسانس، قيد عائلي، صور شخصية بخلفية بيضاء (لابد أن تنبه على المصور أن يظهر كلتا أذنيك بوضوح في الصورة)، استمارة ١٠ جند، فيش جنائي ثم فيش ثلاثي.

وقفتُ في الصَّف في ساحة قسم الشرطة في انتظار دَورِي، زحام شديد، مجموعة كبيرة من الشباب معظمهم من حملة المؤهلات المتوسطة، جاءوا في مجموعات وأخذوا يتدافعون ويمزحون ويسبّون بعضهم البعض سبابًا بذيئًا على سبيل المزاح، ويتندّرُون بما سيحدث لهم في الجيش.

وصلتُ للشباك الصغير الذي يطلّ على غرفة صغيرة اسودّت جدرانها الداخلية والخارجية وحواف النافذة كأنها تعرّضَت لقصف نووي.

أخذ "الصُّول" يدي ومسح أصابعي على قطعة خشبية ملساء عليها حبر أسود، ثم أخذ بصمات أصابعي العشرة والكفين مع أوامر صارمة أن أضغط بقوة على الورقة.

بعد أن انتهى من أخذ بصماتي نظرتُ إلى يديّ اللتين زينهما اللون الأسود، ووجدت من كان قبلي يبحث في يأس عن جزء في الحائط لم يسودّ بعد حتى يمسح فيه يديه، فنادى عليّ الصول:

-استنى يا حبيبي، تعالَ خُد كولونيا.

ثم أخرج بخّاخة صغيرة رشّ منها على يديّ؛ فانتشرَت رائحة الكيروسين النفاذة، ثم أعطاني قطعة قماش ملطخة باللون الأسود، مسحتُ فيها يديّ، طبعًا لم يختفِ الحبر الأسود من يدي، بل صار أكثر تجانسًا وغطى يديّ بأكملها.

ضحك الصُّول من دهشتي مما يحدث، وقال:

-هيا يا أستاذ، ليس هذا وقت النظافة، هيّا أفسح المكان لمن بعدك، وبعد أسبوع تعالَ استلم الفيش لتسلمه لمكتب التجنيد.

بعد انتهاء الإجراءات ذهبتُ إلى منطقة التجنيد بالزقازيق، لابد أن نكون هناك قبل السابعة صباحًا، ورغم ذهابي مبكرًا إلا أنني وقفتُ في صف طويل جدًا؛ قياس الوزن والطول قبل الدخول إلى الكشف الطبي.

المجندين في منطقة التجنيد ينظمون الصفوف بغلظة، وأحيانًا باستخدام العصى. كل شخص يحاول أن يجد شيئًا في جسده يجعله غير لائق طبيًا؛ ضعف نظر، قدم مسطحة، تقوس في الساقين أو التصاق، زيادة وزن

وترهل، بل إني وجدتُ أحدهم يضع في كفيه بعض الملح ويطبق عليه بقوة ليثبت أنه مصاب بزيادة التعرق.

بحثتُ في جسدي فلم أجد شيئًا.

عشرات الشباب يقفون بملابسهم الداخلية والأطباء يمرون عليهم بسرعة، وعليك أن تمسك الطبيب المختص بمرضك وتلح عليه أن يفحَصَك جيدًا، وإلا سيمر من أمامك مسرعًا وتضِيعُ فرصتك، حتى أن طبيب العيون كان يكشف علينا بكشاف صغير من على بعد متر بينما نحن نمشي في صف أمامه، لا أعتقد أن هناك مرضًا يتم تشخيصه من هذه المسافة، لابد أنه كان يتأكد فقط أن لكل منا عينين مستبعدًا كائنات السيكلوب ذات العين الواحدة أو الفضائيين ذوي الثلاث عيون؛ فلا يصح أن يتم تجنيدهم.

فجأة سمعتُ أحدهم ينادي باسمي؛ فرفعت يدي وقلت:

-نعم.

فظهر صُولٌ ضخم يحمل مجموعة أوراق وقال:

-نعم؟!، نعم هذه تستخدمها في المدرسة، هنا عندما أناديك ترد فورًا وتقول أفندم، نحن هنا في الجيش، فهمتَ يا عسكري؟!

صدمتني الجملة، هل أصبحت بالفعل جنديًا؟!

*لماذا لا ترد يا عسكري؟ هل أنت أصم؟

-لا يا سيدي.

*هل أنت ياسر علي محمد الجندي؟

-نعم.

*ألا تفهم يا عسكري، قلت لك "نعم" هذه تقولها لمُدرّسَة الرسم في المدرسة، هنا تقول "تمام يا فندم"، هل فهمتَ يا عسكري يا مهزّأ؟

لم أردّ عليه وشعرت بالدم يكاد ينفجر من أذنيّ.

نظر نحوي بغضب، ثم قال:

-لا تريد أن ترد، تعتقد أنك هنا في النادي، حسنًا نحن هنا لنربي من لم يستطع أبواه تربيته، هاتِ أوراقك.

انتزع الأوراق من يدي وانصرف.

يا لها من بداية، يبدو أن هذه السنة لن تمر على خير، أنا لن أتحمل الإهانة بهذا الشكل، لولا أن المفاجأة أخذَتني لكنتُ رددتُ عليه، حينها لست أدري كيف كانت ستسير الأمور.

بعد الكشف الطبي ظلَلْنا في منطقة التجنيد حتى الثالثة عصرًا في انتظار نتيجة الكشف واستلام أوراقنا.

جلسنا على الأرض في صفوف تنفيذًا لأمر الجنود، ثم ظهر صف ضابط معه مجموعة من الأوراق وأخذ ينادي الأسماء، كل من يسمع اسمه يقف ويتسلم أوراقه ليقف في صف آخر، بعد أن انتهى لم يتبق سوايَ وبضعة شباب. ذهب صف الضابط لصفوف الشباب الذين استلموا أوراقهم وأخذ يشرح لهم موعد تسليم أنفسهم ومكان مركز التدريب الخاص بكل مجموعة.

ظللتُ جالسًا في ذهول حتى نادى صف الضابط:

-كل من لم يسمع اسمه عليه أن يأتي غدًا لإنهاء أوراق الإعفاء من التجنيد.

لم أصدق ما حدث حتى ذهبتُ وأخذتُ ألحّ عليه أن يتأكد من وجود اسمي في كشف الإعفاء.

هنا قفزَت إلى ذهني كلمات نيرمين "يا لسذاجتك، ألم تفهم بعد؟! المجموعة تعمل مع جهات أمنية عليا، إنهم يعرفون عنكَ كل شيء بالفعل، نحن لم نأت من تلقاء أنفسنا" هل يكون هذا سبب إعفائي؟! لست أدري.

لم أعرف ماذا أقول لأصدقائي عن سبب إعفائي؟ فلن يصدّق أحد أنني لا أعرف.

لقد رأيتُ بالفعل شبابًا يعانون من سمنة مفرطة، أو ضعف في النظر، أو ضمور في العصب البصري لإحدى العينين، أو قطع بالرباط الصليبي وتم قبولهم، وعندما اشتكوا قيل لهم عليكم تسليم أنفسكم لمركز التدريب الخاص بكم ثم بعدها عليكم انتظار موعد لجنة التظلمات.

قررتُ أن أقول لكل من يسألني أن سبب إعفائي أنه كسرٌ قديمٌ في ذراعي لم يلتئم جيدًا.

بعد إعفائي من التجنيد تمكّن أبي بعلاقاته أن يجد لي وظيفة مؤقتة كمدرس لغة إنجليزية في مشيخة الأزهر، وبدأتُ أقدّم أوراقي تمهيدًا لتوزيعي على أحد المعاهد الأزهرية. حينها كثفتُ جهودي مع أبي، وبوساطة من أمي ومن محمد وافق أبي على مضَضٍ، بشرط أن يسأل عن أهلها وعائلتها أولًا، فقلتُ له أن أباها رجل متعلم ويعمل بالإمارات منذ مدة طويلة، وعلى حسب علمي سيعود في آخر هذا الشهر ليستقر في مصر، عائلتها من مدينة المنزلة، ولكنها تقيم مع أمها وأخويها في حي المختلط، فقرّر أبي أن يسأل والد سامح صديقي وهو زميله في العمل في إدارة الجامعة؛ لأنه من مدينة المنزلة.

وبعد أسبوعين أعطاني أبي موافقته بعد التقرير الذي قدمه له والد سامح.

يومها اتصلتُ بـ عُلا فردّت عليّ والدتها.

*ألم تعِدْني يا يا ياسر ألا تتصل بـ"علا"؟

-أجل، ولكني أتصل اليوم لأتحدث إلى حضرتك.

*خير؟

-أريد أن أتقدم لطلب يد عُلا.

استغرق التحقيق يومها ثلاثة بطاقات شحن، كان الاستجواب حينها عن موافقة أهلي، هل وجدتَ وظيفة؟ التجنيد، ظروفي المالية، هل أقلعتَ عن التدخين؟ بعد انتهاء الاستجواب قالت إن والد عُلا سيعود بعد يومين، ولكنه سيكون مشغولًا بتأسيس مشروع تجاري في مسقط رأسه؛ حيث قرّر أن يستقروا جميعًا هناك، ووعدَتني أن تدبّر لي موعدًا معه بعد أن يستقر، وكرَّرَت وعدها بأن تساندني وتؤيد موقفي عند والد علا. وأعطَتْني رقم هاتفها المحمول، وطلبَت منّي أن أتصل بها بعد أسبوع.

أثناء كلامي معها لاحظت أن إحدى النوافذ قد فتحت قليلًا وظلت مواربة.

بعد انتهاء كلامي معها سألتها إن كان من الممكن أن أكلّم عُلا.

صمتَت قليلًا، سمعتُ صوتها ينادي على عُلا، ثم أتاني صوتها:

*ألو.

-كيف حالكِ يا علا؟

*الحمد لله.

-كيف حال الدراسة؟ عندكِ ثلاث مواد صعبة جدًا في هذا العام، لابد أن تذاكريها جيدًا، خاصة الأولى صعبة جدًا.

*المادة الثانية منهجها فعلًا كبير جدًا، لقد تعبتُ من مذاكرتها.

-ماذا عن المادة الخامسة؟

فضحكت وقالت:

-لا، ليس عندنا إلا أربع مواد فقط، المادة الخامسة هذه لطلبة الدراسات العليا بعد التخرج فقط.

فقلت ضاحكًا:

-إن شاء الله نسجّل في الدراسات العليا سويًا بعد تخرجكِ مباشرةً.

طبعًا كنت أعرف أن والدتها تسمع ما نقول؛ فكان لابد لنا من استخدام شفرة كنا اخترعناها للتخلص من تطفل أسماء، واعذرُوني لن أترجمها لكم.
أنهيتُ المكالمة وأنا أشعر بسعادة لم أشعر بها من قبل، ظهر ظلّها خلف النافذة فأشرتُ مودعًا لها بطرف خفي وانصرفت.
كنتُ أعرف أنها ستتوقع أنني أتّصل من الكابينة التي أمام منزلها.

*****

صارت المنصورة مزدحمة بشكل لا يُصدَّق، مدينتي الهادئة الوادعة أصبحت تكتظ بالسيارات والأتوبيسات والدراجات النارية والتكاتك والناس، تطلَّبَ الأمر منّا قرابة الساعة حتى خرجْنا من المنصورة عن طريق كوبري "جديلة"، سألتُ محمود لماذا لم يتخذ الطريق الدائري الجديد أفضل من الخوض في الزحام؟
فضحك وقال:
-أولًا هو لم يعد جديدًا، ثانيًا هذا لم يكن ليوفر وقتًا؛ لأنه أصبح مزدحمًا بسبب سيارات الأجرة التي تنقل طلبة الجامعة من المدن الأخرى، بالإضافة إلى إنشاء جامعة خاصة على الطريق الدائري.
جلستُ شاردًا بجوار محمود في سيارته، والتي آلت إليه بعد وفاة والده، أخذتُ أتذكر ما حكاه لي محمود عما حدث في غيابي، تحقيقات واستجوابات، تم استدعاء الجميع للتحقيق مرات عديدة سواء بالمنصورة أو بالقاهرة، محمود وسامح وأخي محمد وأمي وعفاف، حتى الأستاذ أمين جارنا، وقال محمود أنه قابل عُلا في إحدى المرات أثناء التحقيق، بعض التحقيقات كانت تستغرق أكثر من يوم واحد مثلما حدثَ مع محمود وأخي محمد، بل إن محمود في إحدى المرات تم حجزه أسبوعًا كاملًا تعرّض فيه لتحقيقات متواصلة وفحوصات بأجهزة غريبة

وخبراء أجانب، وبدأت تتناثَر الإشاعات والأقاويل عن سبب اختفائي، خطيبُ عفاف قرّر الانفصال عنها، أمي مرضَت حُزنًا عليّ، وصارت تقريبًا لا تغادر البيت.

كنتُ أودّ أن أزور بيتنا أولًا، ولكن محمود نصحَني أن أقابل محمد أولًا خارج المنزل؛ حتى لا أعرض والدتي لصدمة لا نعرف تأثيرها عليها -هناك رائحة شك في كلامه أنه لم يصدِّق بعد أنني ياسر- ثم إن محمدًا صار عصبيًا جدًا بخصوص أي شيء يتعلق بأخيه الغائب، حتى إنه قطع علاقته بمحمود وطلب منه التوقف عن زيارة والدتي؛ لأنه يذكّرها بياسر فتظل تبكي طوال الليل.

قررنا أن أحاولَ لقاء محمد في عمله غدًا؛ حيث يعمل في إدارة الجامعة، وأن نذهب اليوم للقاء سامح في المنزلة.

كانت السيارة المسكينة تقطع الطريق المزدحمة التي صارَت أكثر ازدحامًا، ذات الثلاثة والستين مطبًّا سابقًا، والذي يبدو أن عددها قد تضاعف عدة مرات بالإضافة إلى تنوع أشكالها وأحجامها، والذي أضفَتْ عليه فترة الانفلات الأمني أنواعًا وموديلات جديدة ومبتكرة راحت تصرخ وتئِنّ منها السيارة المسكينة.

نظرتُ إلى الطريق التي كنتُ أحفظها عن ظهر قلب، وإلى صفحة الماء على يمين الطريق وأنا أفكّر فيما جنَتْه أفعالي على أهلي وأحبائي؛ فقطع عليّ محمود أفكاري الحزينة بذكْرَى أكثر حزنًا.

*هل تذكر يا ياسر يوم أن ذهبنا بهذه السيارة على هذه الطريق أول مرة؟

*****

بعد أسبوع اتصلتُ بوالدة عُلا؛ فقالت إنها تحدثَت مع والد عُلا في أمري. بدا صوتها غير مُطَمئِن، وانتظرتُ أن تقول شيئًا آخر، ولما تأخرت قلت بتردد:

-هل رفض؟

*لا لا، لم يرفض، هو فقط يتحفّظ على الخِطبَة أثناء الدراسة.

-لم يتبقَّ لـ "علا" إلا فصل دراسي واحد فقط، ولو هو موافق نستطيع أن نجعل الخطبة بعد اختباراتها، لكن المهم أن يوافق مبدئِيًا.

*هو يريد أن يقابلك وحدك أولًا.

-حسنًا لا مانع، متى أقابله؟

*الأسبوع القادم في المنزلة في معرض الأدوات الكهربائية الذي افتتَحَه هناك.

فقلت في دهشة:

-المنزلة؟!

*أجل، هو يصرّ أن نقضي أجازة نصف العام هناك، وطلب أن تقابله هناك، ألا تريد أن تقطع ثمانين كيلومترًا من أجل عُلا؟

-أنا على استعداد أن أفعلَ أي شيء من أجل عُلا.

فأعطتني عنوان المعرض وقالت:

-لا تتأخر عليه؛ والد علا دقيق جدًا في مواعيده.

-لن أتأخر إن شاء الله.

*ياسر، عليك أن تتحمّله؛ هو رجل عملي صريح وعصبي قليلًا، من أجل عُلا.

-من أجل عُلا أتحمل أي شيء.

أبي لم يعجبه الأمر، ولكني أقنعتُه أن الرجل يريد أن يتعرف عليّ أولًا ويسأل عنا كما سألنا عنهم، فوافق على مضض، وقال ما معناه أنني دائمًا لا أستمع إلى نصائحه وأنفّذ فقط ما يمليه عليّ رأسي المتحجر، وأنه كان من الأفضل لي أن أقبل بالعروس التي عرضَها عليّ وهي ابنة عميد كلية الحاسبات والمعلومات التي يعمل هو أمينًا لها، وأن الرجل لن يمانع والفتاة جميلة ومهذبة وتدرس طبعًا في كلية الحاسبات والمعلومات.

تركتُه يعدد مزاياها ومزايا والدها، ولَم أُرِد مقاطعته حتى لا يغضَب، ولما انتهى قلت:

-ولماذا لا تخطبها لمحمد؟

فقال أنه يجهز لمحمد عروسًا أخرى أبوها عضو سابق في مجلس الشعب، ومحمد قد وافق وسيذهبون بعد أسبوع للتقدم لطلب يدها.

بعدها بيومين شاءت المصادفة أن يتم توزيعي على معهد المطرية الأزهري، والمطرية هي آخر وأبعد مراكز محافظة الدقهلية وتقع بعد المنزلة، حاول أبي تغيير التوزيع وأجرى الكثير من الاتصالات والوساطات، ولكن عدد المتقدمين كان كبيرًا جدًا، وأنا حديث التخرج ولا أملك أية خبرة في التدريس، ولم يكن من الممكن تعييني إلا في مكان بعيد؛ حيث يوجد احتياج شديد لمدرسين جدد، ونال أبي وعدًا بنقلي لمكان قريب، ولكن بعد أن يتم تثبيتي بعقد دائم بعد عامٍ أو اثنين، قابلتُ يومها زميلًا؛ مدرس لغة فرنسية من المطرية، وتم تعيينه في ميت غمر في الطرف الآخر من المحافظة، وكان غاضبًا بشدة لتعنّتهم معه، ولكننا عرفنا يومها استراتيجية التوزيع؛ فهم ينظرون إلى المكان الذي ترغب فيه ثم يوزعونك في أبعد مكان عنه، هذه هي استراتيجية العمل في مصر.

****

في الموعد المحدد اتفقتُ مع محمود وسامح على الرحلة، استطاع محمود استئذان والده للذهاب بسيارته، بينما كان وجود سامح ضروريًا كدليل للوصول للمنزلة أولًا ثم للعنوان ثانيًا؛ حيث أنه يحفظ شوارع المنزلة كتشكِيل فريق الأهلي -على حد تعبيره-، رغم أنه يذهب إليها في الأجازات فقط.

انطلقَت بنا السيارة على الطريق متقافزة فوق المطبات في مناورات مستمرة مع الميكروباصات وسيارات النقل التي تسير بجنون، بالإضافة إلى التكاتك، والدراجات النارية، والجرارات الزراعية، والعربات التي تجرها الحمير، حتى أن محمود قال أنه يقود كأنه في لعبة من ألعاب الفيديو، أثار سامح جوًا مرحًا

كعادته، حاولتُ أن أنسَجِم معه محاولًا أن أتناسى أنني مقدِمٌ على أهم اختبار في حياتي.

بعد حوالي ساعتين من المغامرات والمناورات وصلنا إلى المنزلة، دلّنا سامح إلى العنوان، ونزلتُ على أول الطريق واتفقتُ معهما أن ينتظراني في كافيتيريا قريبة.

(معرض محمود عبد الكريم للأدوات الكهربائية)

وقفتُ أمام المعرض أستجمع شجاعتي وأكمل قراءة سورة يس التي بدأت فيها من أول الشارع، يبدو الطلاء جديدًا ولازال العمال يرتبون الأجهزة داخل المعرض، دخلتُ المعرض وسألتُ أحد العمال عن الأستاذ محمود، فنادى العامل على (الحاج محمود) الذي جاءني؛ فعرّفتُه بنفسي فقادني لمكتبه.

طلب من العامل أن يحضر لي زجاجة مياه غازية، ثم سألني:

-كيف كان الطريق؟ وكيف أتيت؟

فقلت:

-بسيارة أحد أصدقائي.

*وأين هو؟

-عند صديق لنا عائلته من المنزلة.

فأخذ يسألني عن سامح واسمه بالكامل وعائلته.

أخذتُ نفسًا عميقًا، ثم قلت له:

-أستاذ محمود، يشرفني أن أتقدم لطلب يد عُلا ابنة حضرتك.

فضحك وقال:

-يا بني هذا مكان عمل، وما تقوله مكانه البيوت وليس هنا.

فقلتُ بدهشة:

-ولكنّ حضرتك من طلب أن أقابلك هنا.

*أجل، لكي أتعرف عليك أولًا، لكن الكلام عن زواج ونسب مازال مبكرًا.
سألني عن سني وسنة تخرجي، ثم قال:
-ولماذا أنت متعجل في الزواج هكذا، لا زلتَ صغيرًا.
-لستُ متعجلًا في الزواج، فقط أريد الارتباط بخطوبة.
*الأمر واحد، حسنًا عرّفني بنفسك.
-أنا ياسر الجندي، حاصل على ليسانس آداب لغة إنجليزية، وكان ترتيبي الثاني على الدفعة، والأسبوع القادم إن شاء الله أتسلّم عملي كمدرس في المعهد الأزهري بالمطرية.
*ما شاء الله، وهل تعرف كم سيكون مرتبك؟
-بالطبع مبلغ قليل، ولكن فلنعتبرها بداية فقط حتى يتم تثبيتي أو أجد وظيفة أفضل، ثم إنني أعمل مع مركز ترجمة في المنصورة، وأراسل عدة مجلات وصحف، وتم نشر عدة مقالات لي وبعض القصص القصيرة.
*وهل يدُرّ عليك عملُكَ الأدبي هذا ما يكفي.
-حاليًا لا أكسب منه شيئًا، ولكن لو أثبتُّ نفسي وصار لي مقالًا ثابتًا، أو نشرتُ مجموعة قصصية أو ديوان شعر لاختلف الأمر.
*وهل عندك شقة؟
-عندي شقة في منزل والدي في المنصورة، تحتاج فقط للتشطيب.
*هل أفهم من ذلك أنك تعتمد على والدك كليًا؟
هل تعرف ما يحدث في الاختبارات الشفهية أو مقابلات التوظيف حين يكون الغرض منها فقط هو رسوبك والضرب على نقاط ضعفك؟ كان هذا هو الأمر معه؛ سلسلة من الأسئلة المستفزة أقابلها بمنتهى ضبط النفس والهدوء، فلا أتلقى إلا المزيد من الصفعات.

*لقد طلبت أن أقابلك وحدك، فهل أفهم من اصطحابك لصديقك معك أنك غير قادر على مواجهة مسئولياتك وحدك؟

*إذا كنت مهتمًا بالكتابة لماذا لم تدخل إذن كلية الإعلام؟

*هل دخولك كلية الهندسة على غير رغبتك دليل على ضعف شخصيتك؟

*هل أعتبر ما حدث لك في كلية الهندسة استسلامًا وعدم قدرة على المواجهة؟

أخذ يكيل لي الأسئلة السخيفة واحدًا تلو الآخر، ثم قال:

-أنصحك يا بني ألا تتسرع في اتخاذ خطوة للارتباط الآن؛ فأنت لا زلتَ صغيرًا ولازال أمامك طريق طويل لبناء مستقبلك، تحتاج لكي تقطعه أن تتخفف من أي مسئوليات قد تثقل حركتك.

-ولكني أعتقد أنني وعُلا قادران معًا على شق هذا الطريق سويًا، ولا أرى في ذلك معوّقا لي، بل على العكس؛ وجودنا معًا هو حافز أكثر منه معوق.

*يا بني، لقد تعبتُ طوال حياتي من أجل أن أوفّر لعُلا وأخويها حياةً كريمة، وأوفّر عليهم قطع هذا الطريق المتعب، وعُلا بالذات دونًا عن أخويها الولدين لها مكانة خاصة في قلبي فلن أسمح أبدًا أن يمسّها شيء أو أن تتعب في حياتها، فلماذا كان تعبي طوال السنين إذَن، ولا تقُل لي أنك بظروفكَ هذه قادر على أن تجعل عُلا تعيش في نفس المستوى الذي تعيش فيه الآن.

-وماذا عن رأي عُلا؟

*أنا رجل متعلم ومتفاهم، لم أُرغم ابنتي قط على فعل شيء لا تريده، فما بالك بالزواج؟ ولكني أيضًا من حقي ألا أوافق أبدًا أن تتزوّج ابنتي الوحيدة رجلًا لا أرى أنه سيستطيع توفير الأمان ومستوى المعيشة الذي أتمناه لها، لقد تقدم لطلبها أكثر من شخص معظمهم ظروفهم الاجتماعية والمادية ممتازة، ولكن ردي كان أنها لا زالَت تدرس ولا كلام في ارتباط إلا بعد الدراسة.

-هل معنى هذا أنك ترفض طلبي؟

*لقد نسيتَ مرة أخرى يا بني، ليس هذا مكان للحديث عن طلب الزواج، نحن هنا لنتعرّف، ولقد تشرفتُ جدًا بمعرفتك يا أستاذ ياسر.

-ولكن أعتقد أ.....

*تشرفتُ بلقائِكَ يا أستاذ ياسر.

****

ما أن خرجتُ من الشارع أقبَلَ عليّ محمود وسامح مبتسمَيْن، وعندما نظرا في وجهي تجمّدَت الابتسامة على وجهيهما، وقال سامح:

-ماذا حدث؟

حكيتُ لهما باختصار ما حدث، ثم قلتُ لسامح أني أريد أن أُجرِي اتصالًا ضروريًا؛ فدلّني إلى مكتبة بها هاتف وعليها اللافتة المخادعة الشهيرة (اتكلم براحتك).

طلبتُ الرقم، ولما جاءني صوت والدة عُلا يسأل من المتصل قلت:

-أنا ياسر.

فقالت بلهفة:

-ما الأخبار يا ياسر؟ هل قابلت محمودًا؟

-نعم، وللأسف رفض.

فبدَت دهشة شديدة في صوتها:

-رفض؟! لم يكن كلامه معي يَشِي بهذا.

-ليس هذا فحسب، بل هو تقريبًا طردني من المعرض.

*طردك؟! كيف هذا؟

هنا سمعتُ صوتَ عُلا بجوارها:

-ألم أقل لكِ إنه يخدعكِ؟ أنا أعرف أبي جيدًا، هو لا يغيّر رأيه أبدًا.

ثم صوت والدتها يحاول تهدئتها، ولكن علا تكمل:

-لماذا إذَن وافق أن يقابله إذا كان لا زال غير موافق؟ ولماذا يعامله هكذا؟ لقد قلتُ لكِ لا تجعلي ياسر يقابله، ولكنكِ قلتِ أنكِ أقنعتِ أبي.

فقلت لوالدتها:

-هل من الممكن أن أكلم عُلا؟

*عفوًا يا ياسر، هي منهارة بعض الشيء و..

-فقَط دعيني أكلمها.

*حسنًا هي تسمعك.

-عُلا.

لم يُجِبني إلا نشيجها.

-هل تذكرين أول لقاء لنا؟ هل تذكرين القصيدة التي تناقشنا فيها (رغمًا لأنف الجميع)، يبدو أن أقدارنا كُتبَت مع حروف تلك القصيدة، كلما كان ما نطلبه كبيرًا وعظيمًا كلما كانت الطريق إليه شاقة، وكلما كانت العوائق أكبر، وما أطلبُه كبير جدًا، وأنا جاهز لكافة المصاعب والعوائق، وسأظل أحبك رغمًا لأنف الجميع، برغمي ورغمك بل والبشر.

وحُرِّم حبُّكِ دومًا عليّ *** ولكِنّ شوقِي طَغَى وانفَجَرْ

فلن تحتَوِيني تقَالِيدُ قوْمي

أحبُّكِ.. أحبُّكِ

أحبُّكِ والقلبُ ها قد جَهَرْ

فقد صَار حبُّكِ قلبًا لقلبي *** وما دُمتُ حيًّا فلن ينْدَثِرْ

*ياسر، أنا آسفة على ما حدث، وأقسم لك أنني لم أكن أعـ...

-لا تعتذري عن شيء، أريدكِ فقط أن تعرفي أني لن أسمح لشيء أو لأحد أن يفرّق بيننا، وأنني مستعد لتحمّل أي شيء في سبيل ألا أراكِ حزينة مثلما أنت الآن. واحد؟

*واحد إلى مالا نهاية.

قاطعَت والدتُها شفرتَنا قائلة:

-أنا آسفة يا ياسر على ما حدث، وأؤكد لكَ أنّني حاولتُ كثيرًا إقناعه.

-لا بأس.

*حسنًا أريد منك وعدًا جديدًا؛ ألا تحاول لقاء علا ولا تكلّمها في الهاتف، هذا من أجلها حتى لا تزيد المشاكل مع والدها، وأنت ترى كم هو عنيد.

-أعدكِ.

*أريدكَ أن تعدني أيضًا أن تلتفِتَ لمستقبلك وتنسى عُلا، وأنا واثقة أن الله سيعوّض كل منكما بمن هو أفضل.

سمعت شهقة عُلا مع كلامها، فقلت:

-أعدكِ ألا أفعل أبدًا.

ثم أغلقتُ الخط.

7
"أبـي"

لم أدرِ كيف استطعتُ أن أتماسك وأبدو قويًا أثناء حديثي في الهاتف مع عُلا ووالدتها، ولكن يبدو أنني استهلكتُ في سبيل ذلك كل ما تبقّى لديّ من طاقة، فبعدما أنهيت المكالمة شعرتُ أن ساقيّ غير قادرتين على حَملِي، اقترحَ سامح أن أجلس وأرتاح قليلًا، ولكني قلتُ له أني بخير وصمّمْتُ على العودة الآن، ظل محمود صامتًا، بينما سألني سامح عما حدث فحكيت له باقتضاب، عندما وصلنا للسيارة طلبتُ من سامح أن يجلس بجوار محمود؛ لأني أريد أن أجلس في الخلف مكانه.

لعدة دقائق حاول سامح أن يهوّن عليّ الأمر بكلماتٍ على سبيل "لا تقلق لم ينتهِ الأمر بعد، سيغيّر رأيه لاحقًا" ثم "ربما يريد الله لكَ مَنْ هي أفضل منها" وما إلى ذلك. ثم توقف عندما لم يجد مني أي رد، بينما لم ينبَسّ محمود ببنت شفة طوال الطريق.

أما بالنسبة إليّ فلأول مرة في حياتي تركتُ العنان لنفسي وبكيتُ كما لم أبكِ من قبل، ولم آبه لوجود محمود وسامح، كنتُ أبكي على ضياع أملي في الارتباط بـ"عُلا"، وعلى كرامتي المجروحة، وعلى بكاء عُلا وصوتِها الحزين، وعلى عدم ثقتي في تحقيق ما وعدتها به؛ أنني لن أسمح لأحدٍ أن يقف بيننا.

فها هو أبوها يقف بيننا بينما أقف أنا عاجزًا عن مواجهته، يتحجج بأنه يخاف على عُلا منّي، هل يظن أنه يخاف عليها أكثر مني، إن كانت تحمل نصف كروموسوماته فهي تحمل كل أحلامي وأفكاري وطموحاتي وماضيّ ومستقبلي.

لم أفِق من الهوّة التي كنتُ فيها إلا عندما توقّف محمود أمام منزلنا، كان سامح قد نزل أمام منزله دون أن ألحظ ذلك، لم يتكلم محمود ولم ينظر إليّ، نزلتُ من السيارة فتحرّك هو بها في صمت.

ماذا سأقول لهؤلاء الذين ينتظرون مني خبرًا سعيدًا؟!

دخلتُ البيت واندفعتُ إلى حجرتي متفاديًا نظراتهم، جاءتني أمي متسائلة، فاغتصبتُ ابتسامة باهتة وقلت لها:

-لا شيء، هو فقط يريد ألا يتكلم في شيء إلا بعد أن تُنهي دراستها.

طبعًا لم تصدق أمي شيئًا، ولكنها ربَتَت على كتفي وقالت:

-عنده حق في ذلك يا بني، هو لا يريد أن يشغل ابنته عن دراستها، خاصة أنها كما قلت لي متفوقة في كليتها. فلِمَ تبدو حزينًا هكذا؟

-أنا فقط مرهق لطول الطريق، سأنام الآن وفي الصباح إن شاء الله أكون بخير.

غادرت أمي الغرفة غير مقتنعة، وبعدها بدقائق دخل محمد.

لم أكن مستعدًا للكلام؛ فبادرته قائلًا:

-أرجوك يا محمد، سأحكي لك كل شيء غدًا، ولكن لا تسألني عن أي شيء اليوم.

لم يلتفت إليّ وأخذ وسادة وبطانية واتجه للباب، فقلت له:

-أنا آسف يا محمد، لم أقصد هذا، تستطيع البقاء، ولكني غير قادر على الكلام.

ففتح الباب وقال:

-لا بأس، ولكني سأنام الليلة في الصالون.

فقلت بدهشة:

-لماذا؟ أنا لم أقصد ذلك.

"لأنني من سينام هنا اليوم"

قالها أبي وأغلق الباب خلف محمد؛ فهببتُ واقفًا في دهشة، فقال أبي:

-استرح، ما بِك؟

ثم جلس بجواري على الفراش وقال:

-هيا احكِ لي.

فأطرقتُ برأسي ولم أرد.

*هيا تكلم.

-لا شيء يا أبي، هو فقط لم يوافق.

*ليس هذا يا مغفل، احكِ لي عنها.

نظرتُ له في دهشة، فقال:

-هل هي جميلة؟ هل هي ذكية؟ لابد أنها بارعة الجمال شديدة الذكاء حتى تستطيع السيطرة على ذلك الجحش الحرون في رأسك.

ابتسمت لتشبيهه، فقال:

-هل تعرف يا ياسر؟ منذ صغركَ وأنا كنت أعرف أنك سيكون لك شأن كبير، لم تكن طفلًا عاديًا، عيناك القلقتان اللتان لا تستقران على شيء توحيان بأنك ستكون إنسانًا مميزًا، لم يكن فيك شيء عاديّ، ظهرَت أسنانك مبكرًا، مشيت مبكرًا، تكلمتَ مبكرًا، أسئلتُكَ غير عادية، ميولُكَ غير عادية، أفكارك غير عادية، كنتَ دائمًا تحاول أن تسبقَ الدنيا؛ ولذلك حزنت جدًا عندما لم تدخل كلية الطب، كنت واثقًا أنك بمقدورك أن تتفوق على جميع زملائك لو أنّك فقط الْتزَمْتَ قليلًا، ولكنك تملك نفْسًا قلقة عنيدة لا ترضى بأي طريق يُرسَمُ لها، كانت فرصتُك كبيرة أيضًا أن تنجح في كلية الهندسة لو أردتَ أنتَ ذلك، ولكنكَ أصرَرتَ أن تغيّر الطريق الذي اخترتْه لكَ، وواجهتَ غضَبي وأضعتَ من عمرِك سنتَين، لكني لم أيأس منك، أعرف أنه كان من الخطأ أن أقرّر وأختار لكَ الطريق، ولكن عاطفة الأبوة هي من تدفعُني لأنصحك وأرسم لك الطريق الذي أراه مناسبًا متناسيًا أن لك روحًا متمردة عنيدة.. لن تقبل

إلا أن تمشي في الطريق الذي تريده، ومتناسيًا أيضًا أن أفكاري وتصوراتي قد عفا عليها الزمن ولم تعد مناسبة لزمنكم، ولكني لم أيأس منك أبدًا، أعرف أنك ستكون مميزًا في أي مجال تخوضه، فلو صِرْتَ نجارًا لصِرتَ أبرع نجار في العالم، ولو صرت بائع ذرة لأخْرجْتَ للعالم ألذ ذرة مشوي في التاريخ، حتى لو صِرتَ شحاذًا لابتكرت أحدث الطرق وجعلت الناس يفرغون جيوبهم في حجر جلبابك ذي الرقع.

ضحكتُ لتشبيهه، فابتسم أبي وأكمل:

-صدقني أنا أعرف ما أقول، أنت إنسان مميز له مستقبل غير عادي، وأنا لا أقول ذلك لأنك ابني، فها أنت ترى أخاك محمدًا، ابنٌ مثالي، لم يخالفني قط، ملتزم، متدين، يحب أمه وإخوته ويرعاهم خير رعاية، يتخذ مني قدوة له، أعرف أنه سيرعاكم من بعدي كأنني موجود، وسيدعو لي بعد وفاتي، هذا هو الابن الذي يتمناه أي أب في الدنيا، ولكنه سيكون مثلي بالضبط، وكل أب يريد أن يكون ابنه أفضل منه، ولكن محمد يمشي على خطاي، يراني مَثَلَه الأعلى، وغاية أمله أن يكون مِثْلِي. أما أنت فأعرفُ أن أحلامك تحلّق بعيدًا في أفق لم تصل إليه أبصارنا، ولذلك رغم خلافاتي المستمرة معكَ تظلّ لَكَ مكانة خاصة في قلبي.

بُهِتُّ من حديث أبي الغير متوقع، فنظر لي وابتسم وقال:

-أعرف أنك تكره النصائح، ولكن هناك أشياء لا تتعلمها إلا من الزمن، أريدكَ أن تعرف أنها لو كانت من نصيبك لن أستطيع أنا ولا أبوها ولا الدنيا كلها الوقوف بينكما، لا أطلب منك أن تتخلّى عنها، ولكن اعرف جيدًا أنه مع الزمن ستتغير الكثير من المفاهيم لديك، فالأمر الذي تراه الآن غاية في الأهمية ولا تستطيع العيش بدونه قد تراه غدًا شيئًا عاديًا وتندهش من رأيك السابق فيه، ما تراه غير مناسب وغير مقبول بالمرة الآن قد تراه

لاحقًا هو الأنسب، هكذا هي الدنيا؛ تعطيك الخبرة والحكمة بأثر رجعي بعدما يكون قد فات أوان استخدامها، أكرّر لكَ أنني لا أنصحك أن تنساها ولا أن تتمسك بها، هذا قرارك، والآن دعنا نقضي سهرة مميزة، أنا أعرف منذ كنتَ أنتَ في المدرسة الثانوية أنك تكتب قصصًا قصيرة وتنظّم الشعر، وانتظرتُ طويلًا أن تعرضها عليّ، ولكنك لم تفعل وأخفيتَ الأمر عني كأنك ترى أن رأي أبيك غير مهم لأنه رجل غير مثقف.

فقلت بخجل: العفو يا أبي، كلنا نعرف مدى ثقافتك واطّلاعك، ولولا مكتبتك ما كنتُ أحببتُ القراءة، ولكني خجِلتُ فقط من عرضها عليك.

*حسنًا اليوم تسمعني بعض إنتاجك الأدبي، ثم بعدها تحكي لي عن "عُلا" التي استطاعت ترويض هذا الوحش البري.

وكانت فعلًا ليلة خيالية أخرجتني من الهوّة التي كنت فيها.

تعرفتُ فيها على جانب من أبي لم أرَهُ من قبل.

لكأن أبي ادّخر لي نصيبي من حنانه ليعطيني إياه كاملًا في الوقت الذي كنت في أمس الحاجة إليه.

كانت ليلة لا يجُودُ بها الزمان إلا مرّة واحدة، ولم تتكرّر فعلًا؛ لأن أبي تُوفِّي بعدها بعدة أشهر.

****

"أنا آسف يا ياسر، لم أكن أقصد إزعاجكَ"

أفقتُ على صوت محمود جالسًا على عجلة القيادة شاردًا مكتئبًا مثلما كان منذ عدة سنوات على نفس الطريق، وفي ذات السيارة، فقط تناثَرت الشّعيرات البيضاء في رأسه.

فوجئتُ أن الدموع قد أغرقت وجهي؛ فأشحتُ بوجهي بعيدًا، لا أدري هل كنت أبكي من ذكرى ذلك اليوم الكئيب، أم لأنني تذكرتُ أبي وما فعله معي في تلك الليلة، أم أبكي لما وصلتُ إليه الأمور.

"هو لم يكن يومًا حزينًا لكَ أنت وعُلا فقط"

أكمل محمود دون أن ينظر إليّ:

-"لقد ترك ذلك اليوم في قلبي ندبة لا تمحى، لم يكن الأمر فقط تعاطفًا مع صديق عمري الذي لم أره منهارًا إلى ذلك الحد من قبل، ولا نهاية حزينة لقصة حب جميلة فقط، قصتُك مع عُلا لم تكن قصتكما وحدكما، لقد كانت ملهمة للكثيرين، كانت دليلًا على أن هذه الدنيا لا زال بها جانب جميل يمثل الحب والخير والعدل، هذان أكثر اثنين رأيتهما مناسبين لبعضهما، يبدو كل منهما كأنه خُلقَ من أجل الآخر، أنا متأكد أنني لو كنتُ قابلتُ عُلا قبل أن تعرفها أنت لكنتُ جئتُك مبشرًا أنني وجدتُ لكَ نسختك الأنثوية التي تناسبك، هذان الاثنان شاءت الأقدار أن يلتقيا ويتعرفا وجمعتهما مشاعر بريئة ونشأت بينهما قصةُ حبّ رائعة، وأمامهما فرصة أن يكلّلا قصتهما بارتباط لا يوجد نظريًا ما يمنعه، إذَن هناك أمل، الحياة في بعض الأحيان تترفّق بنا وتعطي الناس ما يستحقونه، وليست على طول الخط ترينا جانبها الكئيب المظلم، كنتُ وقتها في مرحلة مضطربة من علاقتي بـ "مي"، ولكن كان هناك أمل، فلو أني جُرِحتُ أو تحطّمتْ أحلامي أو مشاعري فذلك ليس بسبب أن هذه هي القاعدة! هناك فرصة لأن تجد ما تبحث عنه وترى من الدنيا وجهًا آخر، والدليل (ياسر وعُلا)، ولكن فجأة تهدّم كل شيء، القصة الملهمة تحوّلَ مجراها بزاوية حادة إلى الجانب المأساوي؛ لذلك كانت صدمتي يومها شديدة، لم أنم ليلتها، كنت أشعر أن هناك أملًا سُرِقَ من صدري تاركًا فجوة سوداء جديدة بجوار الفجوة

الموجودة بالفعل، أعتذر مرة أخرى أن ذكّرتُك بذلك اليوم، ولكن رُبّ ضارة نافعة"

قلت دون أن أنظر إليه:

-تقصد أنكَ الآن فقط اطمأنّ قلبك أنني ياسر، أليس كذلك؟

لم يرد وظلَلْنا في صمتٍ حتى وصلنا المنزلة؛ فقلت له أنني سأنزل في أول المدينة لأني أريد أن أتمشى قليلًا، وحتى يمهد هو الأمر لسامح، أشار إلى الشارع الذي به محل سامح ووصف لي مكانه، ثم نزلتُ من السيارة.

أخذتُ أتجول في المنزلة مستعيدًا ذكريات أيام كنت أعتقد وقتها أنها أصعب أيام حياتي.

المدرسة الثانوية، موقف السيارات، بائع الفول السوداني الذي كنت أشتري منه لعفاف، ميدان الأنصاري، الشارع التجاري.

وأخذت أسترجع ما حدث بعد ذلك اليوم الكئيب.

ذهبتُ إلى المطرية لاستلام عملي، رحلة طويلة حتى المنزلة، ثم أركب سيارة أخرى حتى مدينة المطرية، مدينة تبعد عن عاصمة المحافظة حوالي ساعتين، وعن عاصمة البلد أكثر من أربع ساعات، كل شيء بعيد عن الرقابة؛ الأمن، الامتحانات، المستشفى، المكاتب الحكومية، كل شيء هنا يدار بشكل مختلف، السكان هنا بهم تفاوت رهيب ما بين ثراء فاحش وآخرين لا يجدون قوت يومهم، ما بين بلطجية لا يخافون من أحد ولا تستطيع الشرطة السيطرة عليهم ورجال دين متشددين أتباعهم منتشرون في كل مكان.

الغش في الاختبارات هنا ليس عملية عشوائية تعتمد على جرأة الطالب وقدرته على الابتكار والمراوغة والتخفي كما يحدث في المعتاد، هنا الغش عملية جماعية منظّمة يتكافل فيها الجميع؛ الأهالي والمدرسون والمراقبون ورئيس اللجنة، الطلبة لا دخل لهم في الأمر، هم ينسخون الإجابات فقط؛

مما يقتل جانب الإبداع والابتكار فيهم، طبعًا هذه العملية المنظمة لن تهتز أبدًا بسبب رفض ترس صغير مثلي للمشاركة، فتمّ إعفائي مباشرة من المراقبة على الاختبارات من اليوم الأول بأمر رئيس اللجنة، وذلك على حد قوله لحمايتي من الدخول في حرب خاسرة تكون نهايتها مطواة في جنبي أو ندبة طولية بموسَى الحلاقة في وجهي.

على مدار عدة أشهر اعتدتُ على كل ما كان غريبًا في البداية؛ رائحة بحيرة المنزلة، اللهجة المحبّبة القريبة من لهجة أهل بورسعيد، سيارات الميكروباص التي تجري بجنون وسط طريق ضيق شديد الازدحام، ثرثرة الركاب ومشاداتهم مع السائقين، القرى والمدن ذات الأسماء الغريبة، أماكن نزول الركاب المعتادة "سأنزل في البصراط يا أسطى"، "نزّلني عند الماسورة"، "الكبّاس يا أسطى"، "عند الكاوتش اللي جاي".

الأصوات المألوفة في الموقف: "منصورة منصورة"، نداء سيارات دكرنس الشهير "كرديعلام الرياض كيرنييس" وهو ما عرفتُ لاحقًا أنه إدغام لأسماء عدة بلدان على الطريق.

لاحقًا عرفتُ بيت عمّلا في المنزلة -بمساعدة سامح طبعًا- فصار من روتيني اليومي في طريق العودة أن أتمشّى قليلًا في المنزلة، خاصة في شارع بعينه، ثم أجلس في كافيتيريا بعينها أشرب قدحًا من القهوة مع ثلاثة سجائر، ثم أذهب لموقف المنصورة.

حافظتُ على وعدي لوالدة عمّلا، فلم أتصل بها ولم أحاول أن أقابلها، حتى جوَلاتي في المنزلة كانت بهدف الشعور أنها قريبة فقط. ولكن الوعد لم يكن يتضمّن رسائل البريد الإلكتروني؛ حيث كانت هي وسيلة الاتصال الوحيدة الباقية لنا.

تم استدعاء سامح للتجنيد، محمود يعمل تحت التدريب في شركة في القاهرة، عُلا تحت الحصار، صِرتُ وحيدًا.

أقضِي اليوم في العمل... أعود منهكًا... أتجول في شوارع المنصورة، تتردد في ذهني قصيدة نزار قباني "ممنوعةٌ أنتِ" التي تغنّى بها كاظم الساهر. مركز الكمبيوتر، رسالة إلى عُلا، أعود للبيت، أقرأ حتى تدخل عفاف بعد نومي لتفك يدي المتقلصة على الكتاب وتطفئُ الضوء، ثم يوقظُني رنين المنبه في الخامسة صباحًا؛ فأجهّز نفسي لأُدِير الساقية مرة أخرى. استمرت الحياة على هذه الوتيرة لعدة أشهر، حتى ملَلْتُ من الدائرة المفرغة التي أعيش فيها دون أن أتقدم خطوة للأمام. خاصة بعد أن تسلمت أول راتب لي ونظرت بحسرة إلى الجنيهات القليلة التي لن تكفي مصاريف الذهاب والعودة للعمل.

تكلمتُ مع أخي محمد أني أفكر أن أترك العمل لأنه بلا فائدة، حتى لو تم نقلي لمكان قريب، ولكن محمد غضب بشدة وقال إنني مدلّل ولا أريد أن أتعب، وأنه يعلم أن المرتب قليل، ولكن هذا لأن مهنة التدريس تعتمد في الأساس على الدروس الخصوصية، ثم أخذ يشرح لي أن أبي تعب كثيرًا حتى يستطيع أن يوفر لي هذه الوظيفة، وأن محمد حضر معه لقاءات كثيرة واتصالات مع وساطات حتى يقبلوني، وأنه سيحزن جدًا لو تركتها، ثم قال:

-هل تعرف متى أصيب أبوك بالسكري؟

-منذ عدة سنوات.

*لا، بالضبط بعد فصلِكَ من كلية الهندسة. هل تعرف أنه يتناول حاليًا أدوية لعلاج ارتفاع ضغط الدم منذ موضوع خطبتك؟ إن كنتَ تريد أن تقضِي على أبيك فاستمر في قراراتك الخاطئة واترك العمل الذي ظلّ هو يسعى شهورًا حتى يوفّره لك.

صدمني كلام محمد وشعوره أنني السبب في كل ما أصاب أبي، أعرف أن محمدًا مرتبط بوالده بشدة، ولكني لم أكن أتوقع أنه يحمّلني مسئولية صحته.
استمعتُ لنصيحة محمد وداومتُ على الدوران في الساقية حتى جاء اليوم الذي ناداني فيه الأستاذ أمين من مقعده الخالد في الشرفة أثناء عودتي للبيت، وقال لي أن أبي أصابته وعكة صحيّة ونقلوه للمستشفى.

****

تغير سامح كثيرًا، تساقط معظم شعره، حلق شاربه الذي كان شديد الاهتمام به، وزاد وزنه. إلا أنه لا زال يحتفظ بمرحِه ونشاطه الزائد.
-طبعًا أنت لم تصدق ما قاله لك محمود.
*الباشمهندس طيّب القلب ومن السهل إقناعه.
-وماذا عنكَ؟ كيف أقنعُكَ أنني ياسر؟
فهز كتفيه وقال:
-لا أدري، إنها مشكلة كبيرة، فأنت بشاربك هذا لا تمتّ لياسر بصلة، قد أصدّق أنك ثابت البطل أو ربما الأخضر بلومي.
-إذَن هل تذكر عندما ظللتَ شهرًا تراسل صديقك يوسف على الإيميل منتحلًا شخصية فتاة، وفي النهاية اتفقتَ معه على لقاء ونصّبتَ له فخًّا أمام كافيتيريا كلية التجارة؟
*هذه قصة مشهورة ويعرفها الجميع.
-ماذا عن الملف السري الذي كان على الكمبيوتر الخاص بك؟
*كل الناس عندها ملفات سرية.
-ولكني أعرف كلمة السر، هل تعرفها يا محمود.
فهز محمود رأسه نفيًا فأكملت:

-إنها سبة بذيئة، أليس كذلك؟

لم يرد سامح وعقد حاجبيه مفكرًا.

-هل تذكر "جيجي"؟ تلك الفتاة التي....

فرفع سامح يده ليسكتني:

-حسنًا حسنًا، هذا يكفي، هذه أشياء لا يعرفها إلا ياسر فعلًا، ولكن كيف حدث ذلك؟

شرحتُ له ما حدث باختصار، وقال له محمود أننا نحتاج مساعدته لمعرفة من هو محمد جمال، وأعطاه صورة من البطاقة.

فوافق سامح وقال أنه ذاهب غدًا إلى بورسعيد وسيمر على أخيه، وسيحاول أن يعرف منه أي معلومات عن هذا الشخص.

أخذنا نسترجع بعض ذكرياتنا أيام المدرسة الثانوية وأيام الجامعة وسط ضحكات سامح المرتفعة ومزاحه المستمر.

عرض علينا سامح أن نبيت ليلتنا معه، لكننا أصررْنا على العودة؛ لأن محمود عنده عمل باكر. وقبل أن ننصرف سألته:

-ماهي أخبار عُلا؟

*بعد اختفائك تم استدعاؤها للتحقيق أكثر من مرة، وتم استدعاء أبيها أيضًا، كثُرَت الشائعات، ثم قرر أبوها العودة للإمارات مصطحبًا أحد أبنائه، وباع المعرض.

-وماذا عن عُلا؟

*تعيش مع أمها وأخيها الآخر في المنصورة.

****

بعد عودتنا إلى المنصورة... قلتُ لمحمود أنني سأذهب لأرى شارعنا وبيتنا؛ لأنني اشتقتُ كثيرًا لذلك، فطلب مني أن ألتزم الحذر ولا أثير الشبهات.

يقع بيتنا في تقسيم السمنودي، وهي منطقة قريبة من منزل محمود الملاصق لكلية الآداب. تتكون من ثلاثة شوارع موازية لشارع الترعة، تبدأ من امتداد شارع جيهان السادات وتنتهي عند شارع كلية الآداب، ويقطع الشوارع الثلاثة مسجد السمنودي.

دخلتُ المنطقة الهادئة والتي تناثرت ذكريات طفولتي في شوارعها الثلاثة، وعندما اقتربتُ من منزلنا تسارعَت دقات قلبي وأنا أنظر إليه، نافذة غرفة عفاف يتسرّب منها الضوء كالعادة، أكاد أتخيّلها جالسة على مكتبها تذاكر وأمامها كومة من الكتب والمذكّرات، منذ سنوات طويلة وهي في جلستها وكومة الكتب لا تنتهي حتى كدت أنسى أي ذكريات لها قبل دخولها كلية الطب، كأنها منذ ولادتها تم تسجيلها في الفرقة الأولى، لقد الْتَهَمَتْ تلك الكلية المتوحشة حياتها.

*ياسر، لو سمحت، أريد "مازورة" ولا أعرف من أين أشتريها، هل تستطيع أن تشتري لي واحدة؟

-وهل كنت تذاكرين طوال هذا الوقت لتصبحي في النهاية خياطة؟

*لا وقت للمزاح، عندي اختبار غدًا وأحتاجها بشدة.

-حسنًا لن أمزح، ولكن ما دخل المازورة بالاختبارات؟

أفقت من ذكرياتي على صوت يقول "هل تبحث عن شيء يا أستاذ؟"

إنه الأستاذ أمين جارنا العتيد الجالس على كرسي المراقبة في شرفته لاستطلاع ما يحدث هنا وهناك، تذكرتُ ما قاله محمود عن استدعائه للاستجواب، أعتقد أنه كان قرارًا صحيحًا، ولابد أنهم حصلوا على قصة

حياة سكان الشارع بأكمله؛ لأن الأستاذ أمين يراقب كل صغيرة وكبيرة في الشارع.

هو يعمل بوظيفة ما في مكتب الصحة، ولابد أنه على درجة وزير على الأقل نظرًا لاعتداده بنفسه وشعوره بالأهمية. يضع أمام منزله حجارة ضخمة جدًا لا يعلم أحد من أين يُحضِرُها، ولكنها غالبًا من نفس المكان الذي جاءت منه الحجارة التي بُنِيّت بها الأهرام، والغرض منها طبعًا ألا يقوم أحد الجيران بركن سيارته أمام منزل الأستاذ أمين والذي يعتبرها جريمة، رغم أن الأستاذ أمين نفسه لا يملك سيارة.

هو أيضًا يتولّى مهمة التبليغ عن أي محاولة بناء مخالف أو تعدي على رصيف؛ مما جعل شعبيته في المنطقة صفرًا. يصحو الأستاذ أمين مبكرًا، ينظف الشارع أمام منزله ويطمئنّ على حجارته المقدسة، ثم يرتدي ملابسه ويخرج في كامل أناقته في الثامنة صباحًا ذاهبًا لعمله شديد الأهمية، وفي تمام التاسعة صباحًا يكون الأستاذ أمين جالسًا في برج المراقبة مرتديًا جلبابه. ابنه أحمد كان له صديق لحوح ينادي بصوت عال عليه ويدغم حروف اسمه بشكل موسيقيّ "أحماميين"، وهو على استعداد أن يلح في ندائه لساعة كاملة حتى يرق قلب الأستاذ أمين ويسمح لابنه أن يرد عليه بعد أن يكون قد أزعج الشارع بأكمله.

"عفوًا يا سيدي كنت أبحث عن منزل الحاج إبراهيم المحمدي"

انصرفتُ بسرعة وأنا أتذكر حين بلّغَني بخبر نقل والدي إلى المستشفى.

جلطة دماغية، ضعف في الجانب الأيمن من الجسم وصعوبة في الكلام. تم حجزه في مستشفى الطوارئ لمدة يومين، ثم تم نقله إلى قسم الأعصاب بالمستشفى الجامعي، كان أخي محمد مرافقًا مع أبي ورفض أبي تمامًا أن أتبادل المرافقة مع محمد، لاحظتُ أنني كلما ذهبت لزيارته أجده نائمًا، استطعتُ

بواسطة سامح -الخبير بكل مداخل ومخارج الجامعة- أن أدخل وأخرج بسهولة في غير أوقات الزيارة؛ حيث كان هناك مبنى تحت الإنشاء لمستشفى الأورام أستطيع المرور إليه من داخل الحرم الجامعي ثم إلى داخل المستشفى الجامعي، مع الوقت بدأتُ أعرف الطريق إلى قسم الأعصاب بعد أن كنت أقضي قرابة الساعة في كل زيارة أدُور في أروقة المستشفى العتيقة المتشعبة، كانت حالة أبي تتحسّن وبدأ يحرّك يده قليلًا ويمشي بمساعدة محمد، وقالت عفاف نقلًا عن طبيبه المعالج أنه سيحتاج فقط إلى علاج طبيعي حتى يعود لطبيعته، ولكن ذلك قد يستغرق وقتًا طويلًا، ولما سألت محمدًا عن سبب نوم أبي كلما زرته فقال إنه ربما غاضب مني؛ لأنه ينام فقط عندما يعلم بوجودي! ولكن عفاف نقلّت لي رسالة منه: "قولي لياسر أني لستُ غاضبًا منه، ولكني لا أريده أن يرى أباه ضعيفًا، ولا أحب أن أتكلم معه وقد تشوهّت الحروف في فمي.

وسألها إن كان جاءني رد من دار النشر التي أرسلتُ لها مجموعتي القصصية؛ فصِرتُ بعدها أزوره فأقبل يده في صمت وأنصرف.

****

(بمزيد من الحزن والأسى تُنعِي إدارة جامعة المنصورة الأستاذ: علي الجندي، أمين كلية الحاسبات والمعلومات بجامعة المنصورة، داعين للفقيد بالرحمة وللأسرة بالصبر والسلوان، وستشيّع الجنازة بعد صلاة العصر من مسجد العيسوي، وسيكون العزاء في دار المناسبات بمسجد النصر، ولا أرانا الله مكروهًا في عزيز لديكم)

****

بعد وفاة أبي قررتُ التوقف عن الدوران في الساقية، كتبتُ لـ عُلا أني لم أعد أستطيع الاستمرار، وأنني لا بد أن آخذ خطوة جديدة مختلفة حتى أستطيع تغيير واقعنا المؤلم.

فوجئتُ بعفاف تبلغني أن هناك من يريدني على الهاتف، وعندما وضعت السماعة على أذني انساب إلى مسامعي نهر من أنهار الجنة:

-البقاء لله، كيف حالكَ يا ياسر؟

-الحمد لله، كيف عرفتِ رقم الهاتف؟!

*أنا أيضًا لي أساليبي، لقد استأذنتُ والدتي أن أعزّيك في والدك رحمة الله عليه، كم تمنيتُ أن أقابله بعد أن حكيتَ لي عنه، ولكنْ قدّر الله وما شاء فعَل.

-هو أيضًا كان يتمنى أن يقابلكِ.

*ياسر، ماذا تنوي أن تفعل بعدما تركتَ وظيفتك؟

-لا أعرف بعد، سأبحث عن وظيفة أخرى، وربما أفكر في السفر.

*أنت اتصلتَ بالدكتور سامي، أليس كذلك؟

لم أرد عليها، فقالت:

-لماذا يا ياسر؟ ألم نتفق أنه طريق محفوف بالمخاطر؟

-وهل أمامي طريق آخر؟ إلى متى ستستمرين في مقاومة ضغوط والدك لتقبلي بأحد المتقدمين لخطبتك؟

*ولكننا اتفقنا أنكَ لن تفعل ذلك.

-ولكنه الآن هو الطريق الوحيد كي لا أفقدك؟

*أنا خائفة عليك يا ياسر، وقلبي غير مطمئن لهذا الطريق.

-لا تخافي؛ سآخذ حذري.

*وماذا قال الدكتور سامي لك؟

-سأقابله غدًا لنبدأ التدريب.

*ياسر، عِدني ألا تخاطر بنفسك وأن تكون حذرًا.

-أعدك.

* هل... هل ستكون نيرمين هناك؟

-لا أدري.

*عِدني أن تبتعد عنها.

-لماذا؟ لقد أقسمتُ لكِ أننا اتفقنا من البداية أننا أصدقاء فقط.

*ربما بالنسبة إليك، فليست هي وحدها من يقرأ الأفكار، فلقد رأيتُ الكثير في نظرتها لك.

8
كهف الثعالب

كان الأمر في غاية السهولة، اتصلتُ بالدكتور سامي وسألته إن كان العرض لا يزال قائمًا؛ فرحّب بي وقال أن العرض متاح في أي وقت. لا أسئلة من نوع لماذا غيّرتَ رأيك؟ وماذا حدث؟ لكأنه كان ينتظرني.

طلب مني أن أجهّز نفسي للذهاب معه للقاهرة في اليوم التالي، وهناك أجرينا كشفًا طبيًا كاملًا، أشعة مقطعية على المخ، فحص قاع العين، رسم مخ، تخطيط للأعصاب والعضلات، ودخلتُ تجربة سخيفة اسمها الرنين المغناطيسي، هذا بالإضافة إلى سحب ما يقارب العشرة لترات من دمي بحجة إجراء تحاليل طبية. قضّينا اليوم كله نتنقل بين مجموعة مستشفيات بعضها تابع للقوات المسلحة وبعضها مستشفيات خاصة، وقبل العودة جلس معي الدكتور سامي وأعطاني تعليماته الأولية:

-أهم شيء في عملنا السرية التامة؛ غير مسموح أن تخبر أي أحد مهما كانت ثقتك به بطبيعة عملك، ذلك حمايةً لك وله، ستقول إنك كنت قد قدمت من قبل على وظيفة مترجم في وزارة الخارجية، وأنك أجريت مقابلة اليوم وتم قبولك، ستُحضِر أوراقك غدًا وسيتم تعيينك بالفعل في وزارة الخارجية، ستُحضِر ملابسك وأغراضك للإقامة في القاهرة ونحن سندبر كل شيء.

-وأين سأقيم؟ وكيف سأ.....

*كل ما عليك هو أن تضع حقيبتك في أتوبيس القاهرة، وحين تصل ستنتظرك سيارة ستحملك إلى مقر إقامتك. لا تشغل بالك بأي شيء من الآن إلا بتدريباتك فقط، أي شيء آخر ستجد فورًا من يتولاه عنك، لقد انتهى وقت المعاناة يا صديقي.

في اليوم التالي وجدتُ سيارة تنتظرني في الموقف، السائق قليل الكلام، توجه بي إلى مكان على أطراف القاهرة وتوقف أمام مبنى صغير.
(وزارة الصحة، مديرية الشئون الصحية بالقاهرة - الطب الوقائي وحدة مكافحة الملاريا)
في الدور الأول عدة مكاتب يجلس عليها عدة موظفين يجلسون في ملل وأمامهم دفاتر ضخمة، الدَّرَج الذي يقود إلى الدور الثاني عليه فردًا أمن سمحًا لنا بالصعود. حمل السائق حقيبتي وقادني إلى حجرة في الدور الثالث قال: الاجتماع في الدور الثاني بعد نصف ساعة من الآن.
الدور الثاني به قاعة اجتماعات، شاشة عرض كبيرة، أجهزة كمبيوتر، سماعات رأس، معمل صوتيات كامل بالإضافة إلى أجهزة كثيرة لم أعرف ماهي، ربما هي لقياس قوة الزلازل أو لاكتشاف المياه الجوفية أو قياس سرعة الضوء. عندي اعتقاد ما أن مكافحة الملاريا لا تحتاج إلى كل ذلك. هناك شخصان جالسان يبدو من تعوّدهما على المكان أنهما ليسا جديدَين.
ظهر الدكتور سامي وأشار لي أن أجلس، وقال:
-لدينا زميل جديد؛ لذلك سوف أكرّر بعض التعليمات المبدئية، التدريب يبدأ في التاسعة صباحًا وحتى الثالثة ظهرًا، غير مسموح بالتأخير، التدريب المسائي يبدأ في السادسة وحتى العاشرة، لا تعارف ولا أحاديث جانبية، غير مسموح لكم بالتحدث مع بعضكم أثناء الراحات، مسموح بالتحدث مع عائلاتكم وأصدقائكم في الهاتف المحمول، ولكن لا معلومات عن المكان أو طبيعة العمل، يوم الأجازة مسموح بالخروج، ولكن عن طريق سيارة المركز فقط. التنبيه الأهم ممنوع إظهار أو استخدام أي مهارات إلا إذا طُلِب منك ذلك.

شعرتُ أنني في معسكر للجيش وبدأ القلق يتسلّل إلى قلبي.
ولكني بدأتُ أهدأ حينما وجدتُ هاتفًا محمولًا في غرفتي وظرفًا به مبلغ مالي كبير، وبطاقة العمل بوزارة الخارجية، وصورة من قرار تعييني براتب لم أحلم به.
قبل التدريب قضيتُ عدة أيام في اختبارات نفسية واختبارات ذكاء ومعلومات عامة، من نوعية ماهي عاصمة تشيلي، من فاز بكأس العالم عام ١٩٧٨، ما الرقم الذي إذا ضربته في نصفه ثم جمعته على نصفه يكون الناتج ١٠، ماذا حدث عام ١٧٩٨، ومجموعة أسئلة كبيرة من نوع ماذا تفعل إذا وجدتَ في محطة قطارات قنبلة موقوتة باقي على تفجيرها دقيقة.
بعد عدة أيام بدأ التدريب، وكان عبارة عن كورسات متقدمة في اللغة الإنجليزية وطريقة النطق بلكنات مختلفة، مبادئ اللغة الفرنسية والألمانية، محاضرات يلقيها متخصصون في المخ والأعصاب، القانون الدولي، الكومبيوتر والبرمجيات، العلوم الأمنية، التاريخ والعلوم العسكرية. والأخيرة كانت المحاضرات الوحيدة التي يكون شرحها عن طريق الفيديو كونفرانس وكان يلقيها الدكتور سليمان والذي عرفت لاحقًا أنه مدير هذا المكان ولم أعرف هو دكتور في أي تخصص ولكن يبدو أنه دكتور في أحد العلوم العسكرية وليس طبيبًا. اعتدت بعدها أن أي لقاء بشخصية مهمة أو أمنية يكون بهذه الطريقة خوفًا من قراءة الأفكار.
استمر التدريب لثلاثة أشهر، كان مسموحٌ لي بالخروج فقط يوم الجمعة؛ فكنت أذهب للقاء طارق ومحمود الذي كان وقتها يعمل تحت التدريب في شركة كمبيوتر، ورغم أسئلتهم الكثيرة لم أخبرهم بأكثر من أنني أعمل بوزارة الخارجية، كنت أُطمئِن عليّ أمي بالهاتف كل عدة أيام، واستمر التواصل مع عُلا عن طريق البريد الإلكتروني.

زملائي في المركز لا أعرف عنهم إلا أشكالهم فقط، غير مسموح لنا بالكلام، تتغير الوجوه مع الوقت فتختفي الوجوه القديمة وتظهر وجوه جديدة، ولكن كنا بحد أقصى أربعة أفراد في التدريب. لم أعرف مواهبهم، ولكني شعرتُ بالطنين المألوف أكثر من مرة، وفي إحدى المرات رأيت أحدهم يلتقط قلمًا وقع منه أثناء التدريب؛ فرأيته يمدّ يده نحو القلم دون أن يصل إليه، ولكن القلم تحرك وقفز إلى يده، ظننتُ أنني هيأ لي ولكني رأيتُ الدكتور سامي يحدجه بنظرة محذّرة.

كان لي تدريب منفرد مع الدكتور سامي عن كيفية السماح لأحدهم بقراءة أفكاري:

-"ما الفائدة إن كان قارئ الأفكار لا يستطيع قراءة أفكارك ولكنه يستطيع أن يتعرّفك؟ فهو عندما يجدك مصمتًا غير قابل للاختراق سيكتشف حقيقتك على الفور، إذَن الحل أن تتعلم أن تسمح له بالدخول ولكن إلى الطريق الذي ترسمها له أنت؛ أي تجعله يقرأ ما تريده أنت من أفكار دون أن تفتح عقلك بالكامل أمامه، وهذه مهمة صعبة، ولكنها ممكنة، وهذا هو ما سنتدرب عليه إن شاء الله. هناك مجموعة نظريات في هذا المجال اسمها نظريات "عز الدين" نسبة إلى أستاذي الدكتور إيهاب عز الدين الذي كان له السبق عالميًا في دراسة هذا المجال."

وبعد شهر من الدراسة النظرية جاء وقت التطبيق العملي:

-"أعتقد أنك ترى الأمر يبدو نظريًا غير قابل للتطبيق، ولكني أؤكد لك أنه ليس كذلك، ولكنه يحتاج إلى التجربة والتدريب، وذلك يحتاج إلى مساعدة شخص آخر حتى نحدد مدى نجاحك في الأمر"

وهنا سمعت الصوت:

-"مرة أخرى نلتقي يا ياسر، لماذا تأخرت يا أحمق؟"

****

"حسنًا هل من جديد؟ هل تذكرتَ شيئًا جديدًا بعد رحلة اليوم؟"

قالها محمود وهو يستقبلني على باب شقته.

-طبعًا، تذكرتُ الكثير، على الأقل هناك أحداث أخذت ترتيبها الصحيح في ذاكرتي، أشعر كأن ذاكرتي لعبة بّازِل معقدة بعثرها أحدهم وعليّ جمعها وترتيبها بشكل صحيح.

*سنجمعها يا صديقي لا تقلق، لكن لابد أن نضع خطتنا جيدًا حتى نحقق هدفنا في وقت أقصر، ولابد أن يكون لنا أيضا خطط بديلة، هل رأيت فيلم Sword fish لجون ترافولتا؟

-لازلت مهووسًا بأفلام هوليوود.

*وبمَ أُشغِل وقتي إذَن؟ بمتابعة الدوري المصري كسامح؟

-بأن تتزوج.

تجمدَت الابتسامة على وجهه وصمت قليلًا، ثم قال:

-وما الفائدة؟ زواج، قيود، ثرثرة، حماة شريرة، أطفال غير مهذبين، حرارة مرتفعة، البحث عن طبيب في الفجر، متابعة الحمل، ألقِ القمامة وأحضر لبنًا وخبزًا، هل تراني أصلح لهذا؟

-لقد قابلتُ "مَيّ" من عامين في لندن. هي تعمل معدة لأحد البرامج في قناة فضائية، وكانت تقوم بإعداد تقرير هناك؟

لم يرد محمود، كنت عرّفتُ محمود على "مَيّ" بعد معرض كلية التجارة إياه الذي تشاجرنا بسببه.

"مي" فتاة طموحة، ابنة رجل أعمال كبير، موهوبة ومثقفة، علاقاتها واسعة تعرف كل من يكتب الشعر والأدب في الجامعة، عندما عرّفتُها على محمود عرفتُ أنها كانت جارته قبل أن تنتقل للعيش في عمارة أبيها على النيل،

وعندما قلتُ لها أنه هو من رسم الصورة التي أعجبَتها طلبَت منه على الفور أن يرسم لها صورة تعبّر عن قصيدة كانت تشارك بها في المعرض، وطبعًا وافق محمود على الفور، من وقتها صار محمود هو رسّامها المعتمد لكل أعمالها، وعندما تعمد محمود أن يرسم صورتها هي عندما طلبت منه أن يرسم صورة تعبر عن قصيدة لها، لم يبدُ عليها أنها لاحظت الشبه، ولما سألتُ محمود هل أخبرها بمشاعره؛ فقال أنه لمّح لها أكثر من مرة، ولكن يبدو أنها مشغولة بطموحها ولا ترى أي شيء آخر، يومها تشاجرنا لأنني اتّهمتُه بأنه بتخاذله وخجله وتردده سيضيعها من يده؛ فغضب بشدة وقال أنني لا أفهم شيئًا، وأنه لا يريد أن يتسرع فيفقدها للأبد. وعندما حكيتُ لـ"عُلا" قالت:

-بالتأكيد هي تعرف بمشاعر محمود، ولكنها تتعمّد ألا تُظهِر ذلك، فهي لا تريده أن يقترب أكثر ولا تريده أيضًا أن يبتعد.

بعد تخرّجها مباشرة انتقلت "مي " إلى القاهرة، وعملت في صحيفة أسبوعية وصدر لها مجموعة قصصية مصحوبة بصور رسمها محمود، بالإضافة إلى تصميم الغلاف من إهدائه. وارتفعَت أسهُمُها كثيرًا مع ارتفاع أسهم أبيها الذي صار من أشهر رجال الأعمال.

بعدها تزوجَت من مدير تحرير إحدى الصحف.

ومع الوقت أصبح لها عمودٌ ثابت في إحدى الصحف، وتوالَى نشر أعمالها.

عندما لم يرد عليّ محمود قلت له:

-هل عرفتَ أنها انفصلت عن زوجها؟

*طبعًا عرفت.

-لطالما أثارَت دهشتِي علاقتُك بـ"مي".

*هذا لأنك تراني طوال الخط متخاذلًا، أخجل أن أصارحها بمشاعري، أليس كذلك؟ لهذا كانت علاقتي بها هي الشيء الوحيد الذي لم أكن أصارحك به.

-ولماذا كنت تخشى رأيي ما دُمتَ ترى نفسكَ محقًا؟

*كنتُ دائمًا أخشى من رد فعلك، كأنك صوتُ ضميري الذي أهرب منه؛ لأنني لم أكن أبدًا على حق، لأنني كنتُ أخجل أن أكشف تفاصيل علاقتي بها حتى أمام أعز أصدقائي، ما لا تعرفه أنني صارحتها بمشاعري منذ زمن طويل. هل تذكر ما قالته علا، لقد كانَت محقة، النساء يفهمن بعضهُنّ أكثر دائمًا، مي كنت تعرف بمشاعري من البداية، ولكنها كانت تدّعِي جهلها بالأمر حتى تتفادى المواجهة، فلو أنها تعرف فلابد من ردة فعل إما بالرفض أو الإيجاب، ولكنها لا تريد كليهما، هي لم تبادلني نفس المشاعر، ولكنها لا تريد أن تفقدني.

-إما أنها لم تثق بأنك تحبها فعلًا أو أنها كانت تعبث بك.

*ليس الأمر كذلك، هي تعرف جيدًا ما أكِنّه لها من مشاعر، ولكنها لم تستطع أن تبادلني نفس المشاعر، ليس معنى أن نحب أحدًا أنه مجبرٌ أن يحبنا، هي تقدر مشاعري ولا تشكّك فيها، ولكنها بكل بساطة لا تبادلني إياها.

-لماذا إذَن لم ينتهِ الأمر عند ذلك؟

*لم أستطع يا صديقي، رغم أن كلامها صدمني وقتل كل أمل في قلبي أن تبادلني مشاعري، إلا أنني لم أستطع الابتعاد عنها، عندما ذهبْتُ إلى القاهرة ذهبتُ خلفها بحجة التدريب في شركة هناك، هي كانت تعاملني كصديق مخلص، حتى أنها عرّفَتْني على زوجها (المهندس محمود؛ صديق مخلص من أيام الطفولة)، دعَتنِي إلى حفلات توقيع كُتُبِها، أحضرَت لي عروضًا من صحف لرسم صور وكاريكاتير بها، تأخذ دائمًا رأيي في أعمالها قبل نشرها، وبعد طلاقها قلتُ لها أنني أريد أن أتحدث إليها في أمر هام، فماذا كان ردها؟

(أرجوك يا محمود، لا تقل ما جئتَ لتقوله؛ فأنا لا أريد أن أفقد أيضًا أعز أصدقائي).

-إن كان الأمر كذلك؛ فلماذا أنت مستسلم لها هكذا؟! لماذا لا تبتعد عنها؟ أو على الأقل تعاملها كما تعاملك كصديقة وتنسَى مشاعرك التي لا أمل فيها.

*لم أستطع يا ياسر، أنا مريض بها، هكذا قال لي طبيبي النفسي، أنا مريض بها ولا أريد أن أُشفَى من مرضي.

ثم أخرج مفتاحًا من جيبه وفتح باب غرفة، كانت دائمًا مغلقة، وأشار لي أن أدخل بينما بقى هو في الخارج، وقال لي:

-أنا حالة ميؤوس منها، لا فائدة من النصائح.

دخلتُ الغرفة فوجدتُ فراشًا صغيرًا ومكتبًا عليه جهاز كمبيوتر ومجموعة كتب: (كان في صدري قلب، بقلم: مي الشناوي)، (خطوات على طريق الجنون، بقلم: مي الشناوي)، (لا قلب لي، مي الشناوي)، مع إهداء في الصفحة الأولى: إلى صديقي المخلص المهندس الفنان محمود البلتاجي.

خلاف ذلك امتلأَت جدران الغرفة الأربعة بصور مختلفة الحجم، سواء مرسومة بالفحم أو بالألوان أو صور فوتوغرافية مكبرة، وكلها لـ"مي"، وتتوسطها صورة كبيرة لعينيها فقط.

هذا الفتى مريض بها فعلًا.

****

(لكي ننتقل لمرحلة التدريب العملي سنحتاج إلى قارئ أفكار حتى نحكم على مدى تطور أدائك، واخترنا نيرمين، ليس فقط لأنكما تعرفان سر بعضكما البعض، ولكن لأنها أصبحَت الآن من أقوى قارئي الأفكار، بل وأصبحت من الفئة الأولى منهم والتي تسمى "المقتحِمون").

ابتسمَت نيرمين في ثقة وهزت رأسها شاكرة.

أكمل الدكتور سامي:

-هناك نظرية لتساعدك في تصور الأمر، حاول أن تجعل الأمر واقعيًا، اعتبر أنك مكلف بحماية شيء، وهناك من يحاول أخذه، بينما عليك أن تعطيه ما تريد فقط وتمنعه من الباقي، معظم المتدربين يشبّهون الأمر كمنزل به غرف؛ فيتركون الباب الخارجي مفتوحًا ويغلقون باقي الأبواب إلا من باب واحد سيضطر الداخل إلى فتحه، هناك من يتخيل الأمر كغابة مظلمة ويضع عوائق أو وحوش في بعض الطرق، قَلعّة حصينة مليئة بالممرات، مصعد يفتح في أدوار معينة فقط، عليك أن تتخيل الأمر بالطريقة التي تناسبك ولا تخبر بها أحدًا، وستجد أن الأمر صار أسهل.

حينما بدأ التدريب جلستُ في مقعد، وثبّت الدكتور سامي الكثير من الأقطاب إلى رأسي وأصابعي، وجلسَت نيرمين على مقعد مماثل ثم جلس هو يتابع شاشتين أمامه.

بدأتُ أشعر بالطنين المعتاد؛ فأغمضتُ عينيّ وبدأت أتخيل الأمر، خزانة حديدية ضخمة لها قفل دائري كبير، ثم رأيتُ نيرمين تتجه إلى القفل بثقة، ثم نظرَت إليّ وقالت:

-لقد تعلمتُ الكثير والآن أستطيع أن أدخل رأسك الذي استعصى دومًا عليّ.

وضعَت يدها على المقبض وحاولَت فتحه، ثم مدّت يدها على القفل وأخذت تعبث به "إذن هناك كلمة سر، أستطيع تخمينها بسهولة".

وأدارت القفل على الحروف الثلاثة؛ فصدَرَت منه تكّة خافتة انتفض لها جسدي، فأمسكَت بمقبض الباب وفتحَته ببطء، فشعرتُ كأن تيارًا من الهواء البارد يجتاحني. سمعتُ صوتها ضاحكًا:

-"ياللشرف، هذا مكان لم يدخله أحد قبلي".

نظرَت داخل الخزانة فوجدَت مجموعة رفوف وأدراج عليها أسماء، أبي، أمي، محمود، علا، عفاف،....

فأمسكتُ باب الخزانة وأغلقته بعنف فأصدر دويًّا عاليًا.

فتحتُ عينيّ فوجدتُ الدكتور سامي واقفًا أمامنا، نظر إلى نيرمين وقال:

-ماذا حدث؟

*لقد دخلتُ بالفعل، ولكنه فجأة دفعني للخارج مرة أخرى.

-هل سمح لكِ بالدخول أم أنكِ استطعت الدخول بنفسك؟

*أعتقد أنه لم يردني أن أدخل.

فسألتُ:

-هل هي ترى نفس التخيل الذي أراه؟

-لا بالطبع، هي ترى نفس الأحداث بخيالها هي، فربما ترى نفسك قائدًا ينظم جيشًا كبيرًا يحمي مدينة من جيش آخر يهاجمه، بينما ربما ترى هي طائرًا يحمي بيضته من ثعبان يحاول أن يأكلها، عمومًا هذه خطوة جيدة، أمامكم نصف ساعة حتى أنتهي من تحليل هذه الإشارات ثم يبدأ التدريب التالي.

نزعتُ الأقطاب وأشعلتُ سيجارة في توتر؛ فجاءت نيرمين مبتسمة:

-كيف حالك أيها المبتدئ.

-بخير، يبدو أنكِ قد صرتِ خبيرة هنا.

*لقد تعلمتُ الكثير وتطورَت قدراتي كثيرًا.

-لاحظت ذلك.

*ما أخبار عُلا؟

-هي بخير.

*توقعتُ أن أرى خاتمًا في إصبعك.

-قريبًا إن شاء الله.

أعطاني الدكتور سامي ورقة وقال:

-ستكتب هنا رسالة لي وتضعها في هذا الظرف وتعطيني إياه، وأريدك أن تضع نفس الرسالة في طريق نيرمين وهي تحاول التجول في عقلك، لا أريدها أن تدخل عقلك عنوة، افتح لها الباب، بعد التجربة سنرى إن كانت الرسالة وصلتها.

كتبتُ الرسالة وأعطيتها له، ثم جلستُ وساعدني في تركيب الأقطاب، وأغمضتُ عيني وبدأت أركز. الخزانة الحديدية صار لها قفلان كبيران، ها هي نيرمين تقترب، تعبث في الأقفال بعض الوقت ثم نظرت وقالت:

-حسنًا تفضل وافتح لي.

أشرت إلى الأقفال فدارت ببطء وانفتح الباب، فشعرتُ بتيار الهواء البارد فأغمضتُ عيني لثوانٍ، وعندما فتحتهما وجدتُ نيرمين تحاول فتح الأدراج بسرعة، ولكن الأدراج كلها كانت مغلقة، كانت تمسك بمقبض درج مكتوب عليه عُلا وتهزه بعنف.

ثم نظرَت لي بغيظ وتناولت المظروف الذي وضعته في مكان واضح وقرأته، ثم أغلقت الباب.

كان الدكتور سامي سعيدًا بالنتيجة جدًا.

وفي خلال الأيام التالية تكررَت التجارب، وتعلمتُ أن أترك رسائل بالصوت والصورة.

انتحى بي الدكتور سامي جانبًا قبل التجربة، وقال:

-أريدك هذه المرة ألا تترك لها رسالة واضحة، أريدكَ أن تجعلها تعتقد أنها انتزعتها منك رغمًا عنك.

مدت نيرمين يدها وفتحت باب الخزانة؛ فانفتح على الفور، صار تيار الهواء البارد نسمة خفيفة، الخزانة صارت أكبر، وبها أدراج أكثر، وصناديق مغلقة،

بحثّت نيرمين فلم تجد أي رسائل؛ فنظرت لي بدهشة فابتسمتُ وأعطيتها ظهري، فمدَّت يدها بسرعة نحو الدرج الذي عليه اسم عزّلا وأخذت تجرب مجموعة من المفاتيح كانت معها، حتى استجاب أخيرًا ففتحته في لهفة، اختفى المشهد على الفور وظهرت عزّلا واقفة في فناء الكلية مع بعض صديقاتها، ثم صدر صوت صافرة. و... هاني رمزي يمرّر الكرة في مكان خالٍ، حسام حسن واقف بعيدًا ينظر في اتجاه آخر في شرود، ثم فجأة ينطلق للمكان الذي ستذهب الكرة إليه، يجري المدافعون نحوه، لكنه يمررها لطارق مصطفى الخالي من الرقابة فيودعها المرمى.

"ما هذا؟"

الْتفَتَت نيرمين نحوي في غضب.

-خدعة الجوهري في نهائي كأس الأمم سنة ١٩٩٨.

*وماذا جاء بها هنا؟

-هذه هي الرسالة موضوع التجربة، كنتُ أعرف ما تبحثين عنه فوضعتها في طريقك، السؤال هنا لماذا تبحثين دائمًا في هذا المكان؟

*هذا من ضمن التدريب، المفروض أن أحاول الوصول لأكثر شيء تحاول إخفاءه.

-فقط؟

*ياسر، لماذا تحبها؟! ماذا وجدت فيها؟!

-كأنكِ تسألينني لماذا وُلدتُ، لا أدري، هذا قدري.

*****

نبهني محمود أن إدارة جامعة المنصورة انتقلّتْ من المبنى القديم، والذي كان فيلا عتيقة في شارع البحر إلى مبنى جديد داخل الحرم الجامعي، وأوصلني بسيارته حتى داخل الحرم الجامعي؛ حيث يملك تصريح الدخول

بسيارته نتيجة عمله في مركز الكمبيوتر داخل الجامعة، والذي لم أفهم منه طبيعة العمل فيه؛ لأن ذلك لم يكن موجودًا أيام وجودي بالجامعة.
الجامعة تبدو كما هي، ببوابتها العملاقة، حدائقها، مبانيها، ظهرت فقط بعض المباني الجديدة منها مبنى إدارة الجامعة، الشيء الذي اختلف كثيرًا هو الطلبة، أعدادهم، ملابسهم، كلامهم كأنني جئت من عصر آخر، هل تغيرَت طبيعة طالب الجامعة كل هذا التغيير في بضع سنوات فقط؟!
سألتُ على مكتبه ثم دخلت عليه، لم يتغير فيه شيء إلا فودَيه اللّذين خَطهما الشيب؛ فبدا أكثر شبهًا بأبي. كان يجلس أمامه طالبتان تستفسران عن شيء؛ فانتظرتُ انصرافهما.
محمد يكبرني بثلاث سنوات فقط، ولكني دائمًا كنت أشعر أنه أكبر من ذلك، دائمًا يلعب دور الأخ الأكبر ببراعة، يحميني من الأولاد في الشارع، أذهب إليه عند أي مشكلة في المدرسة فيأتي معي دون تردد ويحاول حل المشكلة حتى لا تصل لأبي، هو المسئول عن إرسال الأجهزة المنزلية للإصلاح، يصاحب أبي دائمًا أثناء الواجبات الاجتماعية من عزاء وزواج وخلافه. يقلد أبي في كلامه وقراءاته وميوله وملابسه.

بعد وفاة أبي توتّرَت علاقتي بعض الشيء مع محمد، ربما لأنني لم أنس أبدًا أنه كان يحمّلني مسئولية مرض أبي، لكن محمد أدّى دور أبي في المنزل على أكمل وجه، وهو دور تدرب عليه طويلًا، حتى بعد زواجه من العروس -التي اختارها له أبي- استمر على رعايته لنا، قبل أن يصعد إلى شقته يمر على أمي ويسألها عن حالها وعما فعلته واشترته اليوم، ويتركها تحكي له بالتفصيل أحداث يومها كما كانت تفعل مع أبي، لا ينام قبل أن يمر على عفاف ويسألها عن حال المذاكرة وإن كانت تحتاج لشيء، وكان يتصل بي بين الحين والآخر ليطمئن علي.

انصرفَت الفتاتان فجلستُ على المقعد أمام مكتبه؛ فقال وهو يسجل شيئًا في دفتر أمامه:

-خير؟ تفضل.

-أنا من طرف أخيك ياسر؟

فرفع رأسه وقال:

-يا أستاذ، هذا مكان عمل، وأنت ترى أنني مشغول، ولا وقت عندي للمهاترات والتحقيقات، عندما يعود ياسر سآتي معه إليكم؛ لتعرفوا أننا ليس لدينا ما نخفيه أو نخجل منه.

أغلقت باب المكتب، وقلت له:

-أنا ياسر أخوك.

*حسنًا، شكرًا على هذه المعلومة القيمة، تشرفت بمعرفتك، تستطيع الآن أن تنصرف.

لنصف ساعة حاولتُ أن أقنعه أنني ياسر، وأخذت أحكي له عن أسرار لا يعرفها سوانا وعن مواقف كثيرة أخرجني منها دون أن يعرف أبي، ولكنه في النهاية قال:

-وإذا كنت حقًّا ياسر لماذا لا تذهب إلى أولئك الذين قلَبْوا حياتنا جحيمًا وتقل لهم أنك هنا.

-لأنهم يطلبون مني ما لا أستطيع فعله.

*وماذا تريد الآن إذن؟

-أولًا أريدك أن تعرف أنني لم أرتكب شيئًا خاطئًا أو مشينًا.

*أنا أعرف أخي جيدًا، وأعرف أنه لا يمكن أن يرتكب ما يُشِين، ولا أحتاج إثباتًا لذلك.

-ثانيًا أريد أن أرى أمي.

وهنا هب واقفًا وتكلم بغضب لم أره فيه من قبل:
-اسمعني جيدًا... لقد فقدتُ أبي بسبب سلوك ياسر، وأنا غير مستعد نهائيًا لأنْ أفقد أمي بسببه، يكفي ما أصابها بعد غيابه، سواء كنت ياسر أو كنت من الجن الأزرق لن أسمح لك أو لغيرك أن تقترب من أمي، هل فهمت؟
محمد يريد أن يحافظ على الأمانة التي تركها والده، وما حدث في الفترة الأخيرة أشعره أنه فشل في المهمة التي أوكله بها أبوه والتي أعدّ نفسه لها، زوجة الأستاذ علي الجندي وأبناؤه يتم استدعائهم للتحقيق أكثر من مرة، وابن مختفٍ ولا يعرف أحد مكانه، خطيب عفاف يتركها لهذه الأسباب. كل هذا جعله على غير استعداد لأن يفتح عقله لأي نقاش.
خرجتُ من عنده ووقفتُ أمام بوابة الجامعة محاولًا إقناع أي سائق تاكسي ليحملني لموقف الزقازيق، ولكن رد فعل سائقي التاكسي أشعرني أن هناك شيئًا خطأ، كأن (موقف الزقازيق) صار تعبيرًا بذيئًا أو سَبّة، أو ربما صار الموقف نفسه موضعًا محرمًا أو ممنوع الاقتراب منه، ساعة كاملة وأنا أحاول، وكلما سمع السائق أين أريد أن أذهب حتى يفر هاربًا، أخيرًا وجدتُ سائقًا طيب القلب توقف وقال لي:
-ادخل.
ولكنه بعد أن جلستُ بجواره اشترط الحصول على مبلغ لم أسمع مثله أبدًا غير من سائقي التاكسي في القاهرة، وافقتُ مضطرًا، مزية أخرى فقدَتْها مدينتي الحبيبة، كنت دائمًا أفتخر أنك تستطيع بجنيهين فقط كحد أقصى أن تذهب لأي مكان في المنصورة.
من الموقف ركبتُ السيارة المتجهة إلى الزقازيق.
مزلقان سندوب، زحام السنبلاوين التي ابتلاها الله بآية التكاتك كما ابتلى آل فرعون بآيات الضفادع والقُمّل والجراد، سوق ديرب نجم وأخيرًا الزقازيق.

ركبتُ تاكسي حتى جامعة الزقازيق، رفض الأمن دخولي من البوابة، ولكني قضيتُ عامين في هذا المكان وأعرف كل مداخله ومخارجه، تسلّلتُ من باب آخر، دخلتُ كلية الهندسة وأخذت أسأل عن الدكتورة نيرمين، حتى وجدتها، طرقت الباب، لا رد، هل هي غير موجودة؟ طرقتُ الباب مرة أخرى. جاءني الرد قبل أن أدخل:

-ادخل يا ياسر.

كانت جالسة على مكتبها تكتب شيئًا على هاتفها المحمول، تبدو أكبر مما رأيتها آخر مرة بكثير لكأنها أكبر من سنها بعشر سنوات.

-لا تندهش أنت تعرف هذه الأشياء، إن هذه القدرات تستهلكنا.

*كيف عرفتِ أنني ياسر.

-ومن قال إنك ياسر، أنت فقط تظن نفسك ياسر.

*ماذا عن الدكتور خليفة واختبار الهندسة الوصفية والتدريبات في كهف الثعالب، و....

-دعك من هذا، أنا أرى فعلًا كل هذا في رأسك، وهذا أكبر دليل على أنك لست ياسر.

حقًا... كيف لم أشعر بها وهي تخترق عقلي، هل فقدتُ قدرتي أم أنني فعلًا لستُ ياسر، فإذا لم أكن ياسر فمن أكون؟

ردت عليّ نيرمين دون أن أسألها:

-هذا هو السؤال حقًا؛ إذا لم تكن ياسر فمن تكون؟

*مهلًا، لماذا عليّ أن أصدقك؟ ربما أنت جزء من الخدعة، بل مؤكد أنك جزء منها.

-ماذا عن قراءة أفكارك، هل كان ياسر سيسمح لي أن أقرأ أفكاره؟

ثم صمتَت مفكرة وقالت:

-هل من الممكن أن تكون فعلًا ياسر وسمحت لي أن أدخل عقلك حتى تخدعني؟

قلت مقاطعًا أفكارها:

-قلتِ لطارق صديقي أن لديك رسالة لي.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت:

-كنت أريد أن أقنع ياسر أن يعطيهم ما يريدون؛ لأنهم لن يتركوه، كان ذلك قبل أن يمسكوا به.

*وكيف عرفتِ أنهم أمسكوا به؟

نظرَت في عيني طويلًا، ثم قالت:

-يبدو أنك لا تذكر، عمومًا أنا لي أساليبي.

*هل جئتَ فقط من أجل ما قاله طارق؟

-أجل، ولكي أعرف ما حدث، لا بد أنك تعرفين الكثير، ماذا حدث لي؟

نظرَت لي طويلًا وقالت:

-لا أدري، قلبي يقول لي إنك ياسر، وعقلي يقول لي أنك لستَ هو، كل ما أراه داخلك يخص ياسر، ولكن عقل ياسر ليس مباحًا بهذا الشكل، عمومًا سنعرف قريبًا. ثم إن هناك طرد مغلق فلنحاول فتحه.

هنا شعرتُ بالأمر، هناك من جاء من أجلي، إنهم يقتربون، ماذا كانت تكتب نيرمين على هاتفها؟ لقد بلّغَت عني.

قفزتُ مسرعًا وفتحتُ الباب وجريتُ، على الدرج رأيتُ مجموعة رجال يصعدون بسرعة، جريتُ لنهاية الممر، هناك درج آخر، نزلتُ مسرعًا، وهم ينزلون خلفي، هناك آخرون في الأسفل، انطلقتُ أجري، واندسستُ وسط مجموعة من الطلبة، أشعر بهم من خلفي، أخذتُ أتنقل بسرعة داخل الجامعة منتقيًا أكثر الأماكن زحامًا. هناك مهمة أخرى لابد من إنهائها، عبرتُ

ساحة كلية العلوم، هناك باب صغير يقود إلى كلية الطب، ومنها عبرتُ إلى المستشفى الجامعي، سألتُ على الدكتور سامي، ولحسن الحظ كان في مكتبه.

دخلتُ عليه فهب واقفًا في دهشة. ثم قال في تردد مشيرًا إلى مقعد أمام مكتبه:

-تفضل يا.....

ولم يكمل، فقلتُ:

-دكتور سامي، أنا ياسر الجندي.

نظر في عيني دون أن يتكلم أو يبدو عليه دهشة ثم قال:

-أكمِل، أنا أسمعك.

فحكيتُ له ملخص ما حدث حتى لقائي مع نيرمين. ثم سألته عن رأيه.

*إذا استطاعَت نيرمين قراءة أفكارك فأنت بالتأكيد لست ياسر.

-ولكنها قالت أن كل ما قرأته كان يخص ياسر، هل من الممكن أن أكون ياسر ولكني فقدت موهبتي اللعينة؟

*هناك دراسة كان يجريها الدكتور إيهاب عز الدين عن جراحة لوقف القدرات الفائقة، ولكنها على حسب علمي توقفّت من بعده ولم تكتمِل، ثم ماذا عن جسدك، هل هذا جسد ياسر؟

-لابد أنك تعرف شيئًا عما حدث لي، لقد كنتَ تعمل معهم وتعرف كل أساليبهم.

*لقد تركتُ العمل معهم منذ ثلاثة أعوام، ولم أعد أعرف شيئًا عنهم. فقط أعرف أنهم لن يستطيعوا الإمساك بك قط، عليك فقط ألا تستسلم لهم.

-ماذا عن المقر الجديد لكهف الثعالب؟

*أنت تعرف أنهم يقومون بتغيير المقر باستمرار، حتى لو كنتُ أعرف شيئًا فلن أقوله لك، فهم سيعرفون حتمًا ولن يغفروا لي ذلك، هم لا يملكون أدنى قدر من الرحمة، وأنا ما زِلتُ تحت المراقبة.

هنا شعرت بأنهم يقتربون، هل توقعوا أنني سآتي هنا أم أن الدكتور سامي نبههم بطريقة ما، ربما هي نيرمين اللعينة قد قرأَت ذلك في عقلي، ترى ماذا قرأت أيضًا؟ لا يهم الآن.

وقفتُ بسرعة وفتحتُ الباب لأنصرف، وهنا لمحتُ صورة للدكتور سامي مع شخص آخر على الحائط فوقفتُ مبهوتًا.

-دكتور سامي، هل لي أن أعرف من هذا؟.

****

"سينتقل كهف الثعالب اليوم جهز نفسك"

قالها الدكتور سامي في بساطة، فقلت في دهشة:

-ماذا تعني؟

فضحك قائلًا:

-كهف الثعالب هو مركزنا هذا، ونحن ننتقل دوريًا إلى مقر جديد من باب الحفاظ على السرية وعدم لفت الأنظار، وغدًا تذهب مع مندوب لاستخراج جواز سفر.

جهزتُ حقيبتي وانتقلنا فعلًا لمقر جديد عليه لافتة قديمة...

(وزارة الثقافة... المركز الثقافي المجري.. جمعية الصداقة المصرية المجرية).

استمرت تدريباتنا وتطورت.

صارت المهام أكثر تعقيدًا.

رسائل ضمنية لا يلاحظ المقتحم أنكَ تركتَ له رسالة.

رسائل مشفرة.

تتخيل ذكريات غير موجودة، وعليك أن تُقنِع المقتحمَ أنك عشتها بالفعل وتجعله يعيشها، وكان هذا أصعب تدريب، وكنت أرى أني فشلت فيه حتى الآن، تخيل أنك تحتاج لرسم شخصيات وحوار وحركة وخلفية، هذا يحتاج لتركيز شديد وقدرة على التحكم رهيبة، كنت تخيلت أنني أمشي مع الدكتور سامي على كورنيش النيل بالمنصورة حين قابلنا جورج بوش الابن يبيع الترمس على الكورنيش، ولكن الأمر غاية في الصعوبة، إذا غفلتُ لحظة اختفى النيل، فجأة لا توجد سيارات على الطريق، حين تنتبه وتصلح موضوع السيارات، يتحول جورج بوش الابن إلى الأب، وتتحول عربة الترمس إلى عربة بطاطا، كيف أركز في كل هذه العناصر في وقت واحد هذا مستحيل، ولكن عندما وصفَت نيرمين ما حدث للدكتور سامي كان سعيدًا جدًا، وقال أنه أداء مبشر جدًا.

-ولكني لم أستطع السيطرة على الموجودات والخلفية.

*أولًا الذكريات الحقيقية أيضًا تبدو مشوشة في عقولنا، ثانيًا هذه تجربة فقط؛ لأن ابتكار ذكريات غير حقيقية علم صعب يحتاج إلى تعلم التحكم والإخراج والإضاءة والظلال والخلفيات وكوادر التصوير، بعد عشرة أيام إن شاء الله تبدأ المرحلة التالية من التدريب، لقد جهزنا أوراقك والفيزا وكل الأمور الخاصة بالرحلة للولايات المتحدة.

-ماذا؟! بعد عشرة أيام ولكني لم أستعد لذلك بعد.

*لا بأس، اليوم آخر تدريب لك، وبعدها أنت في أجازة حتى يوم السفر. التدريب الأخير...

كنت أجلس والأقطاب على رأسي، المطلوب أن تجدني نيرمين أفكر في أني جائع وأفكر ماذا آكل، وأفتح لها طريقًا إذا حاولَت قراءة أفكاري يقود إلى ذكريات الطفولة، ثم أترك لها رسالة ضمنية أنني أخشى الأماكن المظلمة.

كانت الأمور تمشي بشكل جيد، كنت ألعب الكرة في الشارع وتشاجرت مع أحد الأولاد، وتدخّل أخي محمد بينما الأستاذ أمين يصيح فينا أن نلعب بعيدًا حتى لا نكسر شيئًا، وفجأة وجدتُ نيرمين تجري إلى آخر الشارع وتتجه نحو كلية الآداب وتمد يدها نحو الدرج الذي عليه اسم علا، والذي وضعتُ عليه قفلًا كبيرًا، وأخرجت من جيبها -لا أدري كيف- أداة طويلة مثل التي يستخدمها اللصوص، أعتقد أن اسمها "طفاشة"، وبمهارة وحنكة استخدمتها لفتح الدرج بسرعة، وفجأة وجدتُ علا تقرأ قصيدتي في لقاءنا الأول، (هما فعلًا قصيدتان رائعتان، ولكن هذه هي الأروع في المعرض كله)، ثم أنا وعلا في معرض الكلية نتناقش حول قصيدة لها، أسماء تهمس في أذنها بشيء فيحمرّ وجه عُلا خجلًا، علا تضع القصيدة في حقيبتها "أعتقد أن هذه ليست للنشر".

جريتُ بسرعة نحو المكان الذي كان به الدرج لأقفله، ولكن نيرمين طوحت الآلة التي بيدها نحوي بقوة، شعرتُ بالدنيا تدور بي وشعرتُ بالدماء تغطي عينيّ، مسحت الدماء من على عيني وقمت مترنحًا.

أنا أقف في كابينة الهاتف وظِلّ عُلا يظهر من النافذة فأشير لها وأنصرف.

أنا جالس مع أبيها في المعرض.

حاولتُ أن أصل للدرج؛ ففوجئت أن نيرمين قد تحولت لوحش غاضب وزأرت في وجهي، ماذا يحدث؟! إنها في عقلي أنا، كيف استطاعَت السيطرة على الأمور بهذا الشكل؟!

وهنا رأيتُني واقفًا مع علا وأسماء، بينما تقترب مني نيرمين وتقول "ياسر، أخيرًا وجدتك، لقد افتقدتك كثيرًا".

هنا تركتُ الدرج والوحش الذي يحرسه وجريتُ نحو نيرمين الأخرى، وجذبتها من ذراعها وألقيتها أرضًا.

سقطَت على الأرض بقوة؛ فتأوّهَت وسط صراخ عُلا وأسماء، نظرَت نحوي وقالت:

-أنت فعلًا أحمق، كعهدي بك دائمًا.

أمسكتُ بذراعها مرة أخرى وألقيتُها خارج الخزانة؛ فاختفى الوحش وعُلا وأسماء والذكريات كلها.

-"هلا أخبرني أحدكما عما يحدث هنا".

قالها الدكتور سامي غاضبًا وهو ينظر لنا، بينما كنت أمسك جانب رأسي في ألم، بينما نيرمين ملقاة على الأرض وقد ارتفع صوت بكائها.

9
الرسائل المغلقة

اتصلتُ بوالدة علا، قلتُ لها أنني أريد أن أقابل والدَ عُلا مرة ثانية.

فلم ترد.

-سيدتي، أعتقد أن الأمر اختلف الآن، هو رفضني؛ لأنه كان يخشى ألا أستطيع أن أوفر لـ"عُلا" مستوى المعيشة الذي يريده لها، الآن أنا أعمل بوظيفة مرموقة في وزارة الخارجية براتب كبير، ولي مجموعة قصصية تحت الطبع، وتم نشر عدة مقالات لي في صحف عدة.

*الأمر يحتاج إلى صبر يا ياسر، زوجي رجل عنيد جدًا.

-ولكني سأسافر إلى الولايات المتحدة الأسبوع المقبل، وأريد أن أحسِم الأمر معه قبل أن أسافر.

صمتت قليلًا، ثم قالت:

-حسنًا يا ياسر، سأكلمه، غدًا أعطيك الرد.

في اليوم التالي اتصلت بي:

-عفوًا يا ياسر، دعْنا نؤجل الأمر حتى تعود بسلامة الله.

-لماذا؟!

*فقط هو يريد وقتًا ليفكر.

-حسنًا، فليقابلني وليفكر بعدها كما يشاء.

لم ترد عليّ، فسألت:

-هل رفض أن يقابلني؟

*ليس الأمر هكذا يا ياسر، الأمر أن أحد أصدقائه طلب عُلا لابنه وهو يقول أنه لا يصح أن يقابلك قبل أن يرد عليه.

-فليرد عليه الآن ثم يقابلني.

*هو... هو يعتقد أن عُلا ربما توافق عليه.

-فليسألها إذَن.

*هي رفضَت، ولكنه يظن أنه يستطيع إقناعها بالتدريج.

هنا أخذت عُلا الهاتف، وقالت:

-سافِر أنت يا ياسر بسلامة الله ودع الأمر لي.

-كنتُ أريد ألا أسافر إلا ونحن مرتبطَين.

*وهل لسنا كذلك؟

-أحبك.

*لاحِظ أن والدتِي تسمع.

-قولي لها أني أحبك، ولن أتركِكِ تضيعين مني قطّ.

*عُد سالمًا من أجلي.

-سأعود إن شاء الله من أجلك.

*ياسر، عِدني ألا تخاطر ولا تورط نفسك في شيء لا تثق به.

-لا تقلقي.

كنت أعرف أنها ستقلق وأنها محقة في قلقها، فأنا لم أكن أعرف إلى أين يقود الطريق الذي أمشي فيه، والأدهى من ذلك أن والدها لا يزال على عِندِه وتعنته. قضيت الأيام الباقية في وداع عائلتي وأصدقائي.

بكت أمي كثيرًا، ليس بسبب سفري، ولكنها تذكرَت أبي وقالت أنها كانت تتمنى أن يرى ما صرتُ إليه، وأنه كان يعرف دائمًا أنني سيكون لي مستقبل مشرق.

لم أستطع أن أقابل عُلا، ولكنني استأذنتُ والدتها أن تحلّني من وعدي وتسمح لي بالاتصال بها؛ فوافقت على مضض بعد ما رأته من إصرار عُلا ورفضها كل من تقدموا لها وتحمّلها غضب أبيها.

حسنًا هي خطوة للأمام، حتى نعود بإذن الله من بلاد العم سام.

****

وقفت السيارة أمام البوابة الضخمة والسور العالي فقال الدكتور سامي:

-أهلًا بك في كهف الثعالب الأمريكي.

-هل يسمونه هنا كذلك أيضًا؟

*هذا هو كهف الثعالب الرئيسي، لقد سمينا كهفنا تيمّنًا به.

فُتحت البوابة ودخل بنا السائق بعد التأكد من تصريحه.

قابلنا مدير المكان وهو -مما عرفتُ لاحقًا- قارئ أفكار مخضرم يدعى "هنري ماكجراث"، قرأ التقرير الذي أعطاه إياه الدكتور سامي ونظر لي بتمعن، شعرتُ بالطنين المعهود، ثم رأيته يتفحص الأقفال الثلاثة الضخمة على باب الخزانة دون أن يحاول فتحها.

-هذا يبدو جيدًا، لو كان هذا التقرير صحيحًا فأنت تملك قدرات رائعة، أنا أعرف نيرمين جيدًا هي مقتحمة جيدة، عامةً سنرى ذلك في الأيام القادمة.

بالفعل اكتشفتُ أن هذا هو كهف الثعالب الرئيسي. كأننا كنا نمزح في مصر، فمع فارق الإمكانيات هنا كل شيء منظّم بشكل مستفز.

مررتُ بنفس الخطوات؛ الكشف الطبي، فحوصات، اختبارات، ثم بعض التجارب لاختبار قدراتي، محاولات قراءة أفكار، محاولات اقتحام، اختبار رسائل صريحة وضمنية، بعدها تم استدعائي لمكتب المدير، وجدتُ الدكتور سامي في المكتب مع هنري ماكجراث، عندما دخلتُ قال الدكتور سامي:

-ها هو قد جاء بطلنا، أرجو أن تكونوا قد تأكدتُم من التقرير.

فرد ماكجراث:

-لقد اختبرتُه بنفسي، الفتى بالفعل رائع، إنه أقوى صندوق أسود قابلته حتى الآن.

-هل اختبرتم قدرته على ابتكار ذكريات زائفة؟

*هذه هي النقطة الأهم، الفتى خياله واسع كالمحيط، وبارع جدًا في رسم المواقف وتصويرها، لكنه يحتاج لبعض التدريب.

-هذا لأنه أديب أيضًا، لقد تم نشر مجموعة قصصية له بالفعل.

*حسنًا يا متعدد المواهب، لقد أعددنا لك برنامج تدريب خاص، وأحضرنا خبراء متخصصين من هوليوود خصيصًا من أجلك، لو صَدَق حدَسِي ستكون أهم لاعب في فريق الثعالب في خلال عام أو اثنين.

عاد الدكتور سامي إلى مصر، وبدأتُ أنا تدريباتي.

التدريب ينقسم إلى محاضرات في الإخراج والتصوير والإضاءة وكتابة السيناريو، بالإضافة إلى العلوم العسكرية واللغات والشفرات.

القسم الثاني كان التدريب على نقل الرسائل ومقاومة الاقتحام وطريقة خداع المقتحمين. (لا تستخدم خلفية لم ترها بعينيك؛ لأن التفاصيل الصغيرة ستكشفك، لو تخيّلتَ مشهدًا فوق سور الصين العظيم ورسمته جيدًا قد يكشفُكَ نوع الأشجار في الخلفية أو بائع متجول يبيع سلعة غير موجودة في الصين، أو زِيّ رجال الأمن، الأفضل أن تستخدم البيئة التي تستطيع الإلمام بتفاصيلها الصغيرة، ما يصنع الفرق عادةً هو التفاصيل الصغيرة)

(درجة الإضاءة قد تكون في حد ذاتها رسالة، زاوية الإضاءة، اتجاهها، هي ليست رتوش تضاف إلى الصورة، قد تكون هي الرسالة بينما بقية الصورة هي الرتوش) (لو كنت ستصوّر موقفًا أثناء مشاهدة مباراة، اجعلها مباراة كرة قدم، لا تستخدم لعبة لا تعرف قواعدها، هل تعرف عدد لاعبي

فريق الرجبي؟ هل تعرف قواعد البيسبول؟ هل تعرف شكل كرة الكريكيت؟ لا تحمّل نفسك صعوبات أكثر، فقط استخدم الأدوات التي اعتدتَها وتمكنتَ من استخدامها) (حاول دائمًا أن تضع بعضًا من الحقيقة في بنائك الزائف، هذا يعطيه مصداقية أكثر، استحضر موقفًا حقيقيًا وامزجه مع رسالتك الزائفة، فسيعطيها الموقف الحقيقي روحًا من الحقيقة ستغطّي على أي قصور أو عدم منطقية في رسالتك) (الظلال هي لعبتنا هنا، تستطيع أن تصور وجهًا لا تبدو عليه أية انفعالات، وعن طريق الظلال فقط واتجاه الإضاءة أن تجعله يبدو خائفًا أو غاضبًا أو حزينًا)

استمرت التدريبات لعدة أشهر، ثم استدعاني هنري ماكجراث في مكتبه في أحد الأيام.

*كيف حال التدريبات أيها الصندوق الأسود؟

-بخير يا سيدي، ولكنها تبدو بلا نهاية.

فضحك وقال:

-يبدو أنكَ مللتَ من التدريب، ولكنكَ محق، فعلاً التدريبات ليس لها نهاية، كل يوم هناك جديد، ولو توقفتَ عند حد معين سيسبقُك الآخرون حتمًا، ونحن في مجال لا يرحم، لو تأخرتَ خطوة واحدة عن خصمك تفقد كل شيء. هل تود البدء في العمل؟

-أتمنى ذلك.

*حسنًا، ستبدأ من الأسبوع القادم تدريبك العملي، أي أننا سنوكل إليك مهام خارجية، ولكن بالتوازي مع هذا ستبدأ المرحلة الثانية من التدريب.

-المرحلة الثانية؟! هل كل هذا كان المرحلة الأولى؟!

ضحك طويلًا ثم قال:

-هذه هي عجلة الشباب، صبرًا يا بني، ما نقوم به هو عمل دقيق وخطير ولا يحتمل الخطأ فلا تتعجل.

-وما هي المرحلة الثانية؟

*هي مرحلة الرسائل المغلقة أو رسائل إيهاب.

-رسائل ماذا؟

*إنه اسم عربي، لصديقي العبقري الذي ابتكر هذا النوع من الرسائل، لقد كان من موطنك أيضًا، وسأقوم أنا بتدريبك في هذه المرحلة.

****

مستشفى الزقازيق الجامعي دائمًا مزدحم، مما سمح لي أن أتسلل وسط المرضى والمراجعين والعاملين، كنت أشعر بالمطاردين يقتربون، دخلتُ من الباب الصغير الذي يقود إلى كلية الطب، ومنها انطلقتُ داخل الجامعة، أشعر بهم خلفي، أخذت أخرج من مبنىً لأدخل في آخر حتى أشتّتهم، أستطيع أن أذهب مشيًا إلى موقف المنصورة من الشوارع الخلفية، هذا يستغرق فقط عشرين دقيقة، ولكن هذا يتطلب الخروج من باب كلية الطب وهي الجهة التي فررتُ منها، إذَن فلأركب تاكسي إلى موقف المنصورة، ابتعدتُ عن البوابة الرئيسية وخرجتُ من باب فرعي في آخر الجامعة بجوار مستشفى الأطفال.

لم أشعر بوجود من يراقبني في الموقف.

لكنهم كانوا ينتظرونني في المنصورة، حين دخلتُ لسيارة سندوب شعرتُ بوجودهم، طلبتُ من السائق أن ينزلني، سندوب مدينة صغيرة ملاصقة للمنصورة تعتبر المدخل الشرقي للمنصورة، يتجمع فيها القادمون

من القاهرة مع القادمين من الزقازيق وكل ما هو شرق الدلتا لتتكون كتلة زحام بشرية هائلة، ومع وجود مزلقان القطار يتعطل المرور فيزيد الزحام، قفزتُ في سيارة ميكروباص ذاهبة لحي الجامعة. ولكنهم استمروا في مطاردتي ولم يفقدوا أثري، أين أذهب الآن؟! لابد أنهم يراقبون منزل محمود، كلما توقفَت السيارة لنزول أو صعود راكب أفكر في النزول، ولكني أشعر بهم مرة أخرى. كيف أشعر بهم؟ لا أدري؟ فقط أشعر بهم.

نزلتُ أمام نادي جزيرة الورد وعبرت الطريق بخطوات واسعة حتى شارع البحر، أشعر بهم ورائي، لابد أن أجعلهم يتخلون عن سياراتهم ويطاردونني على أقدامهم، حينئذٍ آخذهم إلى ملعبي.

انحرفتُ يمينًا في شارع محمد فتحي، هذا الشارع أعتبره شارعًا أسطوريًا سحريًا جاء من عالم هاري بوتر؛ فما أن تدخله حتى لا يلبث أن يتلوى بك يمينًا ويسارًا ويتقاطع مع عدة شوارع ويضيق ويتسع، وفي النهاية تجد نفسك في مكان غير متوقع، أحيانًا تجد نفسك في ميدان الشيخ حسانين أو في شارع الجلاء أو ميدان الطميهي، بل وأحيانًا تجد نفسك في شارع البحر مرة أخرى.

من فرط إعجابي بهذا الشارع المسحور أحضّر لي محمود يومًا خريطة طبعها من خلال برنامج جوجل إيرث -حينما كان هذا البرنامج شيئًا أسطوريًا-؛ ليوضح لي أنه شارع عادي، ولكنه متعرج وبه الكثير من التقاطعات، ولكني لم أقتنع أبدًا، ولا زِلتُ أتوه فيه ولا أستطيع التنبؤ أبدًا بمكان خروجي منه.

بالفعل فوجئت بنفسي في ميدان الطميهي، ولم أعد أشعر بمطاردتهم، ربما هم الآن في نيكاراجوا أو أوزباكستان، هذه نهاية من يلهو مع شارع محمد فتحي.

مشيتُ في أكثر الأماكن ازدحامًا حتى وصلتُ لميدان محطة القطار وتوجهت نحو مبنى عتيق عليه لافتة صغيرة باهتة.

-هناك غرفة محجوزة باسم محمد جمال؟

ناولني العجوز الجالس المفتاح في صمت. هنا تكمن أهمية الساعات والليالي التي قضاها محمود في متابعة أفلام هوليوود، لقد توقع أنهم سيصلون إليه فأعد خط دفاع ثانٍ، واستأجر هذه الغرفة في هذا الفندق العتيق الذي لم ألحظ وجوده أبدًا، واتفقنا أن نلتقي هنا إذا حدث شيء، تُرى متى يلاحظ تأخري ويأتي لي هنا؟

ألقيتُ جسدي على الفراش وأخذتُ أسترجع أحداث هذا اليوم الحافل، لقد تعقدَت كل الخيوط، لم أعد أدري ماذا أفعل؟ وما فائدة ما أفعله؟ ما الشيء الذي يريدونه مني؟ ولماذا يحاربون من أجله بهذه الطريقة؟ المشكلة أنني لا أذكر هذا الشيء الذي يريدون معرفته، كل ما أذكره أنني أرفض إعطاءهم إياه مهما كان الثمن، بالفعل بدأتُ أتذكر الكثير من الأشياء، ولكن لا تزال هناك الكثير من الفجوات.

بعد عدة ساعات جاء محمود:

-نجحَت الخطة، هل رأيتَ أهمية هوليوود؟

-اجلس وقل لي ماذا حدث معك؟

قال:

-استدعوني للتحقيق وسألوني عنك؛ فقلت أن شخصًا مجنونًا جاءني يدّعي أنه ياسر الجندي، وكلما طردته عاد لي مرة أخرى؛ فقالوا لي أن أبلغهم فورًا لو رأيته.

-وماذا بعد؟

*طبعًا هم يراقبوني، عدتُ لعملي، وبعد العمل ذهبتُ لصديق يملك مركز كمبيوتر في شارع مزدحم، أوقفتُ السيارة أمام المركز وتركتُ الهاتف المحمول بها ودخلت المركز، ثم خرجتُ من الباب الخلفي وركبتُ تاكسي حتى

السكة الجديدة، ثم ذُبتُ في الزحام حتى جئت هنا، وأنت كيف عرفت أنهم يراقبون منزلي؟

-توقعتُ ذلك؛ فهم طاردوني من الزقازيق حتى هنا؟

*كيف هذا؟ هل قلت لسامح أنك ستذهب للزقازيق؟

-وما دخل سامح في الأمر؟!

*سامح هو من أبلغهم، سأشرح لك؛ جاءني سامح في العمل وقال لي أنه ذهب لأخيه في بورسعيد لاستقصاء أمر محمد جمال، فوجد أنه مختفٍ من قبل الثورة، وأنه تم القبض عليه من منزله في ظروف غامضة، وتقدم أهله بعدة بلاغات ولكنهم لم يعرفوا مكانه، المهم في الأمر أن سامحًا يؤكد أن صورته الموجودة في الأوراق ليستْ صورتك، هناك شبه بسيط خاصة مع وجود الشارب السخيف ولكنه ليس أنت، أنت تعرف دقة سامح في هذه الأمور؛ فهو الوحيد -على حد قوله- الذي يستطيع التفرقة بين حسام وإبراهيم حسن.

-إذن هناك شخص بالفعل يحمل اسم محمد جمال عطية، ولكنه لا يحمل هذا الوجه، إذن لمن هذا الوجه الذي أحمله؟

*المهم أن سامح قرر أن يبلغ الشرطة بما حدث؛ لأنهم أكدوا عليه سابقًا أن يبلغهم إذا عرف شيئًا عنك، وقال لي أني لابد أن أفعل مثله حتى نحمي أنفسنا.

هنا قفزَت إلى ذهني فورًا جملة سمعتها من سنوات طويلة (يفضّل ألا تخبر أحدًا يا بني؛ لأن المعرفة مسئولية، وليس كل الناس على قدر تلك المسئولية، على أية حال أعتقد أنه يمكنك أن تخبر محمودًا، محمودًا فقط، هل فهمت؟)

المعنى واضح، لم يكن هناك إلا ثلاثتنا، فمعنى أن يقول لي الشيخ صابر محمود فقط أي أنه لا يريدني أن أخبر سامح، هل قرأ في عقله وقتها شيئًا؟

*سامح معذور يا ياسر؛ هو يخشى على نفسه وعلى أولاده وعلى تجارته.

-لا بأس، هاتِ ما عندك، ماذا فعلتَ في موضوع عفاف؟

*بعد أن قضَت عدة سنوات في المستشفى الجامعي اكتشفوا أن القسم ليس في حاجة لها، وهي الآن تعمل في مستشفى طلخا العام، وفي الفترة الحالية تغطّي العيادة الخاصة بالأستاذ المشرف على رسالة الماجستير الخاصة بها، والذي يقضي أجازته بالخارج. لقد كتبتُ لك عنوان العيادة ومواعيد العمل في هذه الورقة، ماذا عن رحلتك إلى الزقازيق؟

حكيتُ له ما حدث؛ فعقد حاجبيه وجلس يفكر:

-إذَن هناك خيانة أخرى؛ نيرمين أيضًا أبلغتهم، كلما تقدمنا خطوة ازدادت الأمور تعقيدًا، إذا كانت نيرمين تستطيع قراءة أفكارك إذَن فأنت لستَ ياسر، أو ربما أنت ياسر ولكنك فقدتَ قدرتك على مقاومة اقتحامها لعقلك، وماذا يقصد الدكتور سامي أنهم لن يستطيعوا الإمساك بك؟

أخرج محمود ورقة وقلمًا من جيبه وبدأ يكتب وهو يفكر كعادته:

-أولًا قل لي ما معنى أنك شعرتَ بأنهم يراقبونك، هل رأيتهم مثلًا؟ أم سمعت شيئًا؟ أم هي الحاسة السادسة كما يسمونها؟

-حقًا لستُ أدري، لم أسمع ولم أرَ شيئًا، فقط يأتيني شعور مؤكد أن هناك من يراقبني وأستطيع تحديد عددهم ومدى قربهم، ولكني لم أرهم، وعندما كنتُ في مكتب نيرمين شعرتُ أنهم قادمون من أجلي، وعندما خرجتُ وجدت بالفعل ثلاثة رجال يصعدون الدرج بسرعة، وعندما ركضتُ نحو الدرج الآخر ركضوا خلفي، إذن هو شعور حقيقي وليس وهمًا.

*وهل كانت هذه الموهبة موجودة عندك من قبل؟

-لا، لم أشعر بها من قبل.

فكر قليلًا ثم قال:

-هنا يأتي كلام الدكتور سامي، يبدو من كلامك أنه يعرف شيئًا ويخشى أن يتكلم، لقد عرفَك عندما دخلتَ عليه، أقصد عرف هذا الوجه، ثم إن قوله إنهم لن يستطيعوا الإمساك بك يعني أنه يعرف أمر موهبتك الجديدة.

ثالثًا: لو أضفنا على ذلك قدرة نيرمين على دخول عقلك لوصلنا إلى نتيجة مهمة.

-النتيجة طبعًا أنني لستُ ياسر وأن سامح كان محقًا.

*ليس بالضبط، أنت ياسر ولكنكَ تسكن جسدَ شخص يملك موهبة مختلفة ويعرفه الدكتور سامي جيدًا، وربما يكون واحدًا من فريق الثعالب كما أسميتهم.

وقفتُ أمام المرآة ووضعتُ إصبعي تحت أنفي؛ لأخفي به شاربي وتأملتُ صورتي قليلًا.

-محمود، أنت فعلًا عبقري.

****

"الرسائل المغلقة هي رسائل لا يستطيع أحد فتحها إلا عن طريق مفتاح، هذا المفتاح قد يكون كلمة سر، صورة، صوت، جملة، عندما يعثر الشخص على المفتاح فجأة ينطلق السهم من عقاله وتفصح الرسالة المغلقة عن محتواها"

انطلق السهم من عقاله على الفور عندما قال "هنري ماكجراث" تعريف الرسالة المغلقة في بداية تدريبنا، وتذكرتُ ذكرى قديمة...

(-أي أنني لن أراك بعد اليوم؟

"بالنسبة للشيخ صابر أجل، بالنسبة لي من يدري، ولكني سأترك لك مفتاحًا إن أردت أن تجدني")

فجأة قفز إلى ذهني عنوان بريد إلكتروني، سجلته على الفور في ورقة فنظر لي ماكجراث متسائلًا فاعتذرت له وطلبت منه أن يكمل.

فأكمل:

-"تخيل أن تضع رسالة في عقل شخص دون أن يعرف، وتربط فتحها بتوقيت معين أو بشرط تعرضه لموقف معين أو سماعه لكلمة معينة، لو كان هناك جائزة نوبل في مجالنا لحصل عليها بالتأكيد إيهاب عز الدين عن اختراعه الرسائل المغلقة، لذا سميت باسمه. ولم يكتف بهذا، بل هو أيضًا أول من استخدم الرسالة المحكمة. والرسائل المحكمة أكثر تعقيدًا، تخيل معي رسالة مغلقة نضعها في عقل وسيط لا يدري شيئًا عن محتواها، فيأتي قارئ أفكار مقتحم لديه المفتاح فيفتح الرسالة ليجد داخلها رسالة مغلقة أخرى يحملها معه ليفتحها لاحقًا خارج عقل الوسيط، إذَن الرسالة انتقلت دون أن يعرف الوسيط محتواها، هذا هو موضوع تدريبنا في الأشهر القادمة."

بعد التدريب أرسلتُ رسالة على البريد الإلكتروني الذي تذكرته فجأة مع كلام ماكجراث عن الرسائل المغلقة، وبعد يومين جاءني رد الشيخ صابر يسألني إن كنت في بيت الثعالب.

-كيف عرفت ذلك؟

*المفتاح الذي وضعته لرسالتي لم تكن لتجده إلا هناك.

نصحَني أن أنتبه لنفسي وألتزم الحذر، وأن أتواصل معه إن احتجتُ شيئًا.

-شيخ صابر، هل كنت هنا في بيت الثعالب؟

*طبعًا يا بني، للأسف كنت هناك.

***

في خلال التدريب بدأت المهام كما قال ماكجراث، المهام كانت نقل رسائل إلى أماكن مختلفة داخل الولايات المتحدة، أسمح لمقتحم بالدخول لعقلي يضع بداخل الخزانة صندوقًا مغلقًا ثم يخرج، وعند الوصول لمكان اللقاء يأتيني قارئ أفكار آخر فأسمح له بالدخول يخرج مفتاحًا يفتح به الصندوق فتظهر الرسالة، أعتقد أن بعضها -إن لم يكن معظمها- كان تدريبًا أكثر منه مهمة، ظلَلتُ أتنقل بين مطارات الولايات المتحدة وكندا ناقلًا رسائل من هنا وهناك. ودائمًا ما كنت أشعر بمن يحاول الدخول إلى عقلي في المطارات بالذات، وكان عليّ المراوغة بتصوير ذكريات زائفة والتفكير في شيء بعيدًا عن الرسائل التي أحملها.

أحيانًا كان قارئ الأفكار يفتح الصندوق ليجد فيه صندوقًا آخر فيحمله ويخرج به دون أن أعرف محتوى الرسالة.

(إياك والنوم أثناء الطريق، عقلك أثناء النوم يكون ضعيفًا وتفقد قدرتك على المراوغة والتخفي، أعرف أنك صندوق أسود منيع ولن يستطيع أحدٌ اختراق عقلك حتى وأنت نائم، ولكنهم سيكشفون حقيقتك)

(أنت مهندس بترول مصري حضرتَ إلى نيويورك لدورة تدريبية لمدة شهر، متزوج ولديك بنتان وأنت ذاهب لزيارة ابن خالك الذي يقيم في يوتاه، هذا ما سيقرأه المقتحمون في عقلك، الرسالة مغلقة تُسَلّمها في يوتاه)

(الرسالة المغلقة لابد أن تكون مختفية، فلو وجدها المقتحم وتعرّف عليها فقد كُشِف أمرك، وإن لم يستطع معرفة محتواها)

(ستذهب إلى فلوريدا، مهمتك تسليم رسالة محكمة، أنت شخص مضطرب نفسيًا، تعرضتَ للتعذيب في مصر بسبب آراء معارضة لحكومتكم، تبحث عن وظيفة ولديك مقابلة عمل في فلوريدا)

تكررَت المهام وتدرجّت صعوبتها، وفي خلال هذا العام، صدرَت لي روايتين وديوان شعر، أصبح لي عمودٌ أسبوعيّ في جريدة شهيرة، اتصل بي الدكتور سليمان -الذي كان يتصل بي دوريًا متابعًا تطور التدريبات- يبلغني أنه تم حجز شقة لي ضمن شقق تابعة لوزارة الخارجية في مجمع سكني راقٍ بمقدم بسيط وقسط شهري يخصم من راتبي. كل ما أحتاجه أطلبه من الدكتور سليمان، وحتى دون أن أطلب أحيانًا.

تم ترقية محمد ونقله لإدارة الجامعة بعد أن كان يعمل في كلية الحاسبات والمعلومات، عفاف تم تعيينها بقسم الأمراض النفسية التي كانت تريده بعد أن تم رفضها لصالح ابن أحد الأساتذة.

عُلا برغم أنها كانت الأولى على الدفعة لم يتم تعيينها بحجة عدم احتياج القسم، وعندما ألحَحْتُ عليها أن تقدم أوراقها في العام التالي تم قبولها.

-"سيدي، ألا توجد مهمة في الشرق الأوسط؟"

ضحك ماكجراث وقال:

-أنت تريد أجازة أيها الصندوق الأسود؟ حسنًا أنت تستحق هذا، سنرسلك في مهمة تذهب بعدها في أجازة لمصر.

10
بيست

سيدي، هل لي أن أسأل عن فائدة كل هذه التعقيدات، تدريبات، رسائل مغلقة، رسائل محكمة، كل هذا من أجل نقل رسائل سرية؟! أعتقد أن هناك أكثر من وسيلة لنقل الرسائل السرية بأمان؛ شفرات، حقائب دبلوماسية، وسائل اتصالات مؤمنة.

صمت هنري ماكجراث قليلًا، ثم قال:

-كل هذه الوسائل معرضة للاختراق، ثم إن هنالك حالات خاصة لا تصلح فيها الوسائل التقليدية، هناك رسائل غير مسموح أبدًا بتسجيلها على الورق أو على أي شيء؛ لأنها رسائل غير رسمية، بالتالي تحتاج إلى وسيلة خاصة لنقلها، هناك مثال آخر عندما تريد أن توصّل رسالة لشخص بعينه وسط مجموعة دون أن يشعر الآخرون مثل فرد معين في حكومة مثلًا، أو توصيل رسالة إلى عميل سري لنا في مكان آخر.

-هذا مفهوم لو كان المطلوب مني الحفاظ على سرية الرسالة وتسليمها لشخص بعينه، ولكني أحمل رسائل مغلقة، لا أعرف محتواها؛ بالتالي لا أستطيع تسليمها للشخص المقصود إلا عندما أقابل قارئ الأفكار الذي يملك المفتاح، وأحيانًا تكون رسالة محكمة فأسلّمها له ولا أعرف محتواها، فهل كل الرسائل موجهة لقارئي الأفكار؟

*هناك بالطبع رسائل يكون المصب فيها هو قارئ أفكار، لكن معظم الرسائل يكون قارئ الأفكار المستلم هو حلقة وصل فقط لتسليم الرسالة.

-وماذا يمنع عندئذٍ أن يقطع طريقه مقتحم آخر ويكشف الرسالة؟

فابتسم وقال:

-هذا هو عملنا أيها الصندوق الأسود، أن نعرف الجزء الخطر من الطريق فنستعين بك لتمر بالرسالة حتى بر الأمان، وحين نتأكد أن الأمور تحت سيطرتنا يأتيك من يتسلم الرسالة وتنتهي مهمتك، ليكون عليه هو إكمال المهمة.

-وهل لي أن أعرف شيئًا عن محتوى الرسائل المحكمة التي أنقلها؟

فعبس قائلًا:

-بالطبع لا، هذه أمور غاية في السرية كما قلتُ لك، أنت تعمل مع مخابرات بلدك والمخابرات المركزية الأمريكية، لابد أن تثق ثقة مطلقة أنك في الجانب الصحيح، والآن دعنا من هذا ولنبدأ الاستعداد لمهمتك القادمة في العراق.

اتصلتُ بـ"عُلا" وبشّرتها أني عائد إلى مصر في أجازة بعد عدة أيام؛ فوعدَت أن تمهد للأمر مع أبيها، فسافرت إلى العراق وأنا أحلم أن تحل عقدتنا قبل عودتي للولايات المتحدة.

قضيتُ يومين في العراق أتنقل بين السفارة المصرية والأمريكية ومؤسسات تابعة للأمم المتحدة بغرض إعداد تقرير وهمي عن متضرري الأحداث الإرهابية ودور منظمات الإغاثة الدولية، لم أرَ شيئًا مما تعرضه علينا القنوات الإخبارية من دمار وبيوت مهدمة وانفجارات، ولما سألت قيل لي أن ذلك لأنني داخل المنطقة الخضراء، وأن الأمر خارجها يختلف تمامًا.

تعرضتُ لمحاولتَي اختراق؛ واحدة في مطار بغداد، والثانية في مؤسسة تابعة للأمم المتحدة.

في اليوم الثالث قابلتّه، لم أرَ وجهه ولكني شعرتُ به، كنا في محاضرة عن جهود الأمم المتحدة في أعمال الإغاثة بالعراق حين شعرت به.

في البداية اعتقدت أنها محاولة اختراق أخرى.

كنا نجلس في حصة اللغة العربية والأستاذ عطية يتجول بين الصفوف حاملًا عصاه الغليظة ويتكلم عن (بدل الجزء من الكل)... أنا ومحمود نجلس في المقعد قبل الأخير كالعادة حتى نكون بعيدين عن مرمى أسئلة المدرسين التي تنال من الصفوف الأولى، وفي ذات الوقت نبتعد عن انطباع الصف الأخير الذي دائمًا ما يجلس فيه مثيرو الشغب والطلاب الفاشلون.

رأيته يدخل الفصل، اتجه نحو السبورة، صاح فيه الأستاذ عطية وسأله من هو وماذا يريد؟ ولكنه لم يرد. أمسك قطعة من الطبشور، كان عنوان الدرس مكتوب على السبورة (أنواع البدل) فكتب تحتها "مارتينا نفراتيلوفا"

توقفَت يد الأستاذ عطية التي تحمل العصا الغليظة التي كانت على بعد سنتيمترات من مؤخرة قارئ الأفكار مع انطلاق السهم بعد كتابته اسم لاعبة التنس المعتزلة، والتي كانت هي المفتاح أو كلمة السر، اختفى الأستاذ عطية والفصل كله، وظهرَت خزانة صغيرة ضغط هو أرقامها في سرعة ثم فتحها؛ فوجد فيها صندوقًا صغيرًا فحمله بحرص ثم اختفى.

انتهى دَوري بنجاح، أستطيع الآن أن أعود إلى مصر.

اتصلت بـ"عُلا" لأبشرها فكانت الصدمة:

-ماذا حدث، هل لازال يرفض أن يقابلني؟

*ليس بالضبط يا "ياسر"، ولكن أبي مريض جدًا منذ يومين.

-ماذا حدث له؟!

*الطبيب يقول أن ضغطه مرتفع جدًا وأن ذلك يضعف قلبه.

-عافاه الله، إذَن ننتظر حتى تستقر حالته ثم أقابله بعدها إن شاء الله.

*المشكلة ليست في مرضه، ولكن في سببه، فارتفاع ضغطه هذا كان بسببي، والطبيب حذّر أنَّ تعرُّضه للانفعال قد يصيبه بجلطة في القلب لا قدر الله.

-هل أفهم من هذا أن ما حدث كان بسبب موضوعنا؟

*عندما أخبرتُ أبي أنك تريد أن تقابله غضبَ جدًا، وقال أن هناك من طلب يدي منه الأسبوع الماضي، المشكلة أن والده رجل ذو منصب كبير في وزارة الداخلية، وأبي قد قرر منذ عدة أشهر أن يترشح لعضوية مجلس الشعب، ومن يومها وهو يصرف مبالغ هائلة بهدف التقرب من قيادات الحزب الوطني والداخلية، فعندما قلت له أنني غير موافقة وأنك قادم بعد عدة أيام ثار بشدة وأخذ يهدد ثم سقط مغشيًا عليه.

-وماذا بعد؟

*أنا آسفة يا ياسر، ولكن دعنا نؤجل الأمر مرة أخرى وأنا سأتولى الأمر، أنا فقط لا أريد أن أكون سببًا في مرض والدي.

لم أعرف ماذا أقول، هذا الرجل الخبيث يقف دائمًا في طريق سعادتي، لا أستبعد أبدًا أن يكون رفّعَ ضغطَه عمدًا حتى يفسد خططي، وربما أصاب نفسه بجلطة خصيصًا كي يغيظني، هذا إن لم يكن سليمًا كالحصان واتفق مع الطبيب على هذه الخدعة.

*ياسر، مرة أخرى أنا آسفة.

-لا بأس، وأنا لا زلتُ على وعدي لكِ أن أحدًا لن يستطيع التفريق بيننا، حتى ولو كان مرشحًا لعضوية البرلمان.

*****

استطاع والد علا وبمنتهى الكفاءة وباستخدام بضعة سنتيمترات فقط من عمود الزئبق في جهاز الضغط أن يفسد كل خططي للأجازة، لولا الكروموسومات الثلاثة والعشرين خاصته الموجودة في خلايا عٌلا لكنت كرهت هذا الرجل بمنتهى الأريحية.

ذهبتُ على الفور إلى كلية الآداب دون موعد ولا تخطيط، أخذتُ أبحث عنها حتى وجدتها في أحد المدرجات الصغيرة تشرح لمجموعة من الطلبة، كانت تكتب شيئًا على السبورة وهي تتكلم؛ فتسللتُ وجلستُ في الصف الأخير، توقفّتْ عن الكتابة والْتفَتّتْ وأخذَتْ تتفحص في وجوه الطلبة؛ فاختبأتُ خلف طالب طويل القامة، أكملّتْ كلامها عن السجال بين جرير والفرزدق وكيف تبارى كل منهما في هجاء الآخر، كم أحسد هؤلاء الطلبة سعداء الحظ، يرونها ويسمعون صوتها ويقرأون خطها الدقيق المنمق، بينما أقضي أنا وقتي مع هنري ماكجراث بصوته الأجش ورائحة سيجاره الشنيعة.

التَقّتْ عيوننا أثناء قيامها بالشرح؛ فتوقفّتْ عن الكلام، بل توقف الزمن نفسه، توقفَت الأرض عن الدوران، وقرر القمر أن يرتاح قليلًا قبل أن يكمل مساره، توقفت الأنهار عن الجريان، توقفّت الإلكترونات عن الدوران حول النواة، الوحيد الذي لم يتوقف هو قلبي الذي أخذ يتقافز في جنون ووصلت سرعة ضرباته لأرقام فلكية.

كانت تنظر نحوي في دهشة، هممتُ أن أقترب منها فارتطمت ركبتي بالمدرج، وفجأة رأيتُ عشرات العيون تحملق فينا وعشرات الشفاه تبتسم في خبَث، اكتشفتُ فجأة أننا في مدرج مليء بالطلبة، أشرتُ لها معتذرًا وخرجت من المدرج لأنتظرها بالخارج وسط همهمات الطلبة وابتساماتهم.

وقفتُ أمام المدرج أستمع لصوتها المرتبك، تحاول أن تكمل ما كانت تقوله وبعد عدة دقائق قالت لهم أنها ستكتفي بهذا القدر اليوم على أن تكمل لهم في المحاضرة القادمة.

خرجَت من المدرج ووقفت أمامي، نظرتُ في عينيها، كأنني أراها لأول مرة، هكذا هي أميرتي دائمًا، كلما رأيتها وقعت في غرامها من جديد، دائمًا تفاجئني أنها أجمل وأرَقّ مِن كل صورها العالقة في ذاكرتي.

تمنيتُ وقتها لو أن لي جناحين كبيرين فأحيطها بهما وأضمها إليّ بقوة حتى تختلط خلايانا؛ فلا يستطيع أحد أن يفرقنا مرة أخرى.

-أحبكِ.

احمرّ وجهها وتلفتّت حولها في خجل، حيث كان بعض الطلبة يراقبوننا من بعيد.

*واحد.

ابتسمتُ عندما استخدمت شفرتنا القديمة، كم اشتقتُ إليها، لكلامها، لشفرتنا، لابتسامتها، لعينيها.

-أعتذر عما سببته من إحراج وسط الطلبة، ولكني لم أستطع الانتظار ولم أعرف أين مكتبك.

فابتسمت وقالت:

-مكتبي؟ ليس لدي مكتب، أنا فقط معيدة جديدة غير مرحّب بها في القسم، عمومًا لا بأس، الحمد لله على سلامتك.

لم أستطع أن أضمها بجناحيّ للأسف، كل ما استطعتُ فعله أن مددت يدي لأسلم عليها، وحين تلامسَت يدانا اختفَت الموجودات من حولنا، لا مدرجات، لا طلبة، لا أرض، لا سماء.

فقط أنا وهي.

أخذنا نتكلم لمدة ساعتين، لم نتطرق إلى موضوع أبيها وارتباطنا، ساعتان في الجنة كانتا كل حصيلة أجازتي، وعندما رن جرس هاتفها قالت أنها مضطرة إلى الانصراف حتى لا تقلق والدتها.

*متى ستسافر؟

-لست أدري، هم من يقررون ذلك.

*ومتى تعود مرة أخرى؟

-لست أدري. تعرفين أني أفعل كل ذلك من أجلك.

*فقط من أجلي انتبه لنفسك ولا تخاطر، وعُد لي سالمًا.

وداع سريع، ابتسمَت لي وهي في التاكسي وانصرفت ساحبة معها الضوء والدفء والربيع والسعادة والحياة، كأنها كانت السبب في كل ذلك، نظرت للسيارة التي تحمل حلمي وتبتعد مخلّفة برودة تعتصر صدري اعتصارًا، إلام يجب عليّ أن أرى قلبي يبتعد عني وأقف مكتوف الأيدي، إلام أرى جنتي بعيني ولا أستطيع الاقتراب منها.

بخلاف هاتين الساعتين كان ظل ما حدث من والدها يخيم على باقي الأحداث مخلفًا مرارةً لم يستطع أي شيء تغييرها.

والدتي طبعًا كانت جهزت قائمة بالفتيات اللائي رشحتهن لي، ولم تملّ من ملاحقتي بمواصفاتهن وميزاتهن.

محمد أنجب ولدًا وسماه -طبعًا- "عليًا" على اسم جده رحمه الله.

عفاف لازالت غارقة وسط الكتب. تقدم لها طبيب زميل لها، ولكن يبدو أن محمدًا أبدى تحفظه عليه؛ لأن الفتى حالته المادية غير مستقرة، تكلمت مع عفاف وعرفت أنها موافقة عليه؛ فعرضت عليها مساعدتهما دون علم محمد، وعرضتُ عليها أنه من الممكن أن يتزوجا لاحقًا في الشقة التي كان من المفترض أن أتزوج فيها حيث أن زواجي تم تأجيله. قابلتُ الفتى -اسمه

رامي- يبدو مهذبًا ويبدو أنه يحب عفاف فعلًا، تحدثتُ مع محمد الذي أبدى تحفظه، ثم قال أنه لن يقرر حتى يسأل عنه وعن عائلته أولًا.

محمود كان مشغولًا جدًا مع والده الذي كان مريضًا جدًا؛ حيث أصيب بفشل كلوي وكان يحتاج دوريًا إلي جلسات غسيل كلوي.

طارق تزوّج ويعيش في نفس الشقة مع زوجته ووالدته التي رحبّت بي جدًا.

سامح سافر إلى السعودية.

حفل توقيع روايتين لي، لم تستطع عُلا أن تحضر.

اتّصلَ بي الدكتور سليمان مدير كهف الثعالب وأخبرني أن أجازتي انتهت وعليّ أن أجهّز نفسي للسفر بعد يومين، ذهبت إلى وزارة الخارجية -حيث من المفترض أنني أعمل-؛ لإنهاء بعض الأوراق، استلمتُ شقتي في مجمع سكني في مدينة الشيخ زايد.

ودّعتُ عائلتي وأصدقائي، لم أستطع أن أقابل عُلا مرة أخرى.

وسافرتُ.

****

لم أسافر هذه المرة إلى الولايات المتحدة، بل إلى بريطانيا. حيث تسلمت عملي الجديد بالملحقية الثقافية بلندن، ومن هناك بدأتُ أنطلِق لتنفيذ المهام في أرجاء العالم؛ تركيا، باكستان، البرازيل، سوريا، اليمن، روسيا، إيران، كوبا، العراق، ليبيا، أوكرانيا.

أرسلتُ رسالة بالبريد الإلكتروني إلى الشيخ صابر أخبرُه أنني في لندن فوعدني بزيارة.

بعد أسبوع كنت في مترو لندن حين سمعت صوته فجأة في عقلي:

-أهلًا بك أيها الصندوق الأسود، لا تلتفت، لا تدع أحدًا يلاحظ شيئًا.

فجأة وجدته واقفًا أمام الخزانة الضخمة ينظر لها بإعجاب:

-ما شاء الله، لقد تطورتَ كثيرًا.

-ما الشكل الذي تراني عليه الآن يا شيخ صابر.

*أري قلعة ضخمة فوق جبل عالٍ تحيط بها أسوار مرتفعة.

-هل لا زِلتَ هاربًا؟

*لا، لقد عقدتُ معهم هدنة، ولكني لا أريد أن يعرفوا أنك على اتصال بي. كيف هي أمورك مع الثعالب؟

-الحمد لله، حتى الآن لا توجد مشاكل.

*عليك فقط توخّي الحذر وليحفظك الله.

- كيف اتفقتَ معهم على الهدنة؟ هل عُدتَ للعمل معهم.

*لا يا بني، لم أعد للعمل معهم، ولكني أقنعتهم أنني لم أعد أصلح للعمل فتركوني وشأني.

طلب مني ألا أراسله على البريد الإلكتروني القديم وأعطاني واحدًا آخر، ثم ودعني وقال أنه سينزل المحطة القادمة.

كان يجلس في مقعد في مقدمة العربة، ولكني لم أتعرفه إلا عندما وقف وتوكّأ على عصاه ونزل، كان حليق الوجه وشعره بلون الثلج وقد انحنى ظهره وامتلأ وجهه بالتجاعيد؛ ففهمت ماذا كان يعني بأنه لم يعد يصلح للعمل، ولكن كيف هرم بهذا الشكل في خلال تلك السنوات؟

بعد عام كامل في لندن تم استدعائي لكهف الثعالب، وأُخبرت أني سأظل هناك لثلاثة أشهر.

استقبلني ماكجراث بترحاب شديد:

-ها هو بطلنا العظيم، ألم أقل لك أنك ستكون أهم لاعب في فريق الثعالب؟

-أنا فقط أقوم بدور بسيط يا سيدي.

*دورك البسيط هذا فتح لنا طرقًا كانت مسدودة تمامًا، وفتح لنا الباب للعمل في مناطق كانت مغلقة تمامًا، والأدهى من ذلك أننا تقدمنا على الجميع بخطوة، أي أننا عبرنا كل النقاط المظلمة ودون أن يعرف منافسونا أننا فعلنا ذلك؛ لأنهم لا يملكون من هو في مستواك. الآن يأتي دور....

- سيدي أرجوك، لا تقل لي المرحلة الثالثة من التدريب.

فانفجر ضاحكًا بصوت عالٍ كعادته، ثم قال:

-إنها بالفعل كذلك يا صديقي، وهي المرحلة الأكثر تقدمًا.

- ألن تنتهي هذه التدريبات؟ هل هناك إذًا مرحلة رابعة؟

*حتى الآن لا يوجد، ولكن ربما نخترع واحدة من أجلك وحدك، دعنا من هذا، المرحلة الثالثة هي مرحلة التدعيم، أي تدعيم عقلك وتحصينه كي لا يستطيع أحدٌ اختراقه.

-ولكن يا سيدي بالفعل لا يستطيع أحد اختراق عقلي الآن.

*هذا صحيح؛ فأنت بالفعل أكثر صندوق أسود قابلته مناعة وحصانة، والأهم من ذلك هو قدرتك على المراوغة بابتكار ذكريات زائفة وهو ما برعتَ فيه بشكل منقطع النظير، ولكن ماذا عن محاولات الاختراق بالقوة عن طريق المقتحمين الأكثر قوة وشراسة؟ هنا يأتي دور مرحلة التدعيم، لو تخيلتَ عقلك كقلعة حصينة، نحن سنساعدك أن تحفر خندقًا حولها وتملأه بالتماسيح، إن تخيلته كمدينة ذات أسوار عالية سنمدك بقاذفي السهام الذين سيمنعون أي أحد من الاقتراب من الأسوار، لو تخيلته كغابة مظلمة تحرسها الوحوش فسنزودك بالتنانين المجنحة التي ستمنع أي أحد من الاقتراب، وإن تخيلته سفينة فضائية سنزودك بمدافع الليزر ودروع الحماية، وهكذا.

-وكيف سيتم هذا.

*كان لزامًا علينا أن نستعين بشخص استثنائي مثلك حتى نستطيع تدريبك ورفع قدراتك، ولذلك اسمح لي أن أقدم لك الوحش(بِيست).

لم يحمل بيست من اسمه شيئًا قط، كان شابًا شديد النحول، جاحظ العينين، تساقط الشعر عن مقدمة رأسه، ويعاني عرجًا بسيطًا في مشيته.

-التدريب الأول: بيست، أمامك دقيقة واحدة للدخول إلى عقله ومعرفة اسم حبيبته.

فجأة وجدت بيست يقف أمام الخزانة ويعالج الأقفال في سرعة؛ فانفتحت واحدًا تلو الآخر وانفتح الباب، فوجئتُ بما فعله؛ فأسرعت محاولًا تعطيله.

كان الجو يمطر بغزارة والسماء تلقي ببرقها ورعدها، توقفت السيارة أمام إشارة المرور، وأخذ بيست ينظر في ساعته وفي الإشارة الحمراء ورجل المرور الذي وقف أمام السيارة قاطعًا الطريق بجسده، تمرّ الثواني والإشارة لا تتغير، وفجأة فتح الباب وقفز من السيارة وأخذ يجري بقوة.

الخبيث فهم الخدعة ووجدته ينطلق نحو صف الخزائن، أخرج من حقيبته تلك الآلة التي تستخدم في اللحام ووجهها ناحية الخزانة المقصودة فبدأ قفلها في الذوبان.

انطلق جهاز الإنذار واندفع رجال الأمن نحو بيست بسرعة، طوقه أحدهم من الخلف، ولكن بيست حمل رجل الأمن بسهولة وألقاه بعيدًا، الآن فقط فهمت لماذا استحق بيست اسمه رغم جسده الضعيف في الواقع، إنه هنا أقرب للوحش فعلًا، اندفع باقي رجال الأمن نحوه، ولكنه أخرج قنبلة وألقاها عليهم قبل أن يصلوا إليه، وعندما انقشع الدخان وجدته يبتسم ابتسامة انتصار وفي يده ورقة تحمل اسم علا.

فوجئت بماكجراث يعطيني منديلًا، وفوجئتُ بالدم يسيل من أنفي، كان بيست يقف منتشيًا بانتصاره، فقال له ماكجراث:

-هذه أول مرة تفشل في مهمتك يا بيست.

*ولكني أنجزتُ المهمة يا سيدي.

-في دقيقة وثلاث ثوانٍ، أي خارج الإطار الزمني المفترض، عندما تحقق الهدف خارج الإطار الزمني المحدد فهذا يسمى فشلًا، عندما تصل إلى المطار بعد إقلاع الطائرة فلا قيمة لوصولك.

ثم نظر نحوي وقال:

-هذه أول مهمة يفشل فيها بيست.

****

لم يتم اختيار والد عُلا في الحزب الوطني؛ فدخل الانتخابات مستقلًا ولم ينجح، وضاعت الأموال التي صرفها هباءً، ارتفع ضغطه مرة أخرى وأصيب بجلطة بالقلب وتم حجزه في المستشفى لمدة أسبوع، لقد تأجّل ارتباطنا وضاعت أجازتي الماضية؛ لأن عُلا خافت أن يرتفع ضغطه وتصيبه جلطة، وفي النهاية أصابته الجلطة.

****

توالت التدريبات مع بيست.

بيست يضع سماعة تشبه سماعة الطبيب على القفل ويديره بمهارة، هنا تدخل فرقة الموسيقى العسكرية وتعزف بجواره بصوت مرتفع ويستخدم أحدهم تلك الآلة النحاسية الشبيهة بغطاء الحلة بجوار أذنه.

****

تم نشر كتاب لي في أدب الرحلات، وتم تأجيل حفل التوقيع لحين عودتي. وصار لي عمودٌ يوميّ في صحيفة شهيرة.

****

استبدلتُ الأقفال بأقفال إلكترونية، بيست يخرج كمبيوتر محمول صغير ويوصله بالأقفال ويفك الشفرة ويدخل.

فجأة نحن في مترو الأنفاق في القاهرة، الزحام شديد داخل المترو والهواء شحيح، المترو يتوقف في محطة السادات أسفل ميدان التحرير؛ حيث يتقاطع خطا المترو الرئيسيان ويشتد الزحام، بيست يحاول الخروج ولكن جموع الناس الداخلين تدفعه للداخل كلما حاول، يخرج مسدسًا ويطلق منه طلقتان في السقف، ولكن لا أحد يبالي.

****

يتشرف الأستاذ عبد الله جبر والأستاذ محمد علي الجندي بدعوتكم لحضور حفل خطبة نجل الأول الدكتور رامي على أخت الثاني الدكتورة عفاف، وذلك يوم الخميس القادم بقاعة الاحتفالات بنادي الأطباء بمدينة طلخا.

****

الخزانة محاطة بأسلاك شائكة، يخرج بيست من حقيبته مقصًا كبيرًا ويصنع فتحة في الأسلاك الشائكة ويركض نحو الخزينة، يخرج الكومبيوتر الخاص به فيفاجأ بجوار الأقفال الإلكترونية بقفل نحاسي ضخم قديم، يخرج سلسلة مفاتيح ويحاول أن يفتحه، ولكنه صدئ ولا يسمح بدخول أي مفتاح.

****

توفِّي والد محمود بعد معاناة مع الفشل الكلوي.

سامح عاد من السعودية وتزوج.

****

استمرت المناورات مع بيست، أخّرجَ مطرقة كبيرة كسر بها القفل الصدئ بضربة واحدة، وعندما أوصل الكمبيوتر بالقفل الإلكتروني سرى التيار الكهربائي في الكمبيوتر؛ فاحترق، لقد كهربتُ القفل.

****

"هذا تدريبكم الأخير"

قالها ماكجراث موجهًا كلامه لي ولبيست.

*لا إطار زمني، أمامك كل الوقت يا بيست لتحضر الرسالة المطلوبة، ياسر، ليس المطلوب منك فقط حماية الرسالة، ولكن طرده من عقلك.

جاء بيست وقد انتفخت عضلاته -على خلاف الواقع- يحمل مدفع آر بي جي عملاق، ووقف أمام الخزانة وصوّب نحو الأقفال فانفجرت بعنف، انطلق يجري للداخل، المساحة بالداخل هائلة، وصّفُّ الخزائن الصغيرة بعيد جدًا، هنا كان عليّ أن أستفيد من رحلتي إلى روسيا، الأرض مغطاه بالجليد الذي يصل إلى ركبتيه، لكن الوغد كان مستعدًا.

زلاجة نارية ضخمة لا أدري من أين أحضرها، ركبها بسرعة وانطلق ناحية الخزائن.

انهيار جليدي ضخم يقطع الطريق عليه، لكنه يناور بمهارة.

تظهر طائرة هليكوبتر وسط العاصفة الثلجية، يتدلى حبل من الطائرة، يقفز بيست في رشاقة ويتعلق به، الانهيار الثلجي يغرق الزلاجة البخارية، اللعين قد استعد جيدًا. يترك الحبل ويقفز بالقرب من الخزائن، مقصّ للأسلاك الشائكة عازل للكهرباء، يقتل كلاب الحراسة بمسدسه بمهارة، كنت استبدلتُ الصناديق والأدراج بخزائن داخل الخزانة الرئيسية، وقف أمام أكبر خزينة وأخرج أدواته، الفتى بارع بالفعل، دائما يذكّرني بالوصف

الذي وصفه الفنان محمد رضا لأبيه في فيلم (٣٠يوم في السجن) أن أي خزانة كانت تذوب في يديه كقطعة من الحلوى السمسمية، بالفعل كان بيست كذلك، ما لبثّت الأقفال أن استجابت له، فتح الباب فوجدني بالداخل، جذبته للداخل. نظر بيست حوله فوجدنا في الخارج أمام الخزانة الرئيسية، كانت الخزانة التي فتحها تقود للخارج أو بالأصح كانت هذه هي فكرة الخزانتين المتداخلتين، حيث كلما فتحت واحدة منهما تقودك إلى خارج الأخرى.

وقف بيست غير مدرك لما حدث، ثم قال:

-تبًا لمراوغاتك، لا زال أمامي وقت.

وحمل مدفعه ليعيد الكرّة مرّة أخرى.

فالتفَتَ إلى الخزانة الرئيسية ووقف مبهوتًا، لا أقفال، لا باب، أصبحت مجرد مكعب معدني مصمت.

****

محمود

هذا الفتى عبقري فعلًا، لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونه؟

سامح يؤكد أنني لست محمد جمال، نيرمين استطاعت قراءة أفكاري إذَن هذه ليست رأس ياسر، الدكتور سامي بدا عليه أنه عرف من أكون رغم أنه لم يصرح بذلك ثم قال لي أنه متأكد أنهم لن يستطيعوا الامساك بي، أنا أشعر بمن يطاردونني دون أن أراهم. استطاع محمود في دقائق أن يجمع هذه الخيوط كلها ويصل لنتيجة، هذا جسد شخص يعرفه الدكتور سامي لأنه يملك موهبة ما وربما يكون عضوًا في فريق الثعالب.

وعندما نظرتُ في المرآة قفزَت الحقيقة في ذهني فجأة، أنا أعرف هذا الوجه، رغم أنه كان بلا شارب لكنه هو... رأيته في كهف الثعالب في الولايات

المتحدة مع الدكتور سامي، كان يقف معهم هنري ماكجراث، وسمعته يقول بصوته الجهوري "لو صح ما يقول الدكتور سامي - وأنا أثق دائمًا في كلامه- فستكون أهم رجل أمن في العالم"، وعندما اقتربتُ توقفوا عن الحديث، فسلّمت على الدكتور سامي وعلى الضيف الجديد، وسألني الدكتور سامي عن أحوالي باقتضاب، ثم انصرفوا وعدتُ أنا للتدريب.

النقطة الغامضة هنا هو كيف انتقلتُ أنا داخل جسد هذا الفتى؟! ولماذا؟!

أخذ محمود يفكر قليلًا، ثم قال:

-ماذا تبقّى لدينا من خيوط؟

أخرجت الخطابان اللذان وجدتهما في الفندق، وقلت له:

-لم يتبقّ إلا هذين.

تناولهما محمود وقرأهما.

" صديقي العزيز الأستاذ محمد جمال،

تمنياتنا لك برحلة عمل موفّقة. أتمنى أن تكون ملابسك الجديدة مناسبة لك، أعتقد أنها ستناسب رحلتك جدًا، عمومًا ملابسك القديمة معي، لم تكن لتساعدك في أسفارك الكثيرة ستحتاج لملابس خفيفة أكثر، على العموم سأحتفظ بها لحين عودتك لترى إن كانت لازالت مناسبة لك.

بالنسبة لبقية الأشياء فقد وضعتُها في الحقائب وأغلقتها جيدًا، وتركت لك المفاتيح لتفتحها متى شئت، استعن بعزيمتك وبأصدقائك لتحقيق أهدافك، وأتمنى أن تبحث في مكتبتك عن الكتاب الذي طلبته منك."

أخذ محمود يفكر ثم قال:

-غالبًا الخطاب من الشخص المسئول عما حدث لك، لو اعتبرنا أن ملابسك الجديدة هي جسدك الجديد والذي يناسب رحلتك جدًا نظرًا لقوته

وتكوينه العضلي، وربما يقصد موهبته الفريدة التي تساعده على الهروب من الرقابة.

فأكملت أنا:

-إذن الملابس القديمة هي جسدي الأصلي، ولكن ما المقصود أنه لم يكن ليساعدني في أسفاري؟ هل يعني أنهم فعلوا بجسدي شيئًا؟

*ربما يقصد أنه ضعيف، المهم هنا أن الحقائب المغلقة جيدًا هي غالبًا ذكرياتك التي تستعيدها بالتدريج عن طريق ما أسميته أنت (مفاتيح)، وهي موجودة مع أصدقائك، ولذلك كانت النصيحة أن تستعين بهم.

-يا لك من عبقري يا محمود، كيف لم ألحَظ أنا هذه الأشياء.

*أنا عبقري فقط مقارنة بك، الخطاب معك من البداية، ولكنك كالحمار يحمل أسفارًا. المهم تبقّى لنا الكتاب الذي يطلب منك أن تبحث عنه، هل عندك فكرة عما يكون المقصود بذلك؟

-لا أدري بالضبط، كل ما أذكره أنهم كانوا يستجوبونني عن شيء ما يريدونه بشدة وأنا كنت مصمّمًا ألا أعطيهم إياه.

*ألا تذكر أي شيء عنه؟

-لا.

*ألا زلتَ لا تذكر سبب خلافك معهم؟ أو كيف توقفت عن العمل؟ أو آخر مهمة لك؟

-لا.

*حسنًا، أرني الخطاب الثاني.

" أخبرت المستأجر عن الثعبان الذي في القبو كما طلبت، لكنه صمّم أن يستأجر البيت والقبو، إن جاءك أعطه المفتاح ودعه يتولى أمر القبو بما فيه.

لا تشغل بالك بسيارتك القديمة، سأحاول أن أنقلها لمرآب بيتي لحين عودتك، أعرف ميكانيكيًا لا بأس به سيصلح لك ما فسد في الحادث الأخير، وسيخلصك أيضًا من صوت المحرك المرتفع الذي أتعبك طويلًا، مفتاح البيت تركته لك في القلب.

المخلص: عبد الحميد الدسوقي"

ثم قال:

-لستُ أفهم شيئًا، ومن هو عبد الحميد الدسوقي؟

-الاسم يبدو مألوفًا، ولكني لا أذكر أني قابلت أحدًا بهذا الاسم.

*أنا أعرف شخصًا بهذا الاسم، ولكن لا أعتقد أبدًا أن له علاقة بموضوع الثعالب هذا.

-ومن يكون؟

*جارنا في الشارع وهو مدرس فيزياء.

وهنا انطلق السهم من عقاله، (ابتسم وتناول منها الأوراق وأراني الصفحة الأولى "مذكرة الأستاذ عبد الحميد الدسوقي في شرح الفيزياء للثانوية العامة")

فوقفت فجأة وسط دهشة محمود، وقلت:

-البنت التي كانت تصور المذكرة عند الشيخ صابر، الرسالة من الشيخ صابر.

فقال محمود بدهشة: الشيخ صابر جارنا القديم؟! وما علاقته بالأمر؟!

فحكيتُ له موضوع الشيخ صابر وحقيقته، والبنت التي جاءت تصور مذكرة الفيزياء.

فقال بدهشة:

-أي أن الشيخ صابر قارئ أفكار؟!

-وليس أي قارئ أفكار، الأدهى من ذلك أني رأيت صورة في مكتب الدكتور سامي فيها الدكتور سامي وشخصان آخران يبدو أنها في مناقشة رسالة ماجستير أو دكتوراة، وأحد الشخصين كان الشيخ صابر، ولما سألت الدكتور سامي عنه قال أنه أستاذه الدكتور إيهاب عز الدين، وهو أحد مؤسسي تدريبات كهف الثعالب وله نظريات كثيرة في ذلك، لقد سمعتُ عنه كثيرًا هناك، ورغم أني قابلت الشيخ صابر لاحقًا في لندن إلا أنه لم يخبرني بشخصيته الحقيقية.

*ولماذا لم تخبرني بذلك من البداية أيها الأحمق؟

-هو طلب مني ألا أخبر أحدًا بأمره.

فضغط محمود على أسنانه في غيظ وقال:

-هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك الآن؟

فقلت: بالطبع، (بجمممممم) بصوت عبد السلام النابلسي، كما كنت دائمًا تقول عندما يرتكب أحدنا حماقة.

فضحك محمود وقال:

-والغبي سامح يقول إنك لستَ ياسر، هذه الحماقات لا يرتكبها إلا (بجم) واحد فقط. هل تعرف أنك بحماقتك هذه كدتَ تضيّع منا خيطًا مهمًا.

-لماذا؟

*لأن الشيخ صابر زارني قبل ظهورك بيوم واحد.

****

انتهت المرحلة الثالثة من التدريب.

ذهبت لأودع ماكجراث قبل عودتي إلى لندن، وصلني صوته المرتفع من داخل مكتبه:

-"دكتور سليمان، هذه ليست الطريقة الصحيحة لإدارة الأمور، الفتى لم يُنهِ خطته التدريبية بعد."

ظننته في البداية يتحدث عني، ولكنه أكمل:

-"أعرف أنه ضابط في القوات المسلحة، ولكن هذا لا يعني ألا يكمل تدريبه فهذا من مصلحتهم أيضًا حتى يستفيدوا من قدراته بشكل أفضل، ثم إن الفتى يحتاج إلى تأهيل نفسي؛ لأن تدريباتهم السخيفة أفسدَت خطتنا لجعله من فريق الثعالب، لقد دخلتُ عقله بنفسي، إنهم يحولونه إلى ذئب شرس، حسنًا هذا شأنهم، ولكن وجِب عليّ تنبيههم للخطأ الذي يرتكبونه."

طرقتُ الباب ثم دخلت.

*هل أنتَ جاهز للعودة؟

-أجل يا سيدي.

*كالعادة أيها الصندوق الأسود، كان مستواك فائقًا للتوقعات. والأدهى هنا أنك ابتكرت أسلوبًا جديدًا، الخزانات المتداخلة، لقد كان اجتماع أمس مع المدربين حول هذا الابتكار الجديد، وقررنا أن يتم اعتماده ضمن برنامج التدريب، وسيتم إطلاق اسمك عليه، وغالبًا سنحتاج إليك لتقوم بتدريب بعض أعضاء الفريق عليه.

-هذا يشرفني يا سيدي.

*هل تعرف يا ياسر... أنت دائمًا تذكّرني بصديقي القديم إيهاب عز الدين، هل قابلته من قبل؟

-منذ جئت هنا وأنا أسمع الاسم كثيرًا، ولكني لم أقابله.

نظر إلي قليلًا ثم قال:

-ربما، عمومًا هو شخص استثنائي، كان لا يفتأ يفاجئنا كل فترة بابتكار جديد.

-سيدي، هل ستتغير طبيعة المهام بعد التدريب الأخير؟

*لا تغيير، هي نفس المهام، أنت بالفعل نفذتَ مهامًا عبر أكثر الممرات السوداء ظلامًا وخطورة وعبرتَ منها بسلام، الفارق هنا أنك ستشعر بثقة أكثر أنك قادراً على صد أي هجوم.

عدتُ إلى لندن ومنها بدأت رحلاتي إلى السودان، ألمانيا، صربيا، كوريا الجنوبية، السويد، الصين.

أخيرًا وافق والد عُلا على ارتباطنا، كدتُ أطير فرحًا عندما أخبرتني عُلا، لكنه وضع شرطًا، هو لن يحضر حفل الخطبة أو الزفاف.

-إذَن هو لا زال رافضًا.

*لا، ولكنه صمّم ألا يجلس معك ولا يحضر الحفل.

لم أعرف ماذا أقول لها، أنا لا أريد أن أجلس معه ولا أن أرى وجهه، ولكنه بهذا الشكل يعلن رفضه.

-وماذا ترين أنتِ؟

*لا أعرف يا ياسر، لقد كدتُ أُجنّ من التفكير، لا أعرف لماذا يفعل بي هكذا؟

-لا بأس، اهدئي فقط وسيكون كل شيء على ما يرام، على الأقل هي خطوة للأمام، من الآن وحتى موعد أجازتي ربما يغير رأيه، نستطيع أيضًا أن نتزوج مباشرة بدون خطبة، أو أن يكون الحفل عائليًا بسيطًا، اختاري ما يناسبك وأنا لا مانع عندي لأي اختيار، وربما تساعدنا والدتك فتضغط عليه أن يحضر.

*هي بالفعل تحاول معه، ولكنه عنيد جدًا وكلما حاولنا معه ازداد عِندًا.

-لا بأس، دعينا نفرح اليوم بموافقته، وغدًا نجد حلًا لموقفِه هذا، المهم أن عقدتنا قد حلت أخيرًا.

كلما ظهر حدث سعيد في حياتي في الأفق يظهر هذا الرجل ويضع ظله الأسود عليه.

****

11
صدمات

أمام أحد المدرجات في كلية الآداب أقطع الممر ذهابًا وإيابًا في توتر، إنه نفس المدرج الذي قابلت "عُلا" فيه آخر مرة، لكنه الآن خالٍ. ترى هل يستطيع محمود أن يقنعها أن تقابلني؟

لم أكن لأستطيع أن أدخل عليها بهذا الوجه لأقول لها أنني ياسر، فطلبتُ من محمود أن يقابلها أولًا ويشرح لها الأمر.

أخذتُ أتلفّتُ حولي في قلق، أعرف أنهم قريبون، أشعر بهم، لكنني لن أهرب، لقد اقترح محمود نظرية وقررنا تطبيقها اليوم ويبدو أنها صحيحة.

هم يراقبونني ولكنهم لن يحاولوا الإمساك بي الآن، بل سينتظرون حتى أصِل إلى ما يريدونه، عندها تبدأ المطاردة الحقيقية. فلا داعي لإهدار طاقتنا ووقتنا في الهروب منهم الآن. وكالعادة كان محمود على حق فها هم حولي أشعر بهم، ولكنهم لا يحاولون الإمساك بي.

كل يوم يثبت محمود أنه عبقري فعلًا.

بالأمس حكى لي أن الشيخ صابر زاره في الليلة السابقة لمجيئي له، قال له أنه جاء ليزور أصدقائه في المنصورة بعد غيبة طويلة؛ فعرف بأمر وفاة والد محمود فجاء يعزيه ويعتذر لأنه لم يعرف بأمر وفاته إلا تلك الليلة، كانت زيارة قصيرة جدًا، ولكن محمود لاحظ شيئين: الأول هو أن الشيخ صابر بدا متقدمًا جداً في العمر بما لا يتناسب مع السنوات التي مضت منذ رآه آخر مرة، لكنه اعتقد أنه ربما أصيب بداء السكري أو أي مرض مزمن آخر.

والشيء الثاني هي جملة قالها الشيخ صابر في وسط الكلام لم يفهم محمود معناها (قف بجوار أخيك يا ولدي، فالناس قد صاروا وحوشًا والذئاب صار ترتدي أقنعة الثعالب)

كاد محمود أن يخبره أن أخاه سافر إلى عمان، إلا أنه انتبه أن الجملة كلها غير مترابطة؛ فاعتقد محمود أن الرجل قد خانه التعبير، أو أنه لم يكن على ما يرام لأن الزيارة كلها كانت غريبة.

ولكني عندما سمعتُ الجملة كانت هي المفتاح؛ فقفزت إلى ذهني على الفور مهمتي الأخيرة.

كنت أستعد للقيام بالأجازة الموعودة، أخيرًا ستجمعني الأقدار بنصفي الآخر الذي لا يناسبني غيره ولا تكتمل حياتي إلا به.

كان لايزال رفض أبيها الجلوس معي أو حضور زواجنا يلقي بظله الأسود مشوهًا لوحة سعادتنا، لم تستطع "علا" إخفاء حزنها الشديد لذلك، وأخفيت أنا الأمر عن أخي "محمد"؛ لأنه سيعتبرها إهانة وسيرفض أن يحضر.

على أية حال قررنا أن نتزوج مباشرة بدون خِطبَة، حجزت رحلة لإسبانيا لنبدأ بعدها جولة في أوروبا تنتهي إن شاء الله في لندن مدينة الضباب، التي أخيرًا سترى شمسي المشرقة التي ستبدد كل ضبابها.

وكانت مهمتي الأخيرة قبل الأجازة في العراق.

كان اللقاء في مقهى هادئ، وجدتُ ذلك الشخص يدخل ففتحتُ له الباب.

كنت أركب في ميكروباص، كان يجلس أمامي وظهره لي. نادى السائق بصوت أجشّ مطالبًا أن نجمع الأجرة سويًا، فبدأ هو بجمع الأجرة من الركاب، أعطيته عشرة جنيهات؛ فالتفت قائلًا:

-ألا يوجد معك فكة؟

فقلت له:

-لا.

فقال مبتسمًا:

-إذَن سأعطيك الباقي شلنات كينية.

كانت تلك كلمة السر فاختفى الميكروباص والركاب، وظهرت خزينة حديدية أمامه، نقرَتْ أصابعُه في سرعة كلمة السر ثم فتحها، وحمل الصندوق الذي كان بها.

فجأة وقبل أن ينصرف وجدتُ شخصًا آخر يحاول الدخول... مقتحم آخر.

ليسّنت أول مرة أواجه اثنين من قارئي الأفكار في ذات الوقت، المهم ألا يشعر المقتحم بوجود الشخص الآخر.

(الله أكبر)

قالها الإمام بصوت مرتفع وبدأ يقرأ سورة الفاتحة في خشوع، إنها صلاة التراويح والمسجد يبدو مزدحمًا بالمصلين، قرأ الإمام سورة الإخلاص ثم ركع. (سمع الله لمن حمده) وبدأ بعدها بدأ الإمام في الدعاء بصوت يغالبه البكاء ويؤمّن المصلين وراءه في خشوع، ظل الإمام يردّد المزيد من الأدعية المسجوعة والمصلين يُؤمّنون في خشوع، وفجأة وجدته يخرج من الصف ويجذبني من كتفي وسط دهشة المصلين، وقال:

-لا وقت لدي لهذه الألاعيب، أنا من فريق الثعالب وأريد أن أتكلم معك في أمر عاجل.

لم يكن هذا من ضمن المهمة إذَن فهي خدعة أو ربما اختبار، إذن فلابد من المزيد من المراوغة.

كان الدكتور كمال الشاذلي يمسك بالميكروفون ويفنّد في كلمة أحد الأعضاء باستخفاف؛ فيضحك باقي الأعضاء بينما يحاول ذلك العضو أن يعترض فيشير له الدكتور كمال أن يسكت؛ فيرفع العضو صوته معترضًا فيطالبه رئيس المجلس الدكتور أحمد فتحي سرور بالالتزام بآداب المجلس.

في وسط كل ذلك وقف المقتحم من مكانه واتجه نحوي وصرخ:

- أنا أعرفك، لقد سلمتَني رسالة من قبل، هل تذكر مارتينا نافراتيلوفا ومدرس اللغة العربية؟ لا تراوغني الوقت ضيق والأمر هام جدًا، هم يخدعونك ويستغلونك لنقل رسائل خطيرة تتسبّب في الكثير من الدماء والضحايا.

اختفى مجلس الشعب؛ ليظهر الدكتور خليفة في مدرج كلية الهندسة يلقي محاضرة مملة عن الهندسة الوصفية عن طريق البروجيكتور. بينما نصف الطلاب نائمون في ظلام القاعة.

لم ينتظر هذه المرة، اتجه نحو البروجيكتور وعندما حاول منعه الدكتور خليفة دفعه بعيدًا فسقط أرضًا، أخرج الشرائح من جهاز البروجيكتور العتيق ووضع شرائح أخرى وشغل الجهاز قائلًا:

-على الأقل شاهد ضحايا رسالتك السابقة التي نتشارك أنا وأنت في حمل وزر دمائهم.

أخذ يعرض صور ضحايا أحد الانفجارات كأنها صور من نشرة أخبار وسط صراخ الدكتور خليفة "أنا الدكتور خليفة رجل العلم الذي أفنى عمره في سبيل العلم ويحدث هذا لي، أنا لن....."

فجأة اختفى كل هذا وبقينا أنا وهو فقط وجهًا لوجه.

*يا رجل، أتعبتني بمراوغاتك تلك، وأضعت الكثير من الوقت الثمين، لدي معلومات مهمة وليس أمامي سواك؛ لأنهم اكتشفوا أمري، وغالبًا سيتخلصون مني.

-ولماذا اخترتني أنا لتخبرني بمعلوماتك الهامة؟

*أولًا لأن رأسك هي أأمن مكان في العالم؛ فأنا لم أقابل من قبل من هو مثلك، ثانيًا لأني عرفت بوسائلي الخاصة أنك قادم إلى العراق في مهمة؛ فكانت هذه فرصتي؛ لأني غير قادر على مغادرة العراق، فخاطرت وخرجت من مخبأي وجئت للقائك.

-وما معنى كلامك عن استغلالي وضحايا رسالتي؟

*هذا أمر يطول شرحه، ولكني سأختصره لك لضيق الوقت؛ أنت طبعًا تعتقد أنك تعمل لصالح مخابرات بلدك بالتعاون مع المخابرات الأمريكية وتعتبر نفسك شخصًا وطنيًا يقوم بخدمة وطنية وإنسانية لمكافحة الإرهاب والحروب والجرائم، هذا هو الجو النفسي الذي يصورونه لنا وربما لأنفسهم، بينما الحقيقة أننا مجرد أدوات يستخدمونها لأغراضهم ومصالحهم الخاصة، لا شأن للأمر بمكافحة الإرهاب أو الإجرام، هم يكافحونه فقط عندما يتضارب مع مصالحهم، أما إن كان الأمر غير ذلك فهم يرعونه ويساعدونه. أي شيء مباح في سبيل حماية مصالحهم، تجارتهم، مناصبهم، ثم مواطني الدول الكبرى. أما نحن فلا شيء، حتى في نظر حكامنا وقادة أنظمتنا نحن لا شيء، ولذلك ترعى الولايات المتحدة الأنظمة الاستبدادية في الدول الفقيرة لأنهم يرعون مصالحها، فريق الثعالب يعملون أساسًا تحت لواء المخابرات المركزية الأمريكية، ولا تستطيع مخابرات بلدك استخدامك إلا بعد موافقتهم، وعملياتهم هي لحماية المصالح الأمريكية فقط، بل وينفذون عمليات لصالح منظمات خاصة وأباطرة تجارة الأسلحة،

والمبررات موجودة، مكافحة الإرهاب، لا بأس من التعامل مع الشيطان ما دام الأمر في مصلحة الشعوب، لا فرار من وقوع بعض الضحايا في سبيل حماية الآلاف من الأبرياء.

-وما دخلي أنا في هذا؟ أن فقط أقوم بتوصيل الرسائل.

*وهل تعرف محتوى هذه الرسائل؟ هل تعرف ما نتيجة توصيلك لرسائلك السرية؟ أم أنك منحتهم الثقة المطلقة وتركتهم يقودونك مغمض العينين؟ لا تدافع عن نفسك، أنا لا أتهمك بشيء، فقط أردت أن أكشف لك الحقيقة.

-وما دليلك على ما تقول؟

*لهذا جئت إليك، إنه الدليل الذي أخشى ضياعه، مصادفةً وأثناء نقلي رسالة سرية فُتحت الرسالة وكان محتواها مكتوبًا بالشفرة إلا أنه كان مريبًا. فبدأت أتتبع الأمر، وأتلصص في عقول من أنقل الرسائل إليهم، أخذت أتتبع الخيط الذي وجدته في الرسالة حتى وجدت بعض الأدلة هنا وهناك، ولكن كانت الطامة الكبرى عندما عثرتُ على الكنز؛ كمية معلومات هائلة تدين الكثير من أصحاب المناصب العليا في كثير من الدول، منها طبعًا دول الشرق الأوسط، رؤساء ووزراء ورجال مخابرات ورجال اقتصاد ورجال دين وقيادات معارضة، بل وتدين قيادات فريق الثعالب والمخابرات الأمريكية.

-وما هي طبيعة المعلومات؟

*عمليات مشبوهة، تجارة أسلحة، عمولات، علاقات مع منظمات إجرامية وإرهابية، ارتكاب جرائم بحق أبرياء بهدف إلقاء المغبة على آخرين، سجن وتعذيب معارضين، مساندة أنظمة قمعية في ارتكاب جرائم حرب وإبادة.....

قطع كلامه وتلفت حوله قليلًا ثم قال:

-لم يعد هناك وقت، لقد وجدوني، وللأسف هناك قارئ أفكار عرف أني أبلغتك بالأمر، كنت أريد أن يكون الأمر سريًا حتى لا يصلوا إلى المعلومات في رأسك.

-ولكن ماذا تريد مني بالضبط؟

*هنا ظهرت معه حقيبة كبيرة وضعها أمامي، هذا هو كنزي الذي أضعتُ كل شيء بسببه، وغالبًا سأخسرُ حياتي أيضًا بسببه. فقط أريدك أن تحافظ عليه. هي رسائل مغلقة بمفاتيح وكلمات سر، لقد فتحتُ بالفعل بعضها وهو ما كان كافيًا بالنسبة لي، أنا متأكد أن لقائي معك لم يكن مصادفة، هناك حكمة لذلك، ربما أنت الشخص المناسب لاستخدام هذا المعلومات لكشف المجرمين، أو ربما أنت الشخص المناسب للحفاظ عليها.

بدأ يبتعد وقال:

-للأسف هم عثروا عليّ وعرفوا أنني سلمتك شيئًا هامًا.

-وماذا علي أن أفعل؟

أخذ يبتعد أكثر وبهتَت صورته، وبدأت تظهر بقع من الدم على صدره، إلا أنه ابتسم في ضعف وقال:

-حقًا لا أدري، أعتذر على إلقاء هذه المسئولية الكبيرة على عاتقك، ولكن لا بد أن هناك حكمة لذلك.

اختفت صورته مع صوت طلقات رصاص خارج المقهى، ورأيت الكثير من الرجال يجرُون هنا وهناك.

أفقتُ من شرودي على اقتراب محمود؛ فبادرته سائلًا:

-لماذا تأخرت هكذا؟ هل رفضَتْ؟

*طبعًا رفضتْ في البداية، ولكن مع إلحاحي وافقتْ أن تقابلك لخمس دقائق فقط، وهي تنتظرك في مكتبها.

دخلتُ فوجدتها جالسة تنظر في شرود في كتاب أمامها.

تسمرتُ على الباب، لم تعد كما رأيتها آخر مرة، بل ازدادَت جمالًا ورقّة، هكذا هي دائمًا، كلما غبتُ عنها أعود فأجدها أجمل وأرقّ، أعود فأقع في غرامها من البداية، أعود فأجد آفاقًا جديدة من الحب والشوق بعد أن كنتُ أظن أن حبي وشوقي لها قد بلغ منتهاه.

هذه هي التي لولا انتظاري للقائها ما كنت تكبدتُ عناء الشهيق والزفير بعدما فقدَت حياتي معناها، لولا حبي لها ما قاومتُ وتحملتُ على أمل أن أراها مرة أخرى، لولا وجودها في حياتي لتحولت حياتي إلى مأساة إغريقية جديرة بأن يحكيها هوميروس على الربَابْة -إن كان يعرِفُ الربَابْة- في مقاهي و"غرز" اليونان، إن كان في اليونان "غرز".

قالت دون أن تنظر إليّ:

-تفضل.

جلست في صمت، فقالت:

قال لي محمود أنك تريد أن تتكلم معي في أمر هام.

-ألم يشرح لكِ الأمر؟

*لقد قال لي كلامًا غير مفهوم، ما يعنيني من الأمر هو هل تعرف أين ياسر؟

-ياسر هو الذي يكلمك الآن، صحيح أنني في جسدٍ آخر ولكنني ياسر، وأستطيع أن أثبت لكِ هذا.

*وأين كنت طوال تلك الفترة؟

-كنت هاربًا منهم، لقد حدث ما توقعناه عندما كلمني الدكتور سامي أول مرة، وعندما حاولت التوقف لم يسمحوا لي بذلك فهربت منهم.

*ولماذا لم تتصل بي وتخبرني بما حدث، أو على الأقل أنك بخير؟

-لم أكن أريدهم أن يقتربوا منكِ.

*ولكنهم بالفعل اقتربوا مني، وأجروا معي الكثير من التحقيقات، عمومًا شكرًا لك على زيارتك، لقد ظننتكَ تعرف شيئًا عن مكان ياسر.

-علا، أنا ياسر، وأستطيع أن أثبت لكِ، هل تذكرين لقاءنا الأول وقصيدة (رغمًا لأنف الجميع)؟ هل تذكرين شفرتنا من يعرف ترجمتها غيرنا، كابينة الهاتف أمام منزلكم،.....

*كفى يا سيدي أرجوك، هذا لن يفيد، أنا أعرف طبيعة عمل ياسر وطبيعة المجموعة التي كان يعمل معها، ربما قرأوا أفكاره وعرفوا كل شيء منه، أو ربما قرأوا أفكاري أنا أثناء استجوابي، أو ربما تقرأ أنت أفكاري الآن.

-ماذا عن أول مرة اعترفت لك بحبي فيها، هل تذكرين؟ أعرتك رواية رد قلبي ليوسف السباعي، ووضعت نقاط صغيرة تحت بعض الحروف لو تم تجميعها لكونت قصيدة صغيرة:

أوَتعرفين لمن وهبت قصيدتي
أترى عرفت لمن أقول "حبيبتي"
من حاز حبي من تملّكَ مهجتي
إنْ لم تكوني تعرفين أميرتي
فالقلب صرّح هاتفًا: أنتِ التي

بعد أن أعدتِ الرواية لي ظننتُ أنكِ لم تلاحظي القصيدة، ولكن في آخر صفحة وجدتُ...

قاطعتني وقد انهمرت دموعها:

-كفى أرجوك.

-علا، أنا آسف لم أقصد هذا، ولكني كنت أحاول أن أثبت...

فانفجرت باكية:

-تثبت ماذا؟ سرقتموه مني وسرقتم سنوات عمرنا، والآن سرقتم ذكرياتنا أيضًا!

لم أستطع الرد بكلمة وسالت دموعي وأنا عاجز عن إصلاح ما فعلته أو حتى مواساتها.

*هل من الممكن أن تتركني وحدي؟

لو انصرفتُ وتركتك هكذا فأنا جدير بعجلات أتوبيس القاهرة -كما كانت تقول أسماء دائمًا- على من يضايقها، فقط اهدئي قليلًا وأعدك أن أنصرف على الفور.

مسحت دموعها وأخذت تتنفس بعمق لدقيقتين، ثم قالت:

أنا آسفة على ما قلت، أنا أفضَل الآن.

-لا، بل أنا الذي أعتذر عما حدث.

*بل أنت تستحق الشكر، لقد ذكرتَنِي بأحلى ذكرياتي.

-أستطيع البقاء بجوارك للأبد، فقط لأحكي لكِ المزيد من الذكريات.

*لا شكرًا، أفضّل أن أنتظر صاحب الذكريات نفسه لنصنع ذكريات جديدة.

قالتها وابتسمت.

فانطلق السهم في عقلي.

****

عدت من مهمتي الأخيرة إلى لندن مشوشًا، ذلك الشخص الذي لم أعرف حتى اسمه والذي قُتل أمامي ترك لي إرثًا ثقيلًا، فتحتُ بعض الرسائل التي فتحها هو من قبل فوجدتُ فيها ما لا يصدقه عقل، هؤلاء السادة الأفاضل الذين يتبوؤون المناصب الكبيرة ويتشدقون بالمبادئ والوطنية ما هم إلا حفنة من الجواسيس والخونة والمنتفعين، الفساد يتم تقنينه ورعايته، سجن وتعذيب بلا تهم واضحة حتى وصل الأمر لإرسال مساجين أجانب للتعذيب في بلادنا؛ لأنهم لا يستطيعون تعذيبهم في بلادهم.

أصبحَت تطاردني كوابيس صور التفجيرات والضحايا والتعذيب.

التحقيقات أيضًا صارت تطاردني، قلت لهم أنني واجهت مقتحمًا في العراق بالفعل، ولكني ضلّلتُه ولم يستطع الحصول على شيء، ولكنهم سألوا إن كان ترك معي رسالة؛ فأنكرت تمامًا.

أحد قارئي الأفكار قرأ في رأسه قبل أن يقتلوه أن معه معلومات هامة وسرية وأنه تركها معي، لم يستطيعوا إثبات شيء عليّ.

بدأت الأزمة عندما طلبوا مني توصيل رسالة جديدة، لن تفيد المماطلة طويلًا، وأيضًا أنا لم أعد أستطيع العمل معهم، أرسلتُ للشيخ صابر أني أريد أن أقابله لأمر هام جدًا؛ فحدد لي مكان اللقاء. كالعادة لم نجلس سويًا. لم أكن أراه أمامي لكني رأيته داخل عقلي.

حكيت له ما حدث؛ فتجهّم وجهه وأخذ يفكر.

-ما رأيك يا شيخ صابر، هل أقول لهم أنني لم أعد أستطيع العمل معهم، أم أدّعي أني لم أعد أملك الموهبة.

*لن يصدقوك، هم متأكدون أنك تملك ما يبحثون عنه، ويريدون فقط اختبارك، وهذه المهنة غير مسموح فيها بالتقاعد، إذا قلتَ أنك لم تعد تريد

العمل معهم ستصبح عدوًا لهم وسيهاجمونك بمنتهى الشراسة، وربما تخلصوا منك.

-ماذا أفعل إذَن؟ أنا لن أعمل معهم مهما حدث.

*تظاهر فقط أنك ستنفذ المهمة، بعدها علينا إخفاءك حتى تحدّد ماذا تنوي أن تفعل بالمعلومات التي معك.

-وماذا يمكنني أن أفعل، هي ليست مستندات أو وثائق يمكن نشرها أو إرسالها لجهة مسئولة، هي فقط معلومات لا أملك لها أي دليل، لن يمكنني عمل أي شيء بها، ولكنني لن أستطيع تسليمها لهم؛ لأن معظمها مازال مغلقًا ولا أدري محتواها، فلو سلمتها لهم قد يسيئوا استغلالها وأتحمل أنا وزر ضحاياهم، أما الرسائل المفتوحة فهي تدين الجميع وتفضحهم جميعًا أمام بعضهم البعض، فلا أدري حتى إن أردت تسليمها لمن أسلمها، ثم إنني أخشى رد فعلهم لو عرفوا أني عرفت حقيقتهم. حقًا لستُ أدري ماذا أفعل.

*لابد من حكمة ما لوقوعها بين يديك.

-لقد مللتُ هذه الجملة، أي حكمة تلك؟! أنا لا أستطيع فعل أي شيء سوى منعهم من الحصول عليها.

*ربما كان هذا دورك يا ولدي.

-وماذا بعد أن أقوم بدوري؟ أفقد كل شيء وأعيش هاربًا طوال عمري أو يعذبونني حتى يحصلوا عليها، أو يقتلونني فيموت السر معي، ما الحكمة من ذلك؟!

*حسنًا، سلّمها لهم إذَن وعد للعمل معهم واستمتع بحياتك كأن شيئًا لم يكن.

-لا أستطيع، لم أعد أقدر أن أعمل معهم وألوّث يدي مرة أخرى بدماء الأبرياء، لم أعد أدري ماذا أفعل، أنا لا أنام، الكوابيس تطاردني يوميًا.

*اهدأ ودع الأمر لي.

بالفعل تم تنفيذ خطة الشيخ صابر، تظاهرت أنني سأنفّذ المهمة حتى تمكنت من الفرار من رقابتهم، ثم أخفاني الشيخ صابر في منزل ريفي خارج لندن.

حذّرني الشيخ صابر من الاتصال بأحد من أهلي أو أصدقائي أو حتى الاتصال به أيضًا.

كنا نغيّر مكاني كل فترة، غير مسموح بالخروج من البيت، إنه السجن بكل معانيه، ولولا مساعدة الشيخ صابر لما استطعت الاختفاء كل هذه المدة.

انشغلت بمحاولة فك الرسائل، واكتشفتُ ملفًا كاملًا عن الفساد في مصر، نحن فعلًا نعيش في غابة، الجميع فاسدون، الفساد يغطي كل سنتيمتر في مصر، ولكن هذه الرسائل تركز على الحيتان الكبار، نقاط ضعفهم، سقطاتهم التي من الممكن أن تهدم بنيانهم من القواعد، كبار المسئولين الذين يرعون الفساد، لو وقع هذا الملف في يد رجل شريف ولكن ذو سلطة لاستطاع قطع أكبر روافد الفساد في مصر، ولكن أين هو؟!

استمر الوضع كذلك حتى قامت ثورة يناير، كنت أجلس أمام التلفاز ليل نهار أتابع ما يحدث في توتر، استخدام الإنترنت ممنوع بأوامر الشيخ صابر، هل من الممكن أن يحدث مالم نجرؤ أبدًا حتى أن نحلم به! كنت الآن أعرف أن المسئولين في مصر لن يتورعوا أن يبيدوا كل تلك الملايين التي نزلت الشوارع لو استطاعوا حتى يحافظوا على مناصبهم وسلطاتهم، أما أموالهم فهي بالفعل في أمان في بنوك خارج مصر.

وتحقق الحلم واستطاع الشباب أن يكتبوا التاريخ بدمائهم ويضربوا مثالًا للعالم كله، كان العالم كله وقتها يتحدث عن مصر وعن عظمة ثورتها.

أما أنا فكدتُ أن أُجنّ من الفرحة وقتها، خاصة بعد ما رأيت العديد من رؤوس الفساد يقادون إلى السجون، بعدها قررتُ أن أعود إلى مصر، لم يبدُ

الشيخ صابر مرحّبًا بقراري، وطلب مني أن أتمهل حتى تستقر الأمور في مصر، وأخذ يتكلم عن النظام الذي يشبه جبل الجليد الذي يظهر منه جزء بسيط هو الذي غيرناه، بينما الجزء الأكبر تحت الماء لازال كما هو.

لم أستمع إليه وجهزت نفسي للسفر.

وأنا في "مطار هيثرو" عرفتُ أنهم رصدوني، ولكنهم تركوني أمُرّ؛ فاعتقدتُ أنني لم أعد مطلوبًا، ولكن في مطار القاهرة وبعد وصولي مباشرةً تم القبض عليّ.

***

بعد أن أخبرني محمود بما قاله له الشيخ صابر في زيارته والمفتاح الذي تركه لي؛ فتذكرت مهمتي الأخيرة وهروبي من الثعالب، أخذتُ أتفحّص الخطاب مرة أخرى واستوقفتني عبارة (مفتاح البيت تركته لك في القلب)؛ حينها قررت أنه الوقت المناسب أن أقابل عُلا، وكان ما توقعت؛ ما أن ابتسمَت عُلا حتى ظهر العنوان جليًا في عقلي، ودعتُ عُلا وقلت لها أن هذه فرصتي أن يكون آخر عهدي بها هو ابتسامتها، رغم أنها لم تصدق أنني ياسر وهو ما حزنتُ واندهشتُ منه، حيث كنت أظنها أول من سيشعر بي، إلا أنني كنت سعيدًا؛ لأنني على الأقل استطعتُ أن أجعلها تبتسم ولم أغادرها وهي تبكي، يومًا ما سأعود لأبقى معها، لقد أضَعْنا عمرنا في لقاءات خاطفة ووداع.

خرجتُ لمحمود وقلت له أن يستعد لأننا سنذهب إلى الإسكندرية اليوم.

*الإسكندرية؟! ولماذا؟!

-لقد عرفتُ مكان الشيخ صابر.

*وهل كانت تعرف عُلا مكانه؟

-لا، ولكنه ترك لي مفتاحًا لكي أصِل إليه.

*حسنًا فهمت،(مفتاح البيت تركته في القلب)، فهل سنرحل الآن؟
-لا، لا زال هناك مهمة واحدة بعدها نرحل إلى الإسكندرية.

****

جلست في العيادة أنتظر دوري الذي طلبتُ أن يكون الأخير، وأخذتُ أتأمل الجالسين في صالة الانتظار محاولًا تحديد من المريض ومن المرافق، وهو أمر صعب جدًا في عيادات الأمراض النفسية؛ فهذا الفتى ربما هو مدمن أو مصاب بالاكتئاب وأحضره أبوه للعيادة، وربما هو سليم ولكنه جاء مع أبيه المصاب بالألزهايمر، ما لبثتُ أن تأكدتُ من صعوبة لعبة التخمين في هذه الحالة، فأخذتُ أفكر فيما قالته عنّا (أفضّل أن أنتظر صاحب الذكريات نفسه لنصنع ذكريات جديدة)، ترى هل من الممكن أن أعود لها مرة أخرى كياسر بوجهه وشحمه ولحمه لنعيش سويًا ونصنع ذكريات جديدة كما قالت.

" تفضل يا أستاذ، إنه دورك"

أفقتُ على صوت ذلك الرجل الذي ينظم دخول المرضى، نفس الرجل الذي تجده دائمًا في عيادات الأطباء، قليل الكلام، يعامل الناس بتكبر، يشعر بأهميته بشكل مفرط، يشعر أنه أهم من الطبيب نفسه؛ لأنه لولاه لما استطاع الطبيب تنظيم المرضى ولدخلوا كلهم بدون دفع ثمن الكشف، لابد من بعض قلة الذوق في التعامل والكثير من السماجة.

فتح لي الباب فدخلت، وجدتُها جالسة على مكتب كبير تكتب شيئًا في دفتر أنيق.

أختي الصغيرة التي كنت بالأمس أمسك بيدها المرتعشة كي تكتب الهمزة فوق الألف الآن صارت طبيبة، وكل هؤلاء الناس كانوا يجلسون في صبر حتى يقابلوها فتريح آلامهم وتصف لهم الأدوية والعقاقير، أعرفُ أنها ليست

عيادتها وأن المرضى جاءوا للقاء الأستاذ صاحب العيادة، ولكنه لم يكن ليتركها تدير عيادته إلا لأنه يثق في قدرتها على إدارتها على أكمل وجه.

رفعت وجهها وابتسمت:

-تفضل، الأستاذ محمد جمال؟

عيناها حزينتان رغم ابتسامتها المجاملة.

-تقريبًا.

*حسنًا تفضل احكِ لي مشكلتك؟

-مشكلتي أنني ثلاثة أشخاص، شخص أحمل اسمه في البطاقة الشخصية ولا أعرف عنه أي شيء، شخص أحمل وجهه ولا أعرف عنه حتى اسمه، والثالث أعرف عنه كل شيء تقريبًا، ولكني لا أستطيع أن أثبت أنني هو؛ لأن هذا ليس جسده.

*وكيف حدث هذا؟

-لا أدري؟ فقط استيقظتُ لأجد نفسي بوجه آخر وجسد آخر.

*وهل تعرف صاحب هذا الجسد.

-أمس فقط تذكرت أنني قابلته مرة واحدة، ولكني لا أعرف عنه أي شيء سوى أنه رجل أمن.

*هذا كلام لا يعقل يا أستاذ محمد.

-ولهذا جئتكِ يا دكتورة على أمل أن تفسري لي ذلك.

*حسنًا، ماذا عن وجهك القديم هل تذكره جيدًا؟

-طبعًا، ها هو ذا.

وأخرجت من جيبي صورتي التي أخذتها من محمود ووضعتها أمامها.

*كنت أشعر من البداية أنها مزحة سخيفة.

-أقسم لكِ أنها ليسَت كذلك، أنا فعلًا ياسر أخوكِ، ولكني لا أعرف ما حدث لي. هل تتذكرين بيُّومي المختبئ في الحقيبة التي كانت تحت السرير؟ المقلاة التي تركتها لتحترق بالكامل وأعطيتني إياها لأهرّبها خارج المنزل وظلت أمي تبحث عنها لشهور؟ تجاربك عليّ في قياس الضغط وسماع ضربات القلب والإبر الوريدية.

*وماذا بعد؟ ما هدفك من هذا؟

-لا شيء، لقد جئتكِ كي تساعديني.

*وكيف تتوقع أن أساعدك؟

-لا أدري، أنت طبيبة نفسية وقد تكوني درستِ شيئًا مماثلًا.

*هل هناك شيء يثقل ضميرك بشدة؟

-لا أذكر شيئًا بعينه.

*هل تصيبك كوابيس؟

-أجل، دائمًا.

*ماذا ترى في هذه الكوابيس؟

دخل الرجل السمج ونظر لي في تشكك، ثم قال:

-هل تريدين شيئًا يا دكتورة؟

*شكرًا يا عم نبيل، كل شيء على ما يرام، لو احتجتُ شيئًا سأضغط الجرس.

نظر نحوي في شك ثم أغلق الباب.

-أرى بيوتًا مدمرة وأطفالًا تبكي وجثثًا دامية، كأنها نشرة أخبار تعرض صور كارثة ما.

*هل ترى وجه أحد تعرفه؟

شردت قليلًا وأخذت أتذكر:

-أجل، أبي، أمي، أنتِ، محمد، علا، محمود صديقي.

*هل من أحد آخر؟

هنا تذكرتُ أسوأ كوابيسي:

-أراني أنا أصرخ من الألم كأن هناك من يعذبني.

*ومن كنت أنت في الكابوس؟

-أنا طبعًا كنت ياسر.

*لا، ما أقصده هو من أي منظور كنت ترى الكابوس؟ هل كنت تراه بعينيّ ياسر؟

صدمني السؤال ففكرتُ قليلًا، ثم قلت:

-لا، لقد كنت أرى وجهي وأنا أصرخ وأتألم.

*وما هو شعورك وقتها؟

شردت مفكرًا ولم أرد.

*هذا هو حجر الزاوية، لم تكن تشعر بالألم، أليس كذلك؟

هززت رأسي في صمت.

*كنت تشعر بالتشفي وهذا يثقل ضميرك بشدة.

-لم أكن أشعر بأي تعاطف، فقط بالغضب والرغبة في إنهاء الأمر.

*الأمر واضح يا حضرة الضابط.

-ماذا تقصدين؟

*هناك احتمالان؛ الأول وهو الأقرب للمنطق أن الأمر مجرد خدعة وأنك ممثل بارع، ولكني سأعتبر الأمر كأنه اختبار في الطب النفسي ماذا لو لم تكن خدعة؟ الاحتمال الثاني أنك قد توليتَ تعذيب أخي ياسر وربما قتلته وبعدها هاجمتك تلك الكوابيس وأثقلت ضميرك، ولم تتركك لتمارس عملك ولا حياتك، فكان المهرب الذي ابتكره عقلك الباطن هو أن تكون أنت ياسر، أي أن تكون أنت الضحية، أن تكون المظلوم وليس الظالم، وصدّقتَ أنت

ذلك واستخدمت ما نلته من معلومات حصلت عليها من ياسر أثناء تعذيبه وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن تثبت أنك ياسر حتى تهرب من ضميرك ومن جرائمك التي صِرتَ تُحاكَم بسببها يوميًا في كوابيسك.

-هذا ليس صحيحًا.

قلت ذلك وأخذت أتذكر الرؤى التي كنت أراها تدريبات في الصحراء، رماية، القفز من مرتفعات عالية، زي عسكري، وجوه لا أعرفها لرجال ونساء.

*بل صحيح يا حضرة الضابط، أنت من عذّب أخي والآن يعذبك ضميرك.

هنا اندفعَت إلى ذهني الذكريات الأليمة.

****

12
السفّاح

انطلق بنا أتوبيس الإسكندرية، أعرف أنهم حولنا يراقبون، أحدهم ركب معنا أيضًا، لا بأس عندما نصل إلى الإسكندرية نبدأ في خطة التضليل.

جلست بجوار محمود صامتًا.

-" ألن تخبرني ماذا حدث في لقائك مع عفاف؟"

-لا جديد، حاولت إقناعها أنني ياسر ولم أنجح.

*ألم يفتح لقاءك بها ذكريات أخرى؟

-سجن، تحقيقات، تعذيب، لا شيء مهم.

نظر لي محمود في شك ثم أخرج جريدة وبدأ في حل الكلمات المتقاطعة كعادته.

لأول مرة أكذب على محمود وأخفي عنه شيئًا، خفتُ أن يصدق كلام عفاف أو تهتز قناعته بأنني ياسر، وأنا أحتاج إليه بشده... أحتاج إلى صديق أثق به وأحتاج إلى عقله، فمع احتكاكي بالكثيرين خلال رحلاتي أعتقد أن محمود هو أكثر عقل منظم رأيته في حياتي، بالأصح هو أذكى شخص عرفته، ومقارنة بزميلَي مهنته الذين حققا نجاحًا كبيرًا؛ طارق الذي يعمل بشركة كبيرة ونيرمين التي صارت دكتورة بكلية الهندسة فأنا أرى أن محمودًا أذكى منهما بمراحل، ولكني لا أستطيع أن أغامر وأطلب رأيه فيما قالته عفاف؛ فربما صدّق كلامها فأفقده.

أما بالنسبة إليّ، رغم أني لم أقتنع بتفسير عفاف إلا أنه زلزلني فعلًا، لم يهز قناعتي بأني ياسر، ولكن زلزلني أن أعرف أنني الآن في جسد الشخص الذي عذبني.

هنـاك فعـلًا رؤًى أرى فيهـا وجوهًـا لا أعرفهـا، هنـاك تـدريبات عسـكرية، ثـم موضوع التعذيب الذي لفتَت عفاف نظري إلى المنظور الذي كنت أرى الموقف منه، بالفعل كنت أرى عملية تعذيبي من عينَي شخص آخر.
ولكن كل هذا لا يعني أنني لست ياسر، فأنا أعرف أنني في جسد شخص آخر وهذا الجسد له حياته وذكرياته ورؤاه التي قد تختلط مع ذكرياتي كياسر طالما أنا في جسده.
نظرتُ لمحمود الذي كان قد أنهى الكلمات المتقاطعة في دقائق وأخذ يتصفح الجريدة، كم أحتاج إلى رأيك يا محمود.

عدت للذكريات التي تم فتحها نتيجة لقائي مع عفاف.
تم القبض عليّ في مطار القاهرة، انتظرتُ في غرفة مغلقة لمدة ساعتين، ثم جاء من يخبرني أنني مقبوض عليّ وأنني ذاهب للتحقيق، أخذوني من المطار في سيارة ترحيلات كبيرة، غطوا عينيّ برباط أسود طوال الطريق ولم يرفعوه إلا وأنا في زنزانتي، فتحت عيني فوجدت صُولًا ضخم الجثة يغلق الباب من الخارج وانصرف دون كلمة، الزنزانة صغيرة بطول وعرض مترين، خاوية تمامًا، باب معدني ضخم، نافذة صغيرة جدًا على ارتفاع ثلاثة أمتار، سقف مرتفع جدًا، جدران سقط عنها الطلاء وغطّتها الرطوبة، أرض إسمنتية غير نظيفة، لا شيء غير هذا.
أسبوع كامل في الزنزانة، لا تحقيق، لا أسئلة، فقط نفس الصُّول يقودني مرة في اليوم إلى حمام في آخر ممر طويل به صفين من أبواب بنفس شكل باب زنزانتي، ثم يعطيني زجاجة مياه يميل لونها للاصفرار وبعض الطعام دون أن ينبسّ ببنت شفة.

إنهم يلعبون معي حربًا نفسية، هذا لن يفلح معي، قضيتُ الوقت في محاولات فكّ الرسائل، ثم إعادة إقفالها بأقفال جديدة.

بعد أسبوع كامل بدأ التحقيق، كنتُ جالسًا على الأرض في زنزانتي حين شعرت به في عقلي، لا أعرف شكله، ولكني شعرتُ به يقف أمام الخزانة ففتحت له الباب؛ فدخل متوجسًا وأخذ يتفحص صف الخزائن الصغيرة، ثم مد يده نحو إحداها، فجأة بدأ يسمع صوت الطرق، كأن أحدهم يطرق على شيء معدني، ثم بدأ قذف الحجارة، جموع من الناس تجري "سمعت الإنذار؟ هناك هجوم من ناحية المتحف" إنه ميدان التحرير، هو في وسط الميدان المعتصمون بالميدان يجرون ناحية المتحف ليمنعوا دخول المهاجمين، نظر إليّ وقال:

-أنت تعرف لماذا أنا هنا، أعطني الشيء الذي عندك وإلا لن يتركوك.

-وما هو الشيء الذي عندي؟

*الرسائل التي استلمتها في العراق.

-لم أستلم شيئًا في العراق، فقط سلّمتُ رسالة وقابلتُ مقتحمًا ومنعته من الدخول، لقد قلت ذلك من قبل.

*لماذا هربتَ إذَن؟

جذبته بعيدًا عن مرمى الحجارة التي يتقاذفها الطرفان، وقلت:

-فقط لم أعد أستطيع العمل.

*ستضطرني لأن أبحث بنفسي.

-تفضل.

قلتها واختفيت من أمامه فوجد نفسه في مواجهة جمل مندفع يلوح راكبه بعصا غليظة.

****

تكررت محاولات الاقتحام، وأخذ المقتحم كل مرة يجرب طرقًا جديدة ويستعمل أدوات جديدة، كانت طرقه بدائية ولكنها كانت مسلية على أي حال.
ثم بدأ يستعين بمقتحم آخر على أمل أن يشتّت أحدهم تفكيري، بينما يتسلل الآخر للبحث عما يريد، بالفعل كان الأول يقاوم جموع المحتفلين بفوز المنتخب بكأس الأمم الإفريقية ويحملون صور حسن شحاته ومحمد أبو تريكة وعصام الحضري ملوّحِين بعلم مصر وقاطعين عليه الطريق، بينما كان الثاني يتسلل ويعالج قفل إحدى الخزائن بسرعة حتى استجاب له وفتح الباب بسرعة؛ فوجد نفسه خارج الخزانة الرئيسية، وقف يتلفّتُ في دهشة، هو طبعًا لم يرَ من قبل الخزائن المتداخلة.

****

بعد أسبوع من المحاولات كان التحقيق الحقيقي الأول.
*اسمك وسنك وعنوانك.
-ياسر علي محمد الجندي، ٣٣سنة، مقيم في ١١ شارع السمنودي ٣ بالمنصورة.
*عملك؟
-أعمل مترجمًا بوزارة الخارجية.
*ما سبب تغيبك عن عملك طوال تلك المدة؟
-كنت مريضًا ولم أستطع العودة لممارسة عملي.
*وأين كنت؟
-في لندن.
*ما قولك في اتهامك بتسريب أسرار تهدد الأمن القومي أثناء مهمة لك بالعراق؟
-لم يحدث.
*هل كنت على اتصال بجماعات إرهابية في العراق لها علاقة بتنظيم القاعدة؟
-لا.

*حسنًا أنت متهم بأنك حصلت أثناء عملك بوزارة الخارجية على أسرار تمس الأمن القومي فهربت بها، ثم انضممت إلى جماعة إرهابية، فما أقوالك؟

-أية أقوال؟ هل يوجد أي دليل على هذا الاتهام؟

*أنا فقط من يطرح الأسئلة وأنت هنا لتجيب على أسئلتي.

-أنا أنكر كل هذا تمامًا.

****

بدأت مرحلة أخرى من الحرب النفسية، الجوع والعطش، أيام متواصلة لا أنال فيها إلا شربة ماء.

ثم محاولات اقتحام جديدة.

طرْقٌ مستمر على باب الزنزانة وسكب الماء البارد على الأرض، لا نوم لأيام متواصلة مع محاولات اقتحام جديدة.

مرحلة جديدة من التعذيب، لا حمام، يعطونني الماء والطعام، ولكن غير مسموح بالذهاب إلى الحمام، الزنزانة صغيرة جدًا ليس من الممكن استخدامها كمرحاض وفراش في نفس الوقت.

لم أعد أقوى على المراوغة والخداع فتركتهم يحاولون فتح الخزانة المصمتة بلا فائدة.

*****

هنا ظهرت نيرمين، رأيتها تنظر في انبهار للخزانة العملاقة المصمتة.

-أهلًا بكِ، كنت أتوقع ظهوركِ في أي وقت.

*ماذا حدث يا ياسر؟ لماذا أثرت كل هذه العاصفة؟

-أنا لم أُثِر شيئًا، أنا فقط أطلب أن يدعُوني وشأني.

*لماذا؟

-لأني لم أعد قادرًا على العمل معهم، لم يعد ضميري يتحمل.

*يتحمل ماذا؟! ما دخل ضميرك في الموضوع؟! عليك فقط أداء عملك، وذلك خدمة لوطنك وللإنسانية.

-تعرفين جيدًا أن من نعمل لأجلهم لا يخدمون وطننا ولا الإنسانية، هم يخدمون مصالحهم ويحافظون على سلطاتهم ونفوذهم فقط.

*وما دخلنا نحن، نحن لسنا رقباء على أحد، نحن مسئولون عن أعمالنا فقط.

-والدماء التي تسيل بسببنا.

*أية دماء؟! هل قتلنا أحدًا؟ نحن نقوم بعملنا فقط، أما إذا استغل شخص ما ذلك لفعل شيء شرير فعليه هو وزره.

-هذا إذا كنا نجهل ذلك، أما وقد عرفنا الحقيقة فقد وقع الوزر علينا.

*ياسر كفى فلسفة وأعطني الرسائل التي معك وينتهي الأمر.

فتحت باب الخزانة وأشرت لها:

-تفضلي ابحثي بنفسك.

*أنا لن أبحث عن شيء، ولكنك لابد أن تعرف أنها المحاولة الأخيرة، فإذا لم أخرج لهم الآن بالرسائل سيحيلونك إلى السفاح.

-ومن يكون السفاح؟

*لا أعرفه، ولكني سمعتُ أنه يستخدم أقصى درجات العنف والشراسة لاستجواب ضحاياه، وقد أحالوا ملفك إليه بالفعل.

-ومن يأبه.

*لماذا تصرّ أن تفعل بي ذلك؟

-ماذا فعلت بكِ؟

*ستظل على حماقتك دائمًا، لعنة الله على اليوم الذي قابلتك فيه، تستطيع بكل بساطة أن تلقي لهم ما يريدون وتخرج لتستمتع بنجاحك، وتتزوج الفتاة الحمقاء التي أحببتها وينتهي الأمر، ولكن لا، لابد لياسر الجندي أن يلعب دور

الشهيد ذي الضمير الوحيد اليقِظ وسط الغيلان والوحوش معدومي الضمير ويجعلهم يعذبوه ويدمروه، ويجعلني آتي إلى هنا لأتوسل إليه ألا يفعل ذلك بنفسه، أجل يا ياسر أنا أتوسل إليك أن تنقذ نفسك من أيديهم، أرجوك.

-أنا آسف يا نيرمين، لا أستطيع.

فقالت وسط دموعها:

-إذَنْ فقد كُتِبَ عليّ أن أفقدك مرتين أيها الأحمق.

*****

بدأ الاستجواب يأخذ منحنىً جديدًا.

البداية زنزانة جديدة تصل إليها أصوات التعذيب المستمرة ليل نهار، صراخ، بكاء، عويل، استغاثات، عذاب مقيم، هذا يحطم الأعصاب فعلًا، عدة أيام وأصوات التعذيب لا تنقطع.

ثم بدأ العمل

الرباط الأسود على العينين دائمًا.

في معظم الأحيان الاستجواب بدون ملابس.

صفعات، سخرية، ضحكات، انتهاكات، جَلد، حروق بالسجائر، تعليق بالحبال، كهرباء.

طوال الوقت أسمع الصوت العميق البارد يلقي أوامره باقتضاب. "اضربوه " فتنهال عليّ العِصيّ الغليظة أو الصفعات أو الركلات.

*كفى، هل ستتكلم؟

وعندما لا أرد يطلب زيادة الجرعة.

أدوات حادة، جروح، حروق، كدمات، آلام لا تحتمل.

هل هؤلاء بشر؟ أيًّا كان السبب الذي يعملون من أجله وأيًا كان ما يعتقدونه، هل هناك ما يبرر كل تلك الوحشية؟ كيف صنعوا منهم هذه الوحوش؟ وكيف يعود كل منهم لبيته وأولاده؟ هل لهؤلاء الوحوش بيوت وزوجات وأمهات وأولاد؟

هذا شيء لا أستطيع تخيله، تقضي نهارك تعذب في إنسان مثلك أيًا كانت جريمته ثم تعود لمنزلك تقبل يد والدتك وتطلب منها أن تدعو لك وتحمل طفلك الصغير وتداعبه، تقف لتصلي أمام الله في خشوع وتطلب رحمته. لا يمكن أن يكون الوضع بهذا الشكل أبدًا، لابد أنهم وحوش يأكلون الأطفال الرضع على الفطور ويشربون الدماء.

بدأت المرحلة التالية.

اقتحام أثناء التعذيب.

لا نتيجة.

فلنزيد جرعة التعذيب.

لا شيء.

فلنزيد عدد المقتحمين.

لا شيء.

سمعته يصرخ في غضب:

-لا أحد يصمد أمامي هل تفهم؟ لو اضطررت سأسلخك حيًا وأقطع جسمك قطعة قطعة.

سرَت الكهرباء في جسمي، يكاد مخي ينفجر وتهتز خلاياي كلها في جنون، رباااه، لماذا لا أموت الآن وينتهي هذا العذاب.

هنا شعرت بمقتحم يحاول اقتحام عقلي.

فجأة نحن في الشارع، الشارع مزدحم بأناس يجرون كلهم في خوف، ولكنهم مع ذلك يضحكون.

تلفّت المقتحم في دهشة، اللغة أقرب للإيطالية أو الأسب...

هنا فهم الأمر، هي الإسبانية فعلًا، إنه ذلك المهرجان السخيف الذي يتركون الثيران تطارد الناس في الشوارع، الثور الضخم ذو القرنين الحادين يجري نحوه، حاول أن يجري بحثًا عن مخرج ولكن قد فات الأوان.

هنا شعرت بمقتحم آخر يحاول الدخول، الألم الشديد يمنعني من التركيز، هو قد أحضر مدفعًا وأخذ يقذف الخزينة بقذائفه، مخّي يرتج والألم يعصف بي ثم فقدت التركيز والتحكم.

لا أدري ماذا فعلت، ولكني رأيت المقتحم والمدفع يطيران في الهواء، ثم سمعت الصوت العميق يقول في غضب:

-ماذا فعلت به أيها الحقير؟

بعدها شعرت بحذاء ثقيل يدوس ذراعي فسمعتُ صوت قرقعة وشعرت بألم رهيب ثم فقدت وعيي.

****

أفقت على ألم رهيب لا أعرف مصدره، لابد أن جسمي كله يئِنّ، ما أعرفه أني غير قادر على تحريك ساقي اليسرى وأن ذراعي اليمنى مائلة بزاوية غريبة وأي محاولة لتحريكها تصيبني بألم لا يطاق.

صرتُ أفيق وأفقد وعيي حتى تداخلَت الحالتان سويًا، فما عدت أعرف في أي مرحلة أنا.

وأخذت أفكر في جدوى ما أفعله، لماذا أتحمل كل هذا من أجل الحفاظ على أسرار أعرف أنني لن أستفيد منها بشيء ولن يستفيد منها أحد آخر، ربما لو حصلوا عليها لكانت سببًا في ضحايا آخرين، وماذا بعد؟! هم بالفعل مستمرون

في طغيانهم بدونها، حتى بعد قيام ثورة وسقوط ضحايا وإراقة دماء لم يتغير شيء في جوهر الأمر، فقط تغيرَت الأقنعة، فما فائدة ما أحمله وأحفظه وأتحمل من أجله، ترى هل يأتي اليوم الذي أستطيع استغلال تلك الرسائل في كشف الظلم، ولكن كيف؟

توقفتُ عن التفكير وبدأت في مرحلة الهلاوس، صرتُ أتكلم مع عُلا ومحمود وعفاف وطارق وسامح، رأيت والدة طارق تطردُني من منزلها وتأمر ابنها ألا يكلمني مرة أخرى؛ لأني خريج سجون وصار لي سوابق إجرامية، والد عُلا يضع ساقًا فوق أخرى ويقول: هل تعتقد أن وجودك في السجن هو دليل على أنك إنسان غير مستقيم ولديه ميول إجرامية؟، الأستاذ أمين يقف في الشرفة ويقول لي مهنئًا: الحمد لله على السلامة يا أستاذ ياسر، كفارة، والله إني نويت أن أجيئك في الزيارة القادمة وأحضر لك (عيش وحلاوة). أسماء تميل على أذن عُلا هامسة فيحمرّ وجه عُلا غضبًا وتنصرف بينما تحمل أسماء ورقة عليها رقم وتحملها أمام صدرها محاكية الصورة الشهيرة للمساجين.

ثم وجدتُ أبي يفتح باب الزنزانة وينظر نحوي بغضب، ثم قال:

-لماذا أنت مستسلم هكذا؟ هل هذا ما علمتكَ إياه؟

-لم أعد أقدر يا أبي لقد تعبت.

*ابني لا يستسلم أبدًا، أنت أقوى منهم جميعًا، حتى في أضعف حالاتك ستنتصر عليهم.

-وكيف أنتصر عليهم وهم غيلان يحيطون بي من كل جانب، لا يتورّعون عن تقطيعي إربًا، لا يردعهم ضمير ولا دين ولا شفقة، وأنا لا حول لي ولا قوة.

*أنت فقط تعتقد ذلك أنت بالفعل منتصر عليهم، يتبقّى لك فقط جولة واحدة ويكتمل انتصارك وتكون قد أدّيتَ دوركَ بالشكل الأمثل الذي يجعلني فخور بك.

-وما معنى انتصاري وأنا بين أيديهم؟ وما هي الجولة الأخيرة؟
* الجولة الأخيرة غالبًا ما تكون الأصعب، ولكني متأكد أنك ستنتصر فيها، سأتركك الآن لأن هناك ضيف جاء يطرق بابك.

هنري ماكجراث.
وجدته يقف أمام الخزانة، فتحتُ الباب وتركته يدخل.
كنا نجلس في شرفة منزلنا في المنصورة، نظر حوله في دهشة وقال:
-أول مرة تدخلني في عقلك.
فقلت مبتسمًا:
-أهلًا وسهلًا، أنت الآن ضيفنا في مصر.
"أهلًا وسهلًا يا أستاذ هنري، نورت المنصورة، لابد أن تمر عليّ نشرب الشاي سويًا"
كان هذا الأستاذ أمين يقف وقفته الدائمة في شرفته المقابلة لنا لا ينافسه فيها إلا شخصية عم شكشك الشهيرة في مسلسل الأطفال بوجي وطمطم.
*عفوًا يا سيدي، هل تعرفني؟
-طبعًا وهل يخفى القمر، أنا أنتظر هذه الزيارة منذ سنوات.
فنظر هنري نحوي بدهشة وقال:
-من هذا؟
فقلت ضاحكًا:
-هذا هو الأستاذ أمين جاري.
*وكيف يعرفني؟ وينادي باسمي الأول أيضًا؟
-الأستاذ أمين يعرف كل شيء في الدنيا، لابد أن تستعين به في فريقك فهو موسوعة شاملة.

نظر ماكجراث نحو الأستاذ أمين في شك، ثم قال:
-ربما، المهم دعنا من هذا، لقد جئت من الولايات المتحدة خصيصًا من أجلك، ويبدو أنني جئت في الوقت المناسب، ورغم أني غاضب منك بشدة، ولكن غضبي الأكبر كان بسبب ما فعلوه بك، هؤلاء القوم تحولوا بالفعل إلى وحوش، حتى الحيوانات لا تفعل ما يفعلونه.
-ألم يتخرّج هؤلاء من تحت يديك؟
*لا طبعًا، نحن لا نعمل بهذا الشكل، ولقد حذّرتُهم مرارًا من هذا الطريق الخطر، ولكنهم صمّموا على المضي في طريقهم، هذا الفتى يملك من القدرات ما يمكنه من فعل الكثير ومن تغيير موازين القوى، ولكنهم لم يستمعوا إليّ وحولوه إلى وحش بري، لذلك لم أخبرهم ولم أخبره هو نفسه بأمر قدراته، وعندما رأيتُ ما فعلوه بك انفجرت فيهم وطلبت نقلك إلى المستشفى لعلاج إصاباتك الكثيرة والتي وجدوا من ضمنها كسر بالساق وكسر مضاعف بالساعد، وهو ما يحتاج إلى عملية تثبيت يتم إجرائها لك الآن بينما نحن نتحدث.
-وماذا بعد علاجي؟ هل سيطلقون سراحي أم أنه فقط بهدف الحفاظ على حياتي حتى تستكمل عملية استجوابي؟
*ياسر، لماذا تفعل هذا؟ أنت رجل ذكي، لماذا تضيّع كل شيء الآن؟
-سيدي، أنا أحاول الحفاظ على آخر شيء من الضياع بعدما ضاعت معظم الأشياء.
*لماذا لا تسلّمنا الرسائل التي معك وينتهي الأمر؟
-وماذا ستفعلون بها؟
*هذا شأننا، نحن نعرف عملنا جيدًا، عليك فقط أن تثق بنا.
-ولماذا أثق بكم؟ كي تستمروا في طغيانكم وظلمكم بحجة حماية مصالحكم؟

*نحن نحمي العالم من الإرهابيين والطغاة المستبدين.
-هل تصدق هذا فعلًا؟ لا أعتقد.
*وكيف نثبت لكَ هذا؟ هل من المطلوب أن نطلعَك على تفاصيل عملياتنا بالكامل وأهدافها ونتائجها؟ هذا غير ممكن يا ياسر وغير منطقي أيضًا.
-وما هو المنطقي؟! أن أمشي معكم مغمض العينين حتى أجد نفسي وسط مستنقع من الدماء؟!
*ولماذا ترى أننا نقف في مستنقع دماء، نحن فقط نقوم بعملنا، هل تعتقد أننا لو توقفنا عن العمل سيكون العالم أفضل؟ بل العكس، ستزيد الحروب والعمليات الإرهابية وسيعيث المجرمون في الأرض فسادًا، أنت بالضبط الآن مثل الطبيب الذي مات منه مريض أثناء إجراء عملية جراحية؛ فقرر أن العمليات الجراحية إجراء ضار بالمرضى ويجب إيقافه.
-ليس الأمر كذلك، الأمر كالأسد الذي قرر أن يحمي الخراف من الذئب بشرط أن يأكل هو كل يوم واحدًا منهم.
*لا داعي لهذا الكلام، لقد قلتُ لكَ أنني جئت في الوقت المناسب؛ لأنك لا تعرف علامَ كان يخطط ذلك الوحش للمرحلة القادمة من استجوابك.
-وماذا كان سيفعل أكثر مما فعل؟
*كان سيستخدم عفاف وعُلا ليجعلك تتكلم، ألم أقل لكَ أنهم حوّلوه إلى وحش؟ المهم الآن أنني سأتركك يومين حتى تتعافى وتفكر مليًا بعدها لك الاختيار، أستطيع أن أقنعهم أن يعيدوك إلى عملك ويصفحوا عما حدث بشرط أن تسلمني الرسائل، وإلا سوف أتركك للسفاح ووسائله المرعبة.
قالها ووقف لينصرف.
"لماذا أنت متعجل يا أستاذ هنري، هذه الزيارة لن تحتسب، الزيارة القادمة لابد أن تشرفنا في منزلي"

كانت هذه من الأستاذ أمين، فرد عليه ماكجراث بنظرة غاضبة وانصرف.

*****

بعد يومين جاءني في المستشفى، كنت راقدًا في الفراش وقد أحاطت جبيرة بساقي اليسرى بالكامل، بينما كانت الجبيرة حول ذراعي اليمنى يخرج منها أسياخ معدنية مثبتة من الخارج بقضيب معدني طويل، باقي جسمي قد غطّته الضمادات، ابتسم وقال:

-سنقول إنك تعرضتَ لحادث، وبعد شفائك تعود لعملك كأن شيئًا لم يكن، هل اقتنعتَ بما قلتُه لك؟

-للأسف لا.

نظر لي ماكجراث في برود كأنه كان يتوقع ذلك، ثم قال:

-هل تعرف أنها فرصتك الأخيرة بعدها سأتركك لذلك السفاح ليفتَرسك؟

أشحت بوجهي ولم أرد، فقال:

-حسنًا، هناك ضيف جاء ليزورك وقد اشتاق إليك كثيرًا.

فتح الباب فوجدت خلفه بيست.

كان قد زاد هزالًا وزادت عينيه جحوظًا، كان يجلس على كرسيّ متحرك دفعه لداخل الغرفة ثم أغلق الباب.

-"هيا يا بيست، هذا هو صديقك القديم الذي أهانك وأسقطك عن عرشك، هذه فرصتك لترد اعتبارك"

****

الجولة الأخيرة

بيست يركب دبابة ضخمة ويطلق قذائف متتالية على الخزانة، الخزانة صامدة حتى الآن ولكن إلى متى؟

يبدأ الجنود بإلقاء القنابل على الدبابة ويصيحون (الله أكبر)، ولكنها تستمر في إلقاء قذائفها على الخزانة التي يظهر بها شرخ صغير، مجموعة من الجنود يستخدمون مضخات مياه قوية لإذابة الرمال فتبدأ التبّة التي تقف عليها الدبابة في الانهيار وتميل الدبابة في عنف، محمود ياسين يختبئ خلف الخزانة ويحمل مدفعه الـ "آر بي جي" ويصوبه نحو الدبابة، بيست يقفز من الدبابة ويتدحرج على الرمال قبل أن تصيبها القذيفة، مجموعة جديدة من الدبابات تقترب.

بيست يقف بعضلاته المفتولة وجسده الممشوق، وفجأة يتحول لرجل في الستين من عمره يرتدي خوذة معدنية غريبة وحرملة ويشير إلى الخزانة بيديه، يتحول الشرخ الصغير إلى فتحة في جدار الخزانة وتتسع ببطء، إنه يتحول إلى "ماجنيتو" ذلك الرجل الذي يتحكم في المعادن في أفلام X men.

-لقد ربحتَ هذه الجولة يا بيست، أراك تطورتَ كثيرًا.

فضحك بيست عاليًا:

-هل رأيتَ أيها الصندوق الأسود، لقد تعلمتُ منك، منذ لقاءنا السابق وأنا أتدرب على استخدام خيالي لتحقيق ما أريد، ومنذ اختفيتَ أنت وأنا أتدرب مع ماكجراث على استخدام أسلوبك الخاص حتى صرتُ أتقنه وأتوقع ردود فعلك، كل ذلك من أجل هزيمتك.

-وما الفائدة من ذلك يا بيست؟! هذا ليس تدريبًا، المعلومات التي تسعى ورائها لو وصلت إليهم سيكون هناك الكثير من الضحايا.

*لا يهمني، ما يهمني فقط هو هزيمتك.
قالها وانطلق يجري ودخل من الفتحة التي صنعها ماجنيتو في الجدار، ثم انطلق نحو أقرب خزينة، وصوّب عليها طلقة ليزر من مدفع غريب معه؛ فانفتح بابها فوجد نفسه بالخارج مرة أخرى.
"اللعنة على خزاناتك المتداخلة"
قالها وانطلق نحو الفتحة مرة أخرى فوجد مجموعة من الآليين يواجهونه بطلقات الليزر، عندها انقسم بيست إلى نسختين ثم إلى أربعة ثم إلى ثمانية.
"هذه خدعتي الجديدة أيها الصندوق الأسود، لنرى إلامَ ستصمد."
بيست يقود صف الدبابات في مواجهة الجنود، بيست يقف كماجنيتو ويشير بيديه فيزيد اتساع الفتحة في الخزانة، بيست يتسلّل من الفتحة إلى الداخل ويلقي بقنابله في كل مكان، بيست يعالج إحدى الخزائن ويفتحها فينهمر منها الماء ليغمر كل شيء.
يلتقطه بحارة السفينة غريبو الشكل فيصعد بيست الذي تحول وجهه إلى أخطبوط مخيف ويهتف بهم، هيا يا طاقم سفينة (الهولندي الطائر) أطلقوا مدافعكم على تلك الخزائن.
اللعنة لقد تحول إلى "ديفي جونز" هذا الفتى خياله واسع بالفعل، لابد من مجاراته.
تظهر سفينة (اللؤلؤة السوداء) وعلى متنها جاك سبارو وطاقمه من خلف (الهولندي الطائر)، وتبدأ في إطلاق النار عليها.
يضحك ديفي جونز عاليًا:
-لا تحاول مجاراتي أيها الصندوق الأسود، يا رجال، أطلقوا النار على اللؤلؤة السوداء.

بيست يقف أمام خزانة ويفتحها بسهولة عن طريق سيف الليزر الأحمر ويرتفع صوت تنفسه وهو ينظر داخلها وقد تحول وجهه إلى قناع أسود غريب.
"دارث فيدر".
يقطع عليه الطريق سيف أزرق براق يحمله مخلوق أخضر غريب ذو أذنين كبيرتين.
(يودا ابتعد عن طريقي)
وتبدأ مبارزة رهيبة ويتناثر الشرر مع التقاء سيفيهما.
لا أستطيع التركيز، الوغد يهاجم من كل ناحية في وقت واحد.
إذا ركزت مع دارث فيدر، ضربتني قذائف دايفي جونز، فأعود وأقود اللؤلؤة السوداء مع جاك سبارو لمواجهته، حينها تبدأ الدبابات في قصف الخزانة، الجنود لا يستطيعون مواجهتها، لابد من غطاء جوي، فلنستعِن بالطائرات، هنا ماجنيتو يكون صنع فتحة أخرى، لا بد من الاستعانة بتشارلز زافيير وفريق X men، فولدمورت يطير داخل الخزانة ويلوح بعصاه ملقيًا تعويذاته مدمرًا كل شيء، لابد من مواجهته، هنا يظهر ألباس دمبلدور بلحيته البيضاء ويلوح بعصاه في مواجهته، بينما هاري بوتر يطير على مكنسته محاولًا الهجوم من الخلف. مجموعة من الديناصورات تجري وتهز الأرض بعنف، سفن فضائية تطير هنا وهناك وتدمر بأشعتها في كل اتجاه، (س-١٨) يواجه السفن الفضائية ويحاول حماية الخزائن.
بدأ عقلي يدور، لن أستطيع التركيز على كل هذه الجبهات، تكاد تنفجر خلايا مخي.
قردُ جاك سبارو يحاول نزع خوذة ماجنيتو.
ستورم تطلق عاصفة قوية.
"أطلقوا النار"

"يودا لقد صرت عجوزًا ولن تستطيع مواجهتي "
"إكسبليارموس"
"كاليبسووووو"
"الله أكبر "
" (س-١٨) في خدمتك يا سيدي"
" أڤادا كاداڤرا"
"بيييييييست"
تردّد صدى صرختي فظهر بيست عملاقًا مفتول العضلات يضحك في جنون.
-لن أستطيع السيطرة على كل ذلك طويلًا، وإن فقدتُ سيطرتي سيكون ذلك خطرًا على كلينا.
فضحك عاليًا وقال:
-ومن يهتم بهذا، المهم أن أرى هزيمتك.
أشرتُ إلى الوجوه الخائفة التي تجري حولنا، وجوه أسيوية صفراء ثم إلى الطائرات التي تلقي قذائفها علينا وعليهم:
-انظر جيدًا أين نحن، هذه هيروشيما لا تضطرني لهذا.
ضحك في جنون وقال:
-لا يهم، لا يهم.
فدوى انفجار كبير واختفى كل شيء.

****

مشى هنري ماكجراث بحذر وسط الأنقاض، أخذ ينظر بدهشة لجدران الخزانة التي ظهرت بها الشقوق واسودّ لونها، خزائن محطمة، دبابات محترقة، سفن فضائية مدمرة، دمار في كل مكان. اتجه نحو صف من الخزائن بقيَ سليمًا بعض الشيء، اقترب من خزانة بعينها، أخذ يعالج قفلها بلهفة،

ابتسم عندما سمع تكة خافتة انفتح بعدها الباب ثم....
شعر بطرف السيف أسفل ذقنه.
"لا تتحرك"
*ياسر، هل أنت هنا؟ ظننتُ أنك.....
-ظننتُ أنني ماذا؟
*أقصد بعد معركتك مع بيست ظننتُ أنك....
ضغطتُ بطرف السيف أكثر وقلت:
-ظننتَ ماذا؟ قل، ماذا حدث لي؟
*لقد دخلتَ في غيبوبة واكتشف الأطباء أنك أُصِبتَ بنزيف في أغشية المخ، وقد يتطلب الأمر تدخلًا جراحيًا.
-أعرف شخصًا جاء يكلمني عن وحشية السفاح واعتراضه على التعذيب الذي تلقيته، وقال أنه جاء في الوقت المناسب لينقذني من أيديهم، أهذا ما كنت تقصده؟ فعلًا لن يستطيع السفاح تعذيبي بعد الآن.
*ياسر، لم أكن أعرف أن هذا سيحدث صدقني، ولم أقصد إيذاءك قط.
أنزلت السيف وقلت:
-كفى كذبًا، أنت مثلهم بل أكثر منهم وحشية، فقط تغلّف ذلك بغلاف من التحضر، لكنك لا تتورع عن حرقي حيًّا لتحصل على ما تريد. ماذا جاء بك الآن؟
*حسنًا لقد جئتُكَ بعرض جديد.
-لقد اكتفيتُ من عروضك، انظر إلى الدمار من حولك، ماذا ستفعلون بي أكثر من هذا؟
*لقد اتصلتُ بصديقي القديم إيهاب عز الدين، هو الوحيد القادر على تنفيذ هذا العرض، أعرف أنك كنت على اتصال به، لقد رصدنا اتصالًا بالبريد

الإلكتروني بينكما، ولقد وافق على قطع عزلته وتقاعده من أجلك، غدًا يأتيك ويحمل لك عرضنا الأخير، أعتقد أنه قادر على إقناعك.

-وماذا سيكون عرضكم القادم، أن أتبرع بمخي للأبحاث العلمية أم ستتركون لي اختيار الطريقة التي أموت بها، طبعًا لابد أن تكون طريقة متحضرة تليق بكم.

*ياسر، لا تظلمني، لم يتوقع أحد أن تصل الأمور لهذا، كانت فقط محاولة أخيرة إن استطاع بيست الحصول على الرسائل كان بها، وإن لم يستطع فلن نخسر شيئًا، ولكن مواجهتك معه دخلَت في مستويات غير معروفة ولا مسبوقة وخرجت عن سيطرتنا، وحتى الآن لا نعرف كيف حدث ما حدث.

-وأين هو بيست؟

لم يرد عليّ؛ فرفعت السيف مرة أخرى ووضعته على عنقه.

-أجبني، ماذا حدث له؟

*لقد مات.

-ماذا؟! مات؟! كيف حدث هذا؟

*لا نعرف، كان يجلس أمامك ويصرخ في حماس ويضحك في جنون وفجأة مات.

صرخت فيه:

-هذه ثمار ما زرعتَه أنت، ظللتَ توقد نار غضبه وأخذتَ تدربه على أسلوب عملي وطريقة مراوغاتي، جعلتَ هزيمتي هي هدف حياته الوحيد، لقد قتلتَه أنت ولكن بيدي أنا، هذا ما تسعون إليه، تحولونني إلى قاتل، تغرقونني في الدم حتى تتساوى الرؤوس، الآن إن تكلمتُ ستقولون لي أي ضمير تتحدث عنه كيف تتكلم عن دماء الأبرياء بينما لم تجفّ دماء ضحيتك بعد، هذا ما كنتم تريدونه، والآن ما دمتُ صرتُ قاتلًا فيستوي قتل ضحية مع اثنتين.

قلتها ورفعت سيفي عاليًا وهويت به عليه، لكنه كان قد اختفى.

*****

"الشيخ صابر؟! كيف جئت إلى هنا؟"

*لقد عدتُ من أجلك يا ياسر.

-وكيف وصلتَ إلى هنا؟

*في الحقيقة هم من اتصلوا بي وطلبوا حضوري لأعرض عليك عرضهم.

-ولماذا طلبوك أنت بالذات؟

*أولًا لقد رصدوا اتصالك بي عن طريق الإيميل فعرفوا أننا على اتصال، ثانيًا لأنني الوحيد القادر على تنفيذ هذا العرض.

-ولكن ماكجراث قال أن الوحيد الذي يستطيع تنفيذ العرض هو الدكتور إيهاب عز الدين.

*ياسر، أنا الدكتور إيهاب عزالدين.

-ماذا؟! ولماذا أخفيتَ ذلك عني طوال هذا الوقت؟

*يا بني، في عالمنا هذا كلما عرفتَ أقل كلما كان هذا أأْمنَ لك.

-عمومًا لا داعي لهذا يا شيخ صابر، أنا أرفض عرضهم مقدمًا، فأنا لم أعُدْ أثق فيهم البتة، ثم إنني لم يعد لديّ ما أخسره؛ عملي، حياتي، أسرتي، جسدي لقد خسرتُ كل شيء، وها أنا في غيبوبة أرقد بين أيديهم.

*لا زال لديك الكثير مما يجب ألا تخسره، سوف يتم إجراء عملية لسحب التجمع الدموي الذي أُصبتَ به، بعدها إن شاء الله يعود إليك وعيك، بالتالي لا زال لديك فرصة أن تستعيد حياتك وأسرتك، ولديك أيضًا تضحيتك ومبادئك التي دافعت عنها باستماتة، هل تريد أن تضيّع تضحيتك هباءً؟ أليست هذه خسارة؟

-وماذا بيدي أن أفعل؟

*استمع إليّ، عرضهم ينقسم إلى شقّين؛ الأول أنهم وافقوا أن يفرجوا عنك ويعيدوك إلى عملك وحياتك بشرط أن تتخلى عن موهبتك حتى يضمنوا ألا يستغلها أعدائهم.

-وكيف أتخلى عنها؟

*هنا يأتي دوري، لقد كنت طوال الأعوام السابقة أجري دراسات عن تأثير هذه القدرات على أجسادنا، أعتقد أنك لاحظتَ أننا نتقدم في العمر أسرع من الآخرين، إن هذه القدرات تستهلك أجسادنا تمامًا، ليس هذا فقط، من يصل لسن الشيخوخة يكون مصيره ما بين الجنون والخرف والانتحار، فبدأت أحاول تحديد المراكز المسئولة عن النشاط الذهني الزائد المتسبب في هذه القدرات، بالتالي يمكننا نظريًا إذا حدّدنا أماكن هذه النقاط أن نتحكم في هذه القدرات أو نستأصلها.

-أي أنك تريد أن تقوم باستئصال الجزء المسئول عن قدراتي من مخي؟

*ليس بالضبط، الدراسة كانت عن كيّ باستخدام المنظار لنقاط صغيرة، ولكن بما إنك بالفعل تحتاج إلى عملية جراحية لتفريغ التجمع الدموي خارج أغشية المخ فستكون الأمور أسهل، بعدها تعود لحياتك دون مطاردات وينتهي كل شيء.

-وماذا عن الرسائل التي ضحيت بكل شيء من أجل الحفاظ عليها؟ لو تخليت عن موهبتي سيتمكنون من اختراق عقلي بسهولة وسيحصلون عليها.

*هنا يأتي دور الشق الثاني من العرض، سننقل هذه الرسائل في حقيبتها إلي عقل شخص آخر، بالتالي تكون مهمتك انتهت وآلت المسئولية إليه.

-وكيف نضمن أن هذا الشخص سيتمكّن من الحفاظ عليها؟ هذا إن لم يسلمها لهم بمحض إرادته.

*لابد أن يكون هذا الشخص قادر على الحفاظ عليها، بالإضافة أننا سنضع على الرسائل قفلًا لا يفتح إلا لشخص مستعد للحفاظ عليها بحياته.

-وكيف سنجد هذا الشخص الذي لديه القدرة على حماية الرسائل وفي نفس الوقت مستعد للتضحية بأي شيء من أجل حمايتها؟ وبعد ذلك كيف نقنعه بقبول حمل هذه التركة الثقيلة؟

*لقد وجدته بالفعل.

-ومن يكون؟ هل أعرفه؟

*لا أعرف إن كنت رأيته من قبل، ولكنه كان قريبًا منك جدًا في الفترة الأخيرة، إنه الشخص الذي كان مسئولًا عن عملية استجوابك.

-ماذا؟ السفاح؟ لابد أنك تمزح يا شيخ صابر.

*****

14
النهاية

" ياسر، ماذا بك؟ "

- لا شيء يا محمود، فقط ذكرى سيئة.

*هل تذكرتَ شيئًا جديدًا؟

حكيت له باختصار عن السجن والاستجواب والتعذيب والمعركة مع بيست، ثم عن عرض الشيخ صابر.

فقال محمود مفكرًا:

-ماذا يعني هذا؟ هل انتهى جسدك الأصلي؟ هل هذا جسد السفاح فعلًا؟ ولماذا سيوافق على منحك جسده وعلى حماية الرسائل التي كان يعذبك حتى تسلمها لهم؟ هناك شيء غير مفهوم في الأمر.

-شيء واحد؟ بل الكثير من الأشياء، أتمنى أن نجد الإجابات عند الشيخ صابر.

كنا قد وصلنا إلى الإسكندرية، نزلنا من الأتوبيس ثم بدأنا في خطة التمويه، وبعد ساعتين من التنقل داخل الإسكندرية بمختلف وسائل المواصلات شعرتُ أنهم فقدوا أثرنا فقلت لمحمود:

-كفى، لم أعد أشعر بهم.

فاتجهنا نحو العنوان الذي أحفظه جيدًا.

شاليه صغير على البحر، طرقنا الباب، ولما فُتح الباب وجدتُ أمامي الشيخ صابر.

-"تفضلا، الحمد لله على سلامتكما، كنت أعرف أنكما ستصلان إلى هنا حتمًا."

سار أمامنا وقد انحنى ظهره وتحول شعره إلى لون الثلج، ثم جلسنا في صالون بسيط.

-شيخ صابر، هناك الكثير من الأشياء لا نفهمها وننتظر منك أن تشرحها لنا، أولًا كيف انتقلتُ إلى هذا الجسد؟ وهل هذا جسد السفاح فعلًا؟ وأين جسدي الأصلي؟

فقال محمود:

-الأهم كيف أقنعت ياسر بالعرض؟

قال الشيخ صابر:

-ما هو آخر شيء تذكره؟

-عندما قدمت لي العرض العجيب.

*حسنًا، كان من المنطقي جدًا ألا يوافق ياسر على العرض، فهل من المعقول أن يسلم الرسائل التي استمات في الدفاع عنها وضحى بكل شيء في سبيل حمايتها إلى الشخص الذي كان يحاول وبكل قوة الحصول عليها وتسليمها؟ ولكني استطعت أن أوفر له الضمانات الكافية حتى وافق.

فقلت:

-ضمانات؟! أي ضمانات تلك القادرة على إقناعي بتسليم الرسائل للسفاح؟

*أولًا شرحتُ له نظريتي عمن سميتماه (السفاح) وعن قابليته للتغيير وإمكانية الاعتماد عليه في حفظ الرسائل، ثم بعد ذلك لضمان عدم فقد الرسائل -في حال فشل نظريتي- وضعنا على الرسائل أقفالًا جديدة لا تُفتَح إلا لشخص على استعداد لحمايتها بحياته، بالتالي حتى لو سلّمها لهم السفاح أو لو اقتحموا عقله وأخذوها لن يستطيعوا فتحها.

قال محمود:

-وكيف أقنعت السفاح بقبول ذلك؟

*لم أقنعه، هو تطوع للمهمة، كبرياؤه لم يسمح له أن يفشل في مهمة لأول مرة، كان على استعداد لعمل أي شيء لتنفيذ مهمته والحصول على الأسرار التي مع ياسر، وعندما شرحتُ له خطورة المهمة وخطورة تحمل مسئولية الرسائل وأنه قد يفقد ذاكرته مؤقتًا أصر على موقفه.

فقلت:

-وكيف انتقلت أنا لجسده إذًا؟

ابتسم الشيخ صابر ونظر إلى محمود الذي ابتسم بدوره، ثم قال الشيخ صابر:

-كانت نظريتي أننا إذا عرضناه لنفس الظروف والمشاعر والذكريات والمبادئ سيُحدِث ذلك تغييرًا يمحي ما زرعوه فيه، كنتُ أراهن على التماس الذي سيحدث بين روحيهما حتى يمحو عنه القشرة الصلبة التي صنعوها له ونصل لجوهره الذي رأيته أنا عندما دخلت في رأسه، كان من الصعب حقًا إقناع ياسر باستخدام أدقّ أسرار حياته الشخصية ومشاعره، ولكنه في النهاية وافق.

قال محمود بلهفة:

-وأين هو إذًا؟

فأشار الشيخ صابر نحو باب شرفة تغطيه الستائر في آخر الردهة، وقال:

-هناك، بانتظارك حتى يعود معك إلى المنصورة.

فانطلق محمود بسرعة وأزاح الستائر وفتح الباب الزجاجي؛ فرأيت رجلًا يجلس على كرسي متحرك وظهره لنا، وسمعت صرخة فرح من محمود الذي ركع على ركبته بجواره وأخذ يحتضنه بقوة، لم أستطع أن أرفع عينيّ عنهما في ذهول، وقلت للشيخ صابر:

-لست أفهم شيئًا، هل هذا معناه أنني لست ياسر؟!

فأومأ الشيخ صابر برأسه.

فقلت مذهولًا:

-وهل كان محمود يعرف ذلك؟

*ليس بالضبط، هو ذكيّ جدًا، مما قرأته في عقله أنه كان يشعر أنك صادق، ولكنه كان يشعر أن ياسر لازال موجودًا بجسده.

-وهل أنا فعلًا السفاح؟

*أجل أنت هو، وإن لم تعد تستحق هذا الوصف.

-وكيف إذن أشعر أنني ياسر بكل ذكرياته ومشاعره ومبادئه ولا أذكر أي شيء عن السفاح؟

*هذه هي العملية الكبرى التي خاطرنا باستخدامها للمرة الأولى، وكان من الممكن أن تقضي على أحدنا أو ربما ثلاثتنا، حتى أنني دخلتُ في غيبوبة بعدها لعدة ساعات، لقد نقلتُ ذكريات ياسر وحياته ومشاعره إلى عقلك، ثم قمت بإغلاق ذكرياتك أنتَ، ووضعتُ ذكريات ياسر في حقائب مغلقة بمفاتيح بحيث تتذكرها تدريجيًا حتى تُحدث التأثير المطلوب.

-وهل يعرف الثعالب بهذه العملية؟

*هم يعرفون فقط أننا سننقل الرسائل من ذاكرة ياسر لذاكرتك، والطريقة الوحيدة لذلك هي نقل ذاكرة ياسر بالكامل إليك، لكنهم لا يعرفون شيئًا عن الأقفال الجديدة التي أضفناها.

-لستُ أفهم، ما هو التأثير المطلوب؟! أن أتحول إلى ياسر؟

*لا ليس كذلك، فقط كنت أريدك أن تعيش حياته وذكرياته ومعاناته ويحدث التماس بين روحيكما، وراهنت أن ذلك سيجعلك تفيق مما كنت فيه.

-وما الذي جعلك تثق أن ذلك يغيّرني؟ ماذا إذا عدتُ إلى سابق حياتي وعدتُ سفاحًا مرة أخرى؟

فابتسم الشيخ صابر وأشار بسبابته إلى رأسي:
-لا تنس أنني كنت في الداخل هنا، وأعرف عنك أكثر مما تعرف، وأعرف أنك أهلٌ لتحمل المسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقك، ولتعرف أن لذلك حكمة بالتأكيد.
-حكمة؟! ما أكثر ما سمعت هذه الكلمة دون أن تظهر حكمة واحدة لكل ما يحدث، وهل يعني هذا أنني لن أعود إلى شخصيتي الأصلية؟
*ستعود إلى شخصيتك الأصلية وستتذكر كل شيء بالتدريج، فقط عليك اتباع الخيوط والمفاتيح، أستطيع أن أساعدك بأول الخيوط، ألا تريد أن تعرف اسمك؟
وقفت واتجهت نحو الباب وقلت:
-لا، لست مستعدًا لذلك الآن، سأكتفي باسم "ياسر".
*وفّقَك الله يا بني في مهمتك الثقيلة، إذا احتجتني في أي وقت ستجد وسيلة للاتصال بي، على الأقل لديك صديق مخلص لتبدآ سويًا.
ثم أشار إلى الشرفة وقال:
-ألا تريد الآن أن تقابل ياسر؟
شعرت بغصة في حلقي وقفزت إلى ذهني صورتي -أو صورة ياسر- وهو يصرخ في ألم، فقلت وأنا في طريقي للخروج:
-لن أستطيع يا سيدي، لن أستطيع.

15
البداية

نظرتُ نحو البيت وأخذت نفسًا عميقًا ثم تقدمتُ من الباب.

"يا أستاذ، لو سمحت"

التفتُّ لصاحب الصوت.

"ألم تأتِ هنا من عدة أيام وقلتَ أنك تبحث عن بيت الحاج إبراهيم المحمدي؟ لقد عرفتُ لكَ مكانه، إنه في شارع "طابا" المقابل لهذا الشارع، ولكن الحاج إبراهيم توفي منذ عامين وابنه عبد الرحمن هو الذي يسكن في البيت".

إنه الأستاذ أمين، لم ينس الاسم الذي اخترعتُه المرة السابقة ولم يتوانَ عن اكتشاف حقيقة هذا الاسم.

-شكرًا يا سيدي، لقد جئتُ اليوم لزيارة الأستاذ ياسر الجندي.

*حسنًا، لقد كان مختفيًا منذ عدة سنوات، وعاد مساء أمس فقط، لقد كان مصابًا في حادث، وبعدها....

تركته يُكمل ودخلت إلى مدخل البيت، لا أستبعد أن يكون لديه تفاصيل خطة الشيخ صابر كلها! صعدتُ السلم في بُطء ووقفت أمام باب شقتنا -عفوًا شقة ياسر- مترددًا، ثم ضغطت زر الجرس.

فتح محمد الباب، نظر في وجهي قليلًا، ثم قال:

-أنت مرة أخرى؟! ماذا تريد الآن؟

-أريد أن أقابل ياسر.

*للأسف هو مريض الآن، وقد منع الأطباء زيارته.

ظهرَت عفاف من خلفه وقالت:

-لا بأس يا محمد، لقد قال محمود أنه من ساعده في العثور على ياسر، دعه يدخل.

نظر محمد نحوي في شك ثم أفسح لي مجالًا للدخول.

قادتني عفاف إلى الصالون حيث كان الجميع مجتمعين للاحتفال بعودة ياسر.

كان ياسر يجلس على كرسي متحرك وقد أحاطت جبيرة بساقه وأخرى بذراعه وغطت رأسه الضمادات، لم أستطع النظر في وجهه، كانت عُلا تجلس بجواره فاضطررت أن أشيح بوجهي في الاتجاه المقابل حيث تجلس والدة ياسر وزوجة محمد وعلي الصغير ووالدة علا ومحمود.

-هل من الممكن أن أتكلم معك على انفراد؟

فرد محمد بغضب:

-لا طبعًا، غير ممكن.

وقف محمود واقترب منه وقال:

-لا بأس يا أستاذ محمد، أنا سأبقى معهما، الرجل ساعدنا كثيرًا في العثور على ياسر.

تردد محمد قليلًا ثم قادهم إلى الخارج وتبقى فقط محمود و.... عُلا.

نظرت إلى عُلا فارتجّ قلبي في صدري، لم أستوعب بعد أنني لستُ ياسر، وإن استوعبتُ ذلك فما لم أتخيله أبدًا أن عُلا ليسَت لي، فها هي تجلس بجوار رجل آخر وترفض أن تفارقه.

"أنا لن أترك ياسر".

فقلت لها وأنا أشيح بوجهي: لا بأس، تستطيعين البقاء.

أغلق محمود الباب.

رفعت وجهي نحو ياسر وعندما التقَتْ عيوننا دارت الدنيا بي.

صراخ
استغاثات
صوت بارد (اضربوه)
(أكثر)
(كهرباء)
(مرة أخرى)
(لا أحد يفعل هكذا معي، ستتكلم وإلا سلختك حيًا)
أمسكَنِي محمود وساعدني لأجلس وقال:
-هل أنت بخير؟
فقلت بصوت متحشرج:
-أنا بخير.
ثم قلتُ دون أن أنظر في عينيه:
-ياسر، لم آت لأعتذر لك عما حدث، ولا لأطلب منك أن تسامحني؛ لأني أنا شخصيًا لم أستطع أن أسامح نفسي، جئتُ فقط لأقول لك أني نادم على ما فعلت، وأن إحساسي بالندم يعذبني بالفعل، كل ما عانيتَه أنتَ يتكرر معي يوميًا فتعذبني معاناتك، ثم يقتلني إحساسي بالذنب بما اقترفت يداي.
مرت دقيقة من الصمت، لم يتكلم ياسر، اقترب منه محمود وربَت على كتفه مشجعًا، وأمسكَت علا بكفّه وضغطَت عليها.
ثم قال:
-حسنًا يا....
قاطعته بسرعة:
-ياسر، تستطيع أن تناديني بـ"ياسر".

فابتسم وقال:
-حسنًا يا ياسر، في الحقيقة أنت تستحق الشكر على ما قدمتَه لي بقبولك تحمّل تلك المهمة عني، تضحيتُك هذه أعادتني للحياة حرفيًا، أما ما حدث لي فلقد سامحتُك خاصة بعدما عرفتُ أنه كان لحكمة ما، ورُبّ ضارة نافعة.
-حكمة مرة أخرى؟
*أجل حكمة، وستعرف أنت ذلك بنفسك.
ثم ابتسم ومد يده لي؛ فاقتربت وسلمت عليه، عندها قفزت إلى ذهني ذكرى جديدة.

كان ياسر يقف أمام الخزانة وقد اعترَتها آثار المعركة، وأمامه يقف الشيخ صابر.
-هل تمزح يا شيخ صابر؟ هل تريدني فعلًا أن أسلم الرسائل للسفاح؟
*أجل أريد منك ذلك، ألم أقل لك دائمًا أن كل شيء يحدث لابد أن يكون له حكمة ربانية ما، ولكننا لا نعرفها إلا في وقتها، موهبتك هذه لها حكمة، ووصول هذه الرسائل لك له حكمة، وهذه الحكمة لم تكن أن تستغل هذه الرسائل في فضح المجرمين أو منعهم من ارتكاب المزيد من الجرائم، مهمتك كانت فقط الحفاظ عليها حتى تسلمها للشخص المناسب.
-وهذا الشخص المناسب هو السفاح؟!
*نعم، هو.
-ولماذا؟! لِمَ إِذَن لَمْ أسلّمها له من البداية بدلًا من تلقي كل هذا العذاب؟
*لأن الحكمة من وصول الرسائل إليك لم تكن فقط الحفاظ عليها وتوصيلها للشخص المناسب، إنما أيضًا عليك توصيل هذا الشخص إلى حقيقته، فلو

أنك أعطيته الرسائل لسلّمَها لهم وانتهى الأمر، ولكن عليكَ تغييره حتى يصل إلى حقيقته الغائبة عنه، حينها يكون أهلًا لتسلم الرسائل.

-لست أفهم شيئًا، ما هي حقيقته الغائبة عنه؟

*هذا الفتى يملك قدرات هائلة، لا يعرف عنها شيئًا، هذه القدرات تؤهله لاستخدام هذه الرسائل والقَصَاص من المجرمين وتهديد عرشهم، والحمد لله أنه لم يعرف بأمر هذه القدرات وهو في جانبهم ومنغمس في أفعالهم.

-وكيف عليّ أنا أن أوصله لحقيقته؟

*هو يحتاج إلى صدمة تعيده إلى جوهره وتمحو عنه ما زرعوه فيه، وهذه الصدمة تستطيعُ أنت أن تعطيها إياه لو جعلتَه يعيش معاناتك وذكرياتك.

-وكيف يكون هذا؟

*دع الأمر لي، فقط دعني أدخل إلى عقلك وسأنقل له ذكرياتك كلها.

-وماذا عن حياتي الشخصية وأسراري الخاصة؟!

*لا بد أن يعيش حياتك بحذافيرها حتى يحدُث التأثير المطلوب.

-ماذا عن الرسائل؟

*سأنقلها له وسنضع عليها قفلين؛ أحدهما لا يفتح إلا إذا كان هو على استعداد لحماية الرسائل بأي ثمن، والآخر سأترك المفتاح معك لتعطيه إياه عندما تطمئن أنه قد تغير بالفعل، ثم نَمحِيها من ذاكرتك وبعدها نجري لك العملية لتتخلص من موهبتك ومعاناتك.

أفقتُ من الذكرى.

الآن فعلًا أشعر أنني قوي جدًا.

قدرات هائلة تسري في عقلي.

لم أعد خائفًا من أحد.

لم أعرف مدى قدراتي بالضبط، ولكني أشعر أنني قادر على فعل الكثير، نظرتُ إلى ياسر، ثم قلت له:

-هل فعلًا فقدتَ موهبتك بعد العملية؟

ابتسم وقال:

-نعم، ولقد جرّب ماكجراث بنفسه ودخل عقلي، وكان يرقص فرحًا بالداخل.

نظرت في عينيه في شك، ثم قلت:

-كيف عرفتَ أنت أنه كان يرقص فرحًا، ربما أنتَ من سمح له بالدخول.

ابتسم ياسر ابتسامة غامضة، ثم قال:

-أخبرني الشيخ صابر.

ثم قال:

-تمنياتي لك بالتوفيق في مهمتك.

حين قالها انفتحت الرسائل في رأسي وانهمرت المعلومات، يا للهول، اندهشتُ من خطورة ما رأيت، كان معظمها لا يزال مغلقًا ولكنّ ما رأيته منها جعل جلدي يقشعرّ، لابد من إيقاف هذه الوحوش.

ابتسم ياسر وقال:

-الآن تبدأ مهمتك يا بطل.

ابتسمت له وقلت:

-شكرًا لك، أتمنى أن أكون عند حسن ظنك.

ثم نظرتُ نحو عُلا وقلت:

-وأتمنى لكما حياة سعيدة.

عندما هممتُ بالانصراف قال محمود:

-مهلًا.

ثم نظر إلى ياسر وقال:

-أستأذنك يا ياسر بالانصراف، أعتقد أنني يجب أن أذهب مع هذا الـ"ياسر" الآخر.

فقلت بدهشة:

-ماذا؟!

فابتسم محمود وقال:

-هل نسيت؟! أنا لا أتخلى عن أصدقائي أبدًا.

تذكرت قول الشيخ صابر(على الأقل لديك صديقٌ مخلص).

ابتسم ياسر وقال:

-تمنياتي لكما بالتوفيق.

فقال محمود:

-هيا يا صديقي، علينا التفكير في خطة تمويه، لابد أنهم يراقبون المنزل.

فابتسمت وقلت:

-لقد تغيّر الوضع، لم يعد علينا الهروب منهم، الآن دورهم في الهروب، فلنبدأ مهمتنا.

تمت بحمد الله